

دار الشروق

نُـور

يوسف زيدان

الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٦

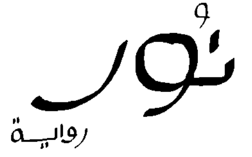
تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٦/١٤٣٦٤
ISBN 978-977-09-3388-6

يوسف زيدان



رواية

دار الشروق


fb/mashro3pdf

.. وفي صباح السابع استراح من بعد طول التعب فالتذَّ بالراحات حتى مالت الشمسُ خلف خطِّ الزوال وعند ابتداء المساء تنسَّم مع دُخان الشواء رائحةَ الرضا فلم يعد من بعد إلى عمل كيلا يتكرَّر الكلل وقيل بل لميله إلى الملل من الناس وما هم عليه من التوجُّس والالتباس..

«نصٌّ أبوكريفي»


fb/mashro3pdf

في حِضن نور

ساكنةَ الحركة وهانئةً، كانت ابنتي «نور» تجلس في الصالة مشدوهةَ النظرات كعادتها عند مشاهدة مسلسلات الكرتون المفعمة بالألوان والصور السريعة. وكنتُ كعادتي في الأمسيات، منهمكةً في أعمالي المنزلية التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد. أدركتُ أنني متعبة، حين أتاني صوتُ أذان العشاء منغَّمًا من مئذنة مسجد «سلطان» البعيد عن البيت نسبيًّا، أو شِبه القريب، وسرعان ما ركبتْ فوق صداه العذب أصواتُ أذاناتٍ زاعقة أُطلقتْ من الزوايا والمساجد الصغيرة التي انتشرت مؤخرًا بالمنطقة المحيطة، وصار القيّمون عليها يحرصون على اقتناء أعلى مكبرات للصوت، لنشر الأجشّ على أوسع نطاق. لتأكيد أن هذا النطاق يخصُّهم. قبل أن تنتهي الأصداءُ المتداخلة من تكرار تأكيدها أنه لا إله إلا الله، علوتُ بكعبي فأغلقتُ الضلفة الزجاجية المغبَّشة بكوّة المطبخ التي كنا نسميها الشباك، وكان أبي يدعوها باسمٍ لم أفهم يومًا معناه: الطاقة.

خفتتِ الأصواتُ والأصداءُ المتزاحمة تباعًا، وتناهت، فانتهيتُ من غسيل ما استقر بقاع الحوض من أكوابٍ ومواعين قليلة، كيلا تجذب إليها في جوف الليل الصراصير الكبار التي طالما عرفناها،

وتلك الصفار السريعة التي انتشرت فجأةً قبل سنوات، وصارت تمرح في معظم البيوت. قبل ابتعادي عن المطبخ، تأكَّدتُ بلمحةٍ فاحصة من إحكام انغلاق الكوَّة، كي أطمئن إلى استحالة تسلُّل أيِّ فأر إلى المطبخ، فينطلق وحده ليلًا، فنكتشفه نهارًا، فنطارده لنطرده، فتنتشر الفوضى ويملأ شقتنا الهرج. سوقُ «الخضار» الملتف حول البيت مع الأزقَّة الضيقة المحيطة، مزدحمٌ بحركة الناس طيلة النهار ومعظم الليل. وفي أواخر الليلات وعند الفجر، ترتع في حناياه بلا أيِّ إحجامٍ فئرانٌ متفاوتة الأحجام.

أيام التجاءتُ إلى شقة أبي هذه، كانت «نور» رضيعةً تنظر إلى الدنيا من فوق كتفي، فتندهش حين تلمح هذه الكائنات الصغيرة المرتعبة، وتكتفي بالتحديق نحوها بعين الذهول. فلما بلغت معى السعي حبوًا، صارت ترتعد عند رؤية صرصور وتصيحُ فَزِعةً إن لمحت فأرًا. ورويدًا، بددتُ خوفها من الفئران بإشاعة المرح عند مطاردتي لما يفد منها أحيانًا إلى شقتنا، وبتعمُّدي توجيه نظرها بالإشارة إلى ما يظهر منها أحيانًا في الزقاق ومدخل البيت، مؤكدةً لها أنها مجرد حيوانات صغيرة لا تؤذي البشر وأنها هاربةٌ دومًا من القطط وفارَّةٌ الناس، وخائفة. والخائفُ الفأرُ لا يُخيف. فلما بلغت «نور» العام الثالث من عمرها، وداومتْ على مشاهدة أفلام الكرتون، تعلَّقت بالفأر الملون المَرِح وأحبته، حتى صارت تصخب بلا خوف حين ترى فأرًا يمرق بين أكداس السوق في الأمسيات. لكنها ظلت تخاف الصراصير، ما صغر منها وما كبر، وتحذر منها.. تُرى، كيف سأعلِّمها حين تكبر، ألا تُفرط في الخوف والحذر من البشر، وهم الذين

تمتزج ببواطنهم صفاتُ الفئران والصراصير والزواحف والطواويس والفراشات والطيور المحلِّقة، بل منهم مَنْ يكونون أكثرَ طاووسيةً من الطاووس، وأكثرَ فئرانيةً من الفأر.

الفئران الفَزِعة دومًا تدعوني أحيانًا للابتسام، لأنها تذكِّرني بحُجَّتي التي أسكتتْ أبي واشعرتني بحنوِّه.. حين كنت طفلة في حدود العاشرة من العمر، مغص بطني مغصةً شديدةً فتأوَّهتُ من نوبة الوجع، فجاء أبي وسألني بعطفه المعتاد عمَّا بي، فأجبته بأن الألم سوف يُميتني! قال:

- بعد الشر عليكِ يا بنتي، دلوقتِ ربنا هايشفيك ويبعد عن بطنك المغص.

- يا بابا، هوَّ ربنا ماله بسّ ومال بطني؟

- ربنا يا نورا له دعوى بكل حاجة، علشان هوّه إلّ خلق الحاجات كلها وخلَّاها حلوة.

- يا سلام ياسي بابا، أمَّال الحاجات الوحشة جت منين؟

- مفيش حاجة وحشة، ما دام ربنا هوَّه إلّ خَلَقها.

- طيب مين إلّ خلق الفار، وخلَّاه معفن كده؟

ضحك أبي واحتضنني، وراح يتلو الأدعية الهامسة فتملأ أصداؤها جوانب رأسي الصغير، وتغوص بباطني فتشيع فيَّ الطمأنينة وتُبعد عني الأوجاع.. حتى نسيتُ الألم ونمتُ متوسِّدةً صدره.

* * *

الساعة الآن تقترب من التاسعة مساءً ولا بأس من استراحةٍ هانئة قبل النوم، وتأجيل بقية المهام المطلوبة إلى الغد. مطلوب تلميع زجاج الشبابيك وبَشْر صابون الغسيل واستكمال التطريز، لكنها كلها أعمالٌ قابلة للتأجيل. هه، يقولون: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد. لعلها في الأصل نصيحةُ حاكمٍ لمحكوميه، أو حكمةُ رجلٍ غنيٍّ لم يعرف التعب، أراد خداع فقراء يخدمون مصالحه. عمومًا، النصائح والحِكَم لا تخلو عادةً من مخادعة، ومن إغواءٍ بمخالفتها إذا سنحت الفرصة وقويت الأسباب. مدلِّلةً لها، ناجيتُ نفسي بما خلاصته: *كَفى اليوم تعبًا، وهيا يا نورا الأمُورة السنيورة إلى الراحة وحضن نور*.. باسمةً، غسلتُ على عجلٍ ذراعيَّ إلى المرفقين ونفضتُ عنهما ما علق من الماء، وبهما أحطت أجمل طفلة في الكون قائلةً لها: *دلوقت أنا عاوزة عشر بوسات وحضن كبير.. هَمْ، هَمْ.*

ـ بس بأه يا ماما، عاوزة أشوف سلاحف النِّنجا.

رفعتها عاليًا وعينها معلَّقة بشاشة التلفزيون، فأخذتْ تتلوّى ضاحكةً بين ذراعيَّ وصدري. أجلستها في حِجري على الكنبة وأشبعت ظهرها تقبيلًا وخمشًا، فتعالت ضحكاتها حتى وصلت إلى الحالة المبهجة التي نسميها «السخسخة» وعندئذ تركتها تستكمل المشاهدة، وسحبتُ من فوق الكنبة متكأً توسّدته وأنا أفترش الأرض قرب أصابع قدميها المبهجة كالمجوهرات، ورحت أداعبها برقةٍ وقد غمرني شعورُ الفرح.. نور فرحتي الوحيدة.

بدا لي أن أقرأ شيئًا قبل نومي الذي بقيت ساعة على موعده المعتاد، فتذكَّرت الرواية القصيرة التي قرأتُ منها أول أمس صفحتين،

وأضحكتني تفاهتها البادية من عنوانها العجيب (الملاحيس) ومن ركاكة لغة مؤلفها الذي استهلّ روايته بفقرة حفظتها من شدة سذاجتها. يقول فيها: «بعد انتهاء العركة اليومية مع زوجته التي كان يحبها في شبابه حبًّا جمًّا، دلفت الزوجة الظالمة إلى الحمَّام وأخذت تضحك براحتها، ودلف الزوج المظلوم إلى فراشه وهو يشعر في قرارة قلبه أنه مكتوب عليه أن يحارب القدر الغاشم» لحظتها ردّدتُ في سري ساخرةً، كلمات الأغنية الشهيرة: *قدرٌ أحمقُ الخطى سَحَقتْ هامتي خطاااه!* وألقيتُ بالرواية من يدي.. أين وضعتها؟

- نور يا حبيبتي، فين الكتاب الأحمر الصُغيَّر إلِّ كان معايا من يومين؟

- مُش عارفة يا ماما.

يا صبر أيوب. قمتُ من جلستي المستريحة فدخلت الغرفة الصغيرة ونبشتُ الكتب المكدَّسة في خزانة الملابس المتداعية للسقوط منذ سنوات، فلم أجد ما أريد. ترددتُ قليلًا قبل أن ألتقط الديوان الشعري الذي قرأتُ سابقًا نصفه الأول، ولكنني كنتُ أيامها مهمومة فأهملتُ استكماله بسبب استسلام الشاعر للأحزان، وتوقفت عن القراءة عند الموضع الذي كان الشاعر يقول فيه: «حزني ثقيلٌ فادحٌ هذا المساء».. ليلتها، همستُ لنفسي بأنني في غنى عن استدعاء المزيد من المعاناة، ومثل تلك القصائد يجب أن تُقرأ نهارًا لا ليلًا، كيلا يؤرقني القلقُ ويسُومُني سوءَ السهاد. ومن يومها نسيته. لا مانع الليلة من استكمال قراءته فحالي اليوم أفضل كثيرًا، ولكنه إذا ضايقني سأتركه مجددًا، ولن أعود من بعد لقراءته أبدًا.

عدتُ إلى جلستي الأرضية بالصالة والديوان بيدي، وطلبتُ من «نور» أن تُخفض قليلًا من صخب التلفزيون ففعلتْ، فأسلمتُ عينيَّ وروحي إلى السطور الشعرية، ورويدًا أدارتْ رأسي دواماتُ الكلمات.. هذا الشاعرُ حزينٌ إلى الدرجة الدافعة للانتحار، ولعل من حسن حظه أنه مات في سنٍّ مناسبة، فلو طال به الأجلُ أكثر لانتحر. أخذتني مني كلماته الحانيات الحافلات بالأسى، حتى استدعاني من بعيد قول نور:

ـ يا ماما الكتاب ده وحِش، بيخلِّيكي تعيَّطي.

ـ لا يا روح قلبي، مفيش كتب وحشة. أنا بس سرحت شوية، وافتكرت حاجة مُش كويسة.

مسحتُ متعجلةً دموعي، وتركت الديوان مفتوحًا على الموضع الذي أثار بشجونه أحزاني، وتصنَّعتُ التبسُّم كي تطمئن صغيرتي.. ربما أعاود القراءة بعد نومها، فالساعةُ اقتربت من العاشرة وآلَ يومٌ آخرُ إلى ظلِّ الزوال، بسلام. لما عادت لاستغراقها في المشاهدة والاندهاش، عدتُ إلى الأشعار وأعدتها في سري همسًا، لأحفظها:

يا ربنا العظيم،

يا مُعذِّبي،

يا ناسجَ الأحلامِ في العيون..

اخترت لي ا لشَدَّ ما أوجعتني

ألم أخلص بعد؟

أم تراك نسيتني

الويل لي. نسيتني،

نسيتني،

نسيتني.

* * *

قمتُ من جلستي الأرضية فوضعتُ الديوان الشعري فوق سقف التلفزيون القديم، وهممتُ إلى المطبخ بنشاطٍ مفتعلٍ كي أتمّ مهمتي اليومية الأخيرة. أشعلتُ لهب الدمّاسة بعدما ألقيتُ في جوفها ثلاث حفنات من حبّات الفول وصببتُ عليها المقدار المناسب من الماء، ثم مسحتُ الرخامةَ التي فقدت لونها والبوتاجازَ الذي كان أبيض، بقطعةٍ مبللة. استدرتُ إلى الصالة لإنهاض «نور» من أمام أفلام الكرتون مستعملةً عبارتي المسائية المعتادة، وبالنبرة ذاتها المازجة بين التحذير والحنوّ: *يلّا يا كتكوت، الساعة بقت عشرة.*

قامت معي مترنحةً، برقة غزالٍ يغالبه النعاسُ وسريعًا سوف يغلبه، فدسستُ راحتي اليسرى تحت إبطها الطفولي الرقيق. ومن طرف أريكة الصالة، أقصد «الكنبة» الوحيدة بالبيت، سِرتُ بها إلى سريرنا الدافئ لحافه وغطيتها به وبقبلةٍ ناعمةٍ تُسلمها إلى أمان النوم. لما ابتسمتْ حبيبةُ قلبي، أشرقت بقلبي شموس صغيرة ملونة.

كنتُ ساعتها ساكنةَ الهواجس، وغافلةً عن المكالمة المفاجئة التي ستأتيني بعد ساعتين، فتعصف بكل سواكني.. بعدما هدأتْ، قمتُ بهدوء من جوار «نور» ثم عدتُ إليها بعدما أوصدتُ بالرتاج الصدئ

باب الشقة، وأغلقتُ بإحكام شباك الصالة وضلفتيه الزجاجيتين. حين أطفاتُ اللمبات استولى السكونُ على المكان، والسكينةُ، وكاد الإعتامُ الناعمُ يعمُّ غرفتنا الصغيرة.

شقة أبي هذه، التي صار إليها المآلُ فكانت لنا نعم المأوى، كل ما فيها صغيرٌ: مطبخٌ بلا بابٍ على يمين الداخل من الباب، وحمَّامٌ ملاصقٌ له مفتوحٌ بابه الضعيف على الصالة المفتوح عليها الغرفتان الصغيرتان.. في طفولتي الأولى كنت أرى تلك الأماكن رحبة، فسيحة الأنحاء.

برفقٍ، انسربتُ بساقيَّ تحت لحافنا واحتضنتُ فَرَاشتي النائمة، ورحت أمرِّر أطراف أناملي على جدائل شعرها الكثيف، آملةً أن تطمئن إلى نومها فتحلم بالضياء الملوَّنة المتماوجة، التي طالما رأيتها في أحلام طفولتي. لم أكن أنام في طفولتي بغرفتنا هذه التي نسميها البحرية، مع أنها شرقية، ولم أكن أدخلها إلا نادرًا. لأنها كانت مخصَّصة لأبي وطنط «عزّة» المسماة تدليلًا «وزَّة». هي لم تكن تحب دخولي غرفتها، وكانت تحرص على إغلاق بابها بمفتاح. سامحها الله، ورحم أبي الذي تزوَّج بها عقب وفاة أمي لترعاني، فرأيتُ منها ما رأيتُ. لابد أن الله سيرحم أبي ويغفر له خطاياه إن وُجدت، فقد أمضى حياته وديعًا محزونًا ولم يُعرف عنه إيذاءُ أحدٍ أو الشجارُ مع أي شخص، مع أن المشاجرات في الحيِّ دائمة الوقوع بين معظم الناس. اسم أبي «عبد السلام» كان منطبقًا عليه تمامًا، وله منه النصيب الوافر. رحمه الله . مات بعد معاناةٍ طويلةٍ كفيلة بمحو الذنوب كلها، فلا يُعقل أن يعاني الناسُ في الدنيا إذا عبستْ، ثم في الآخرة إذا حضرتْ. الله اسمه «الرحمن» ولذلك فسوف يرحم أبي،

أما «عزة» فلن يسامحها الله أبدًا، إذ ليس من بين أسمائه المسامح أو المتسامح أو السامح. لا أدري، فالأسماءُ قد لا تدل على المسمّى. وكيف يصح أصلًا اسم، لمسمّى لا رسم له. مَنْ يدري؟ فربما هناك سرٌّ لهذه الأسماء، وأنا لا أعلمه. لكن الله اسمه أيضًا «الغفور» وربما أراد أن يُخطئ الناس في حقّه، ولاحقًا يغفر لهم فينطبق عليه اسم الغفور، ويتحقق أيضًا بهذا التعالي معنى اسمه «المتعال» الذي يعني أنه مُفارقٌ مُتجاوزٌ، لا يكترث كثيرًا بما يفعله الناس.. وكيف له أن يكترث، وكل شيء بالنسبة إليه هينٌ أو معدومُ الأهمية؟ والبشرُ أساسًا لاشيء، فما هم في خاتمة التطواف إلا موجاتٌ متتالياتٌ في بحرٍ تحرِّكه الرياحُ إلى حينٍ، أو تنقش سطحه نقوش مؤقتة. ولكن شطآن الموت سرعان ما تكسر الموج كله وتطويه، مهما علا أو تسارع. عمومًا أنا الآن لا شأن لي بعزّة ولا بغيرها، وليفعل بها ربُّها ما يراه عادلًا.. ومنصفًا.. الإنصاف! ما معنى هذه الكلمة العجيبة، وعلى أي شيءٍ في الحياة تنطبق؟ يووه، لا فائدة. يجب أن أطرد عني هذه الأفكار كلها، فهي تتركني كل مرة حبيسة الحيرة.

في زمني الجميل. أقصد قبل خروجي من هنا للزواج متكسّرةً، ثم عودتي مع ابنتي متحسّرةً. كنتُ أنام بالغرفة الأخرى المسماة «القبلية» مع أنها غربية، وفيها تراكمت معظم ذكرياتي المبكرة.. أقدمها عندي أنني كنت أحدِّق قبل نومي في لمبة السقف، المحيط بها قُمع كبير من البلاستيك الملون، وأطيل التحديق فأتوهّم أن هذا الضوء الملوَّن المبهج، هو الله. وكان يُريحني هذا الوهمُ، ويشعرني بأن المُفارق المُتعالي قريب. ويوم أفصحتُ لأبي عن سرّي هذا وكنتُ في حدود السابعة من عمري، ضحك بهدوءٍ وقال:

لا يا نورا ربنا فوق في السما بعيد.. قلتُ له بلسان الطفولة: طيب ما كان يعيش معانا هنا في الأرض، بدل ما يقعد فوق في السما لوحده! فقال: سبحانه، كفاية كلام يا نورا.

* * *

الليلة. مثلما يحدث في معظم الليلات، ساحت بي الذكرياتُ والأفكارُ وطوَّفت في آفاقٍ بعيدةٍ، حتى أراحني النوم مني. عند انتصاف الليلة وصلني من خلف باب الغرفة صوتُ رنَّات الهاتف، فتجاهلتُ الأمر بأن طويتُ على أطرافي دفءَ اللحافِ ولذّةَ الراحةِ في حضن نور. لن أنهض. قد يكون اتصالًا أخطأ الرقم، أو معاكسة سمجة من أحد الرجال الفُرَّاغ الذين يخيِّل لهم غباؤهم، أن المرأة المُطلّقة لعوبٌ تعاني من فوران الشهوات، وتتمنى الارتواء بالارتماء تحت أقدام أول رجلٍ يُداعبها باستهانةٍ، أو يقتحمها بإقدام. كأن المُطلّقة عند حثالة البشر هؤلاء، مريضةٌ تميل بطبعها إلى مزيدٍ من التعذيب.

بعد هدأةٍ لم تمتد، عاد الرنينُ ليقضَّ استلقائي المستدفئ. انتبهتُ إلى أن الرنّات طويلةٌ وغير ثنائيةٍ كتلك المعتادة، فأدركتُ أنه اتصال من خارج الإسكندرية أو من خارج مصر. ربما هي «أمل». لكن الوقت متأخر! تُرى كم الساعة الآن؟ قمتُ إلى الصالة متخبطةَ الخطو، وقبل أن أهبط إلى الكنبة رفعتُ سماعة الهاتف وعيناي مغلقتان، وقلتُ بمللٍ: *آلو.*

ـ أيوه يا نورا، انتِ نايمة بدري كده ليه! اسمعي عندي ليكِ خبر مهم أوي.

ـ خير يا أمُّولة. هيَّ الساعة كام دلوقتِ؟

ـ عندنا هنا الساعة اتنين، ودلوقتِ عندك اتناشر. فيه فرق ساعتين بين الدوحة واسكندرية. بس أنا مقدرتش أصبر للصبح، أول ما وصل المنيِّل أخدت تليفونه الجوال.

ـ المنيِّل! تقصدي مين؟

ـ يا نورا صَحْصَحي معايا. حسن جوزي، هيكون مين غيره يعني.

ـ طيب يا أمل، خير، إيه إلّ حصل يا حبيبتي؟

ـ مش هتصدقي النهارده قابلت مين. «سمارة». حبيب قلبك. قابلته في السوق وأول ما شافني سألني عنك، وكان نفسه يكلمك. هيموت عليكِ. قال لي إنه مسافر بكرة الصبح تَبَع الشغل، هيروح حتة كده بعيدة وهيرجع بعد شهر أو شهرين بالكثير، وهيتصل بيكي على طول أول ما يرجع. على فكرة دا بقى دلوقتِ زي القمر كده، وملو هدومه. ونِضف قوي يانورا. بيشتغل هنا في التليفزيون.

ـ إنتِ بتقولي إيه يا أمل!

ـ أيوه واللهِ، بيشتغل معاهم مراسل. وسألني عنك وعن البنت، قلت له إنها طالعة شبهه الخالق الناطق. اتبسط كده، وعينه لمعت. شوفي، أنا لمَّحت له كده بشوية حاجات، وادّيته نمرة تليفونك علشان يكلمك أول ما يرجع من السفرية إلّ رايحها.

ـ طيب، ما كان يكلمني.

ـ شوفي، أنا لقيـه مذهول ومتلخبط لما عرف إنك اطَّلقتِ، وقاعدة دلوقتِ لوحدك. كانت عينيه هتدمّع م الفرحة. أنا إلّ قلت له يكلّمك لما يرجع، علشان يكون اتلمَّ على أعصابه كده، وينجز. المهم، خلاص دلوقتِ علشان سي حسن أفندي طالع م الحمام. حمام العوافي يا عين امك، هئ هئ. هكلمك بكرة يا نورا م السنترال، سلام انتِ دلوقتِ يا روح قلبي.

أغلقتْ «أمل» هاتف زوجها الجوّال بعدما قدح كلامها في أنحائي شرارات نورٍ ونار، وطوَّحني بعيدًا عني فبقيت مذهولةً. وجيبُ قلبي يتسارع ورأسي يتأرجح بين نواحي الفرح والحيرة. ما هذا؟ أتراني أحلم؟ مرَّت عليَّ فترة لا أدري كم امتدت، حتى أتاني من خلف الشباك صوتُ رياحٍ سريعة، وأصداءُ رعدٍ بعيدٍ يدلُّ على اقتراب هطول المطر الوفيرِ. الشتاءُ دخل علينا هذه السنة عفيًّا، ومن بعد نوَّة «غسيل البلح» لا تهدأ الريحُ أحيانًا قليلة، إلا لتعود فتشتد. ثم لحقت بها نوَّة «رياح الصليبة» العتية، فما خلا يوم من مطرٍ ينهمر بأغزر من المعتاد في هذا الوقت من العام. لعلها بشرى. أنا أحب المطر، والأنواء، وأحتاج جدًّا هذه البشارات.

يااااه. أخيرًا ظهر من بعد اختفائه التام، وبعدما كدتُ أفقد بقية الأمل، وكاد اليأسُ يُسلمني إلى البؤس.. هزَّ الجدران رعدٌ قريب فقمت من سريري إلى الصالة مخطوفةَ القلب، ثم عُدت لإلقاء نظرةٍ على «نور» فوجدتها ساكنةً في أمان نومها. واربتُ عليها الباب وذهبتُ مبتهجةً إلى المرآة التي فوق الحوض في الحمَّام وحدَّقتُ بعين الفرحة في ملامحي، فرأيتُ وَهَجًا كان قد انطفأ. حادثتُ نفسي

بلا صوت: أتراني تغيَّرت؟ هل هذه الملامح هي ما أحبَّ وهاتانِ الشفتانِ هما ما ذاق وعشق؟ أهذه أنا.. نعم، هي أنا بعد معاناة سنوات خمسٍ عجافٍ، موجعة. لكنني سأبقى جميلةً في عينيه مثلما كنتُ دومًا، ولسوف أستعيدُ ذاتي وكأن كلَّ الذي كان، ما كان.

لماذا لم يتصل بي من فوره، وكيف سأطيقُ الانتظار. أمره عجيب. ألا يدري قَدْر احتياجي إليه وعُمْق اشتياقي؟ لن ألومه، فأنا التي ابتعدتُ عنه وبادرته بالهجران. كنت مضطرةً. وهو الذي جاء من بعيد يفتِّش عني، فاستترتُ عنه مرغمةً. ما كان بإمكاني مواجهته ومواجهة مصيري المحتوم، معًا، ولم أقدر على احتمال رؤيته لي محطمةً مهزومةً. منكسرة. كلانا انكسر واحترق قلبه، بلا ذنبٍ جناه.

الحبُّ، أحيانًا، ذنبٌ.

لماذا يا «أمل» اصطنعتِ دور الحكيمة، ونصحته بتأجيل اتصاله بي إلى حين عودته من السفر. كان يمكنه الاتصال أمس فيقول لي أيَّ كلمة، وكان يكفيني أن أسمعه يناديني باسمي ويُحادثني بحُبٍّ، مثلما كان يفعل دومًا.. أين سافر؟ ومتى سيعود؟.. لماذا أبكي الآن.

غسلتُ بماءٍ كثيرٍ وجهي وجفَّفته، فأشرق، وأمام المرآة بللتُ شعري ومشَّطته بيدٍ ترتجف وشفةٍ تتهيأ للابتسام، ثم أدخلتُ من خلفه أصابعي، ونثرته حول وجهي مثلما كنت أفعل في الزمن المفقود. أيام كان يهمس لي بأن دوَّامات شعري تُغرقه في بحري، فأردُّ عليه بلسان الدلال وميعة الصبا: *بحر إيه يا ابني يا حبيبي، دا أنا المحيطات كلها..* سأخبره حين يتصل بأنني ما عدتُ من بعده محيطاتٍ ولا بحارًا، ولا حتى بحيرات، أصبحت مياهًا جوفية أو بئرًا جفَّت ماؤها. أنا أرضٌ

تشقَّقتْ. لا، لن أحزنه بهذا الكلام المرّ، ولن أحزن معه. سأقول فقط إني أحبه، وإن حبًّا كهذا لا يمكن أن يذهب سُدى.

ما الذي جرى لي! ما عدتُ من شدة شعوري بالفرح شاعرةً ببرد. كشفتُ كتفيَّ وسقف صدري بأن خلعت سترتي الصوفية الخانقة، وتنفستُ كل الهواء فامتلأتُ خفةً ومرحًا بحريًّا. نعم. هذه أنا، وتلك بشرتي الناعمة الناصعة التي طالما عشقها، وكان يطيل التأمل فيها ويرتاح إلى لمسها بأنامله. وها هي سُمرتي قد ازدادت إشراقًا بعدما زاد وزني قليلًا، وقلَّ تعرُّضي للشمس لندرة خروجي من البيت.. صاحبتي «ياسمينة» كانت تقول إن لوني البرونزي البرّاق هذا، هو أمنية الأوربيات. فأردُّ: *المستحيلة*.

أنا لم أتغيّر كثيرًا، وربما صرتُ الآن أجملَ وأكثرَ ملاءمةً للعشق والاشتياق والاشتهاء والمنح. سأمنحه ما يفوق خياله، وخيال كل الرجال. كان يهمس لي بأنه لا يحب النحيلات اليابسات كالنخلات، ولا البدينات جدًّا كالكُرنبات، ولا الشقراوات شبيهات البيض المسلوق وشعر الخرشوف. كان يقصد أنه يحبني أنا، فقط، وهو لا يزال يحبني ولن يراني إلا جميلة مهما كان حالي. أنا عنده الجمال.

الجوُّ برد، أم حرّ؟ وضعتُ على كتفي ما خلعته عني، وخرجتُ من الحمَّام المفتوح بابه إلى أفق الصالة الفسيح بأقدام رشيقة الخطو، متمايلةً، متموِّجةَ الذراعين كأنني أقود فرقةً موسيقيةً بديعة العزف. طوَّفت في الصالة بخفَّة راقصات الباليه، الفَرَاشيات، وأطلتُ التحليق في عليائي حتى كاد الدوارُ يُسقطني من سماء السعادة إلى بساط البهجة. تماسكتُ واحتضنتُ صدري بعنفوانٍ قديم، ثم هدَّأتُ

إيقاعي كيلا أقع. ماذا يجب عليّ أن أفعله الآن؟ أخرجتُ مرآةً صغيرة من شنطتي المعلَّقة خلف باب الغرفة القبلية، وجلستُ في الصالة أتأمل ملامح وجهي وتفاصيله، ولون عينيَّ المازج بين العسلية والاخضرار.

لا بد طبعًا من بعض الاستعداد. سأعاود من الغد الاهتمام ببشرتي والمسح عليها بزيت اللوز المُر، وأداوم على ترطيب وجهي كل ليلةٍ بقلب الخيار، وتغذية شعري بعجينة الحنَّاء. سأهتمُّ بكل ما فيَّ، بأسناني وبالرموش وبالحاجبين العريضين، وبنظرتي. من جديدٍ سأكتسي بسحري السابق. لن أضع مساحيق ملوّنة فهو لا يحب ذلك، سأكتفي بكريم الأساس مخفَّفًا وبالكحل الجذاب، وبابتسامتي.. لن أستطيع النوم الليلة، كيف سيأتي الوسنُ إلى قلبي الخفّاق وباطني المرتجف. سوف أبقى يقظةً حتى تتصل «أمل» وتخبرني بالمزيد من تفاصيل لقائها به، فأعرف منها كل حرفٍ قاله وكيف كانت ملامحه حين قاله، وكيف لمعتْ عيناه عندما عرف منها أنني الآن حُرَّة، وأن «نور» تشبهه. أتراه أدرك أنها ابنته؟ لن أفكر الآن في أي شيء، وليس عليَّ إلا الجلوس في سكونٍ تامٍّ، كي أهدأ.

* * *

الليلُ استطال. متى سيأتي النهارُ الكسول، متى؟ ما عدتُ قادرةً على احتمال أوجاع الانتظار. أسرعتُ ملهوفة إلى النتيجة الحائطية المعلقة بمدخل المطبخ، ونزعتُ منها على عجلٍ أوراق الأيام الماضية، المتشابهة، لأرى تاريخ اليوم.. ابتسمتُ مستبشرةً حين وجدت ورقة يومي الذي ابتدأ منذ ساعتين، مكتوبًا بأعلاها السنة

«٢٠٠١» وبأوسطها اليوم والشهر بأرقام كبيرةٍ مبهجة «١٠/ ١٠» وبأسفلها بخطٍّ دقيق: الأربعاء. وتحته بخطٍّ أدق، حكمة اليوم: اشتدي أزمةُ تنفرجي.

اشتدت عليَّ أزماتٌ عديدةٌ أوجعتني كثيرًا، وعانيتُ منها طويلًا، ولكنني ما تذمَّرت ولا شكوتُ حالي لأحد. صبرت فصار الله معي، أو هو كان معي فصبرت على المرار الذي مررت به. احتملتُ ما لا يُحتمل. لابد أن الله كان معي بطرائق خفية، وإلا فمن أين واتتني القدرةُ على البقاء أيام دهسني «مفتاح المبروك» بحوافره، وكيف عَبَرتُ معاناتي بعد رحيل أبي واسوداد الأيام؟ من أين جاءت هذه القوة. لعل الله كان حاضرًا معي، ولكنني لم أكن آنذاك واعيةً بحضوره فيَّ وفي كل التفاصيل.. الله ليس بعيدًا عن هذا العالم الذي نعيشه، ولا يمكن أن يسكن السماوات البعيدة، فينعدم معناه. هو معنا هنا، يختار لنا ما نظن أنه اختيارنا، ويدركنا حين نميل إلى الاستسلام للأسى، ويهمس إلى أرواحنا فتماسك ولا تنهار. ولهذا اشتدت بي الأزماتُ فتماسكتُ حتى انفرجتْ، وجاء اليومُ المبهج «الأربعاء العاشر من أكتوبر سنة واحدٍ وألفين».. أسعدُ الأيام هو الأربعاء، وهذا تاريخه «عشرة على عشرة» وعامُه متناسقُ الأرقام، يبدأ ألفيةً جديدة.

كان أول لقاءٍ مع حبيب عمري بأسوان، يوم أربعاء. وجاء إلى الإسكندرية أول مرة ليراني، يوم أربعاء. هذه كلها إشارات. وسطوع شمسُه في سمائي مجدّدًا، جاء مع ابتداء يوم الأربعاء بالذات، فهذه ليست مصادفات. لا صدفة في الكون. كان أستاذي العظيم «الدكتور أبو اليزيد» يؤكّد ذلك أيام كنا في السنة التمهيدية للماجستير وهو

يشرح نظرية أثر الفراشة، فيقول إن الحوادث الكبرى والصغرى يربط بينها خيطٌ خفي. فلو رفَّت فراشةٌ بجناحيها في الصين، كان ذلك مرتبطًا بإعصارٍ يهب في أمريكا! كلامٌ عجيب. كنتُ دومًا غير متأكِّدة من تلك الفكرة، لكنها الآن تبدو لي صحيحة. فالذي جرى قبل قليل، والذي جرى قديمًا، لم يكن صدفة.. ربما.. يا ربي.. عقلي مضطرب ويكاد يختل، يجب أن أهدأ قليلًا.

وصلتني من بعيد أصداءُ أذان الفجر بصوت مؤذن «مسجد سلطان» الجميل، المطمئن. بعد قليلٍ سوف تشرق شمسي ويبدأ نهاري، بعدما طال الليلُ بي وملأ كلَّ ما حولي ظلامًا وظلمًا.. مَن كان يتوقع أن تطل شمسي فجأةً في منتصف الليل، وأنا التي كنت صباح الأمس جالسة على هذه الكنبة، أفكر في مستقبل ابنتي وفي أيامي الآتية؟ ويُربكني أنني سأكون لابنتي «نور» أمًّا وأبًا، مع أنني لم أعرف أمي ولا أدري كيف تتصرف الأمهات مع بناتهن. لا أتذكر من طفولتي المبكرة إلا ما كانت تفعله معي «عزّة» التي تزوَّجها أبي لتكون بديلةً لأمي، حسبما كان يظنُّ. مسكين أبي، لم يكن يدرك أن الأم لا بديل لها.

كانت «عزة» تعاملني مثل لُعبة تتسلَّى بها، وتناديني حين يخرج أبي للمقهى باسم «كَدَشو» لأنني كنتُ أترك شعري الكثيف منفوشًا. وكانت تشاغبني لأثور عليها فتضحك، وأحيانًا تستدعيني من جلستي المنزوية بغرفتي إلى الصالة الصدَّاحة بالأغنيات الشعبية، وتدعوني إلى الرقص معها قائلةً بلسان امرأةٍ قرويةٍ تبتهج: يلَّا يا بنت هزِّي كده

زيّ *البنات*. فأرفض، وأردُّ عليها بعنادٍ طفوليٍّ ويداي المضمومتان تضغطان على جانبَي خصري النحيل: *أنا غير كل البنات*. فتردُّ ضاحكةً: *يا ختي اتيَلي على عينك*.

* * *

في فضائي الفسيح بالصالة جلستُ ساكنةً، بعدما توضأت، انتظارًا لموعد الصلاة. ثم سخرتُ من سهوي حين انتبهتُ فجأةً إلى أنني في نهايات دورتي القمرية. أحكامٌ عجيبة. الأيام المسماة «نجاسة» يحظر على النساء الصلاة خلالها، حتى يتطهرن! ولا أجد معنى لجعل المرأة كل شهرٍ نجسة.. اسكتي يا نورا، فالوقت الآن غير مناسب لأي اعتراضٍ، واسكني. أسكتُّ أفكاري وسكنتُ، ومع سكون الجلوس تتالت على رأسي المشاهدُ مبهجاتٍ، حتى انتزعني من جلستي المرتاحة تحت مطر الذكريات، نداءُ «نور» فانخطف قلبي وانخطفتُ إليها. عند احتضاني لها شعرتُ ببرودة ذراعيَّ، فقالتْ وهي نصف نائمة:

ـ يا ماما، انتِ كنتِ فين بعيد عني؟

ـ أنا هنا يا روح ماما، عمري ما أبعد عنك أبدًا.

في ثوانٍ غفتْ مجددًا مثلما تسكن الفراشاتُ في حضن الزهور، مطمئنةً راضية. نور ابنةُ حبٍّ. يوم مولدها أسميتها في الأوراق الرسمية «نورا» لظنِّي أن اشتراكنا في الاسم سوف يعطيها حياتين، ويعوضها عما فقدته أنا في زحام الأيام. فلما بلغتْ معي السعي تزحُّفًا، صار النداء علينا باسمٍ واحدٍ مُربكًا لها، فناديتها «نور» وطلبت ممن حولنا النداء عليها بذلك. لكنها حين تذهب إلى

المدرسة، بعد سنة، سيعرفونها هناك باسمنا المشترك. وللأسف سوف يضيفون إليه، أبشع اسمٍ في الوجود «مفتاح المبروك».. لا حيلة لي في ذلك.

احتضنتها من فوق اللحاف كيلا تشعر ببرودة ذراعي العارية، فشعرتُ بهَا تنسرب برفق فوق مهاد الأحلام، وساد السكون من حولي. في لحظةٍ ما، أخذني الوسنُ فرأيتُ أمامي حدائق فسيحة فيها أطفالٌ أبرياءُ الابتسامة يمرحون بملابسهم الملونة، وقُربهم أمهاتهم الجالسات في سكينةٍ على بساط الخضرة المتماوجة. ضحكاتُ الأطفال ملأتْ أنحاء روحي، ولامستْ أعالي السماوات الملونة بأطياف قوس قزح. أدركتُ على نحوٍ خفيٍّ أنني أحلم، ومع ذلك بقيتُ هادئةً بين الأمهات الهانئات وتمنيتُ دوام رؤياي، لكن نوعًا غامضًا من القلق أيقظني فبقيتُ فوق السرير مفتوحة العينين.. الصبحُ قريب، ضوؤه الأول يتسلل من خلف شُبَّاك الغرفة فيشيع فيَّ الرضا، هو ليس شُبّاكًا، بل ضلفة زجاجية تنغلق على كوةٍ صغيرة فتحها أبي في الحائط ليدخل منها ضوءُ الشتاء وهواءُ الصيف. كان يسميها هي الأخرى: طاقة. شقة أبي هذه، فيها ثلاثُ طاقاتٍ بالمطبخ والحمام والغرفة الكبيرة، وفي الغرفة الصغيرة والصالة نافذتان.

الدور الثالث من هذا البيت فيه الشقة، ولا شيء غيرها، وهو يعلو قليلًا عن المنازل التي خلفنا ويسمح من فتحة «الطاقات» برؤية امتداد شارع «سلطان» ومئذنة مسجده التي كنتُ في طفولتي أراها عالية. نافذة الصالة والغرفة القبلية، كلتاهما تطل من الجهة المقابلة (القِبلية) على الزقاق الذي صار سوقًا. أيام كنتُ بالمدرسة الثانوية أخبرني أبي بأنه استأجر هذه الشقة عند زواجه بأمي، بعقد رسمي وبإيجار شهري

ما عاد يكفي شراء علبة سجائر. وأخبرني بأنه دفع للمستأجر السابق سبعين جنيهًا كانوا يسمونها «خلوُّ الرِّجل» وبالتالي لا يصح قانونًا طرده منها أو طردي من بعد وفاته، ما دمنا ندفع الإيجار بانتظام.. كان يخبرني بذلك كي أشعر هنا بالأمان.

بمدخل البيت تسكن خالتي «توحة» أمُّ صديقتي «أمل» وليس في هذا الطابق إلا شقتها الأرضية والسلمُ الأسمنتي العتيق، في كل طابقٍ شقةٌ واحدة، مثلما هو الحال في معظم البيوت المحيطة. بالطابق الأول العلوي، الشقةُ التي يسكن فيها الحاج «حودة» ابن مالك البيت بالوراثة، مع أسرته الكبيرة. لا أعرف كيف ينامون ليلًا؟ الحاج «حودة» كان الصديق المقرب لأبي، وهو نحيل مثله وحزين الهيئة. وفي الطابق الثاني شقة عم «فوزي» صاحبُ الفرن، وامرأته العجوزُ العاقر. لماذا أذكر هنا تلك الأمور كلها، ولا أكتفي بأنني وابنتي «نور» نسكن شقة الطابق الثالث الأخير. أتراني صرتُ ثرثارة؟ لا، لست كذلك ولن أكون، ولكنني الآن أحتاج الحكي والبوح حتى أتمالك نفسي فلا أبكي.

شقة خالتي «توحة» الأرضية، ظلت مهجورة لسنواتٍ طوال بعد الواقعة المريعة. وقد عادت إليها وحيدةً، بعدما عدتُ إلى البيت بابنتي خائبة المسعى، كأنها أرادت أن نكون على مقربة. خالتي «توحة» حنون. كانت خلال أعوام غيابها عن شقتها، تؤجرها لأحد تجار الأقمشة وتسكن مع «أمل» في شقةٍ أرضيةٍ أخرى، قريبة. شقتها هذه التي شهدت المأساة، هي الأوسع مساحةً في منزلنا. لأن زوجها القتيل الذي لا أتذكّره، استغل قديمًا فراغ ما تحت السلم وألحقه بشقّتهم، فانضافتْ إليها المساحة الفسيحة، مائلة السقف، التي نسمّيها «الحَنَاية».. عرفتُ

أيام دراستي العليا أن كلمة «الحنايا» فصيحةٌ، بعدما كنتُ أظنها عاميةً وترتبط فقط بشقة خالتي «توحة» تحديدًا.

«توحة» هي أحبُّ النساء بالنسبة لي، لأنها حنون وتحب الأطفال. وكانت تفرح بنا حين نأتي كي نلعب مع ابنتها «أمل» بعرائس القماش، ونحتشد بأجسامنا الصغيرة داخل «الحناية» حيث المرح الذي لا ينتهي. وكانت تضحك من قلبها حين تأتي إلينا بالطعام أحيانًا، فنصيحُ بصوتٍ واحدٍ بالأغنية المتبجّحة التي كانت تُعجبها: *بعد الأم مافيش حِنّية، وبعد الأب مفيش مِرازية*.. ونصخب حولها.

حتى أبي، كان يضحك حين يسمع تلك الأغنية ويقول لي بصوته المُطمئن، مستنكرًا: *أنا يا نورا رازيتك!* فلا أفهم سؤاله، وألقي بنفسي في حضنه، وأسكن إلى دفئه ورائحة ملابسه. تلك هي أولى الذكريات العالقة برأسي من زمن الطفولة المبكرة، الهانئة، المفعمة بالبهجة والأفراح.

بعدما كبرتُ قليلًا، أدركتُ مع الأيام أن أبي لم يعرف بعد وفاة أمي البهجة، فقد كانت حركاتُ يده ونظراته تشكو دومًا من حماقات «عزة» وصخبها الدائم. ولما أحيل للمعاش المبكر بعد إصابة العمل التي التهمت أصابعه، ظل يقضي معظم وقته على المقهى القريب المفتوح على ميدان «البياصة».. مسكين أبي، كان يفتقد أمي ويكتم عنا مشاعره.

الحاجة «الولا» وخالتي «توحة» وكثيراتٌ من الجارات أخبرنني بأن أمي كانت جميلة، وهادئة الطباع وخدومًا وحلوة الصحبة، وكانت بحسب تعبير معظمهن. العاميّ: *تتحطّ على الجرح يطيب*. لم أكن

في البداية أفهم مرادهنَّ من العبارة، فلما كبرتُ قليلًا سألتُ أبي عن معناها فسكت لحظةً وسرح بنظره بعيدًا، ثم سالت من عينيه دمعتان خجولتان وقال: *يعني أُمّك كانت بلسم بيداوي المجروح*.. ثم أخذني إلى حضنه المتهدِّج، ومسح بباطن كفه اليسرى عينيه.

ليتني نشأتُ في حضن أمي، لأعرف ما تشعر به «نور» الآن نحوي. يوم حبلتُ بها كنت أحمل هموم الأرض والسماء، إذ تأكدتُ آنذاك من أن الذي أحبه، لن يكون لي. ولن أراه مجددًا، لأنني سأكون في قبضة رجلٍ آخر غير جدير بأيّ حُبٍّ أو احترام. كنتُ مطحونة تحت صخور اليأس والبؤس. وفي لحظةٍ جامحةٍ قررتُ أن أهب نفسي بالكامل لمن أحبه، لأظفر منه بولدٍ يشبه أباه. كنتُ مجنونة. قادني للجنون جنونُ الأحوال المحيطة بي، واحتدامها من حولي على نحوٍ طاحن.. كان أبي قد بدأ رحلة معاناته مع الكلى الخامدة، وخاطبي «مفتاح المبروك» يملؤه اشتهاؤه لامتلاكي ويجعله كالمسعور. وبمساعدة «عزة» صار يتحكم بماله في تفاصيل حياتنا نحن الثلاثة، هي وأبي وأنا. لا الثلاثون عامًا الفارقة بين عُمرَينا عاقته عن سعيه، ولا التهامس الدوَّار في الحيِّ من حولنا بأن لي حبيبًا شابًّا، ولا نفوري من هيئته المزرية وصَدّي الدائم له. فعل كل ما بوسعه للاستيلاء عليَّ، وبلغ به البرودُ إلى درجةٍ لزجة جعلته يصرّح علانيةً باشتهائه لي، حتى إنه في ليلةٍ بائسة زارنا فيها، قال بلا حياءٍ أمام أبي المستسلم والإوزة الخائنة: *يا نورا هاموت عليكِ، إنتِ بالنسبة لي إكسير الحياة، وكل الغالي يرخص لك*. ليلتها، تقيأتُ.

وقد بلغ بي الألمُ مداه، أيامها، عندما اتصلتُ هاتفيًّا بالمكتب السياحي في أسوان للاستخبار عن حبيب قلبي الذي انقطع اتصاله،

فردًّ عليَّ خاله السخيف المدعو «حمدون أبو الغاب» وأسمعني أقذع شتائمه، فاضطررتُ لإغلاق الاتصال ومشيتُ وسط الزحام وحدي، كاليتيمة، من سترال المنشية إلى الرصيف الصخري المجاور لقلعة قايت باي. وهناك بكيتُ بحرقةٍ أمام الموج، إذ أمسيتُ متأكِّدةً من أن سُبل السعادة وطرق العيش مع مَنْ أحب، صارت مسدودة. فأمُّه ومعظمُ أهله يرفضون فكرة زواجنا، وهو لن يستطيع معارضتهم أو إقناعهم، خصوصًا أن ظروفه المالية عسرة. وكان باب العمل في الصحافة قد انغلق أمامي، وحال بيني وبينه زحامُ المائسات الراغبات في العمل والمدراءُ المتحرِّشون ومشقةُ السفر الدائم إلى القاهرة، وكان أبي يضعف رويدًا ويزداد كل يوم نحولًا وشبهًا بالموتى. وأنا لا حيلة لي.

مررتُ بأيام مريرةٍ مليئةٍ بالألم، وعندما اتصل بي حبيبي الرائقةُ سمرتُه ليخبرنيَ بأنه قادم إلى الإسكندرية ليراني، قررتُ أن يكون لقاؤنا المرتقب هو الأخير. يوم وصوله اتصلتُ صباحًا بالدكتور «أبو اليزيد» واعتذرتُ إليه عن عدم استكمالي رسالة الماجستير تحت إشرافه، وأجهشتُ، ثم ذهبت إلى الكلية وقدمت لموظفة الدراسات العليا طلب تعليق دراستي. ومن منطقة «الشاطبي» الراقية، مشيتُ كالتائهة إلى ميدان المحطة الصاخب، وانتظرت هناك القطار. يومها فكَّرت كثيرًا في الانتحار وليتني فعلتُ، فأبي الذي عاقني عن ذلك خوفي عليه، سرعان ما تدهورت أحواله الصحية واضمحلَّ حتى مات بعد زواجي التعيس بأقل من عام.. لكن كلَّ ما كان، كان لابد منه، كي تأتي «نور» النائمة الآن إلى جواري، فأعيشُ بها. وأعيشُ لها.

يوم لقائنا الأخير، لما وصل بالقطار معشوقي الرشيق الأسمر انطلقنا معًا إلى الشقة الصغيرة التي استأجرها في حي المندرة،

وهناك ومن دون أن أخبره، منحتُ نفسي له أيامًا متتالية بقصد توديعه والإنجاب منه. آه، كنتُ من شدة القسوة عليَّ، قاسيةً عليه. ولما أخبرتُ «أمل» بما جرى، وبانقطاع طمثي، نصحتني بأن أعجِّل بزواجي من «مفتاح المبروك» فأخذتُ بنصحها. على عقد الزواج وقَّعتُ رقَّ عبوديتي وانهزامي، وألقيتُ للمالك بجسدٍ دون روح فاستلقيتُ عاريةً على سريره كأرضٍ مهروسةٍ، تحت سطحها بذرةٌ كامنةٌ سوف تنبت يومًا. كنتُ أظنني سأنجب صبيًّا، وكنتُ متأكدة من أنني اغتربتُ بالكامل عن ذاتي وعن العالم المحيط بي، وغرقتُ فيما يُسمى «اللامعيارية».

تزوجت «مفتاح» عند ابتداء سنة البؤس (١٩٩٧)، ونزلتُ من بيت أبي بفستان أحمر اللون، منطفئ، لأنني لم أجد عرسي مستحقًا لصفاء ثوب الزفاف الأبيض. «مفتاح» الذي كانت «أمل» تسميه القفل وكنتُ أسميه الزفت، لم يهتم بإصراري على عدم ارتداء الأبيض ولم يلحظ شرودي وتأفُّفي وانفطار قلبي. كان يقول مطمئنًا، إنني أعاني مؤقتًا من مخاوف العذراوات عند الزواج! تافه. كان يتكلم كأنه العليم المحيط بكل الأحوال، وما كان في حقيقة حاله مشغولًا إلا بوصوله إلى مسعاه، واقتراب حصوله مني على المشتهى.. أيامها كرهتُ ملامحي، لأنه يتغزَّل فيها. وكرهتُ جسمي البديع الذي طالما امتدحته قريناتي، لأنه يشتهيه. وكرهتُ اسمي، لأنه يناديني به بدلالٍ سخيف.

لم يهنأ مفتاح «القفل» بما تمنَّاه وتحرَّق إليه، إلا أيامًا معدودات نالني خلالها مراتٍ مريرات، لم تزد عددًا على أربع. كان يرتمي فوقي في ليلاته الحالكات سكرانًا، وقد فاحت بالغرفة رائحة خمره القوية

الخانقة، فأكتم أنفاسي وأنبطح له مستسلمةً، مُتيبسةً. وأبقى مترقبةً وقت خموده واستلقائه عني لاهثَ الأنفاس، ومستعدًّا لإطلاق شخيره الطارد من السرير ومن ضيق دنياي. أيامها تقززتُ من كوني امرأة. في الليلة الأولى، الأكثر تعاسة، انطلت عليه الحيلةُ التي كانت «أمل» قد اقترحتها عليَّ ورتبتُ لها، وبحُجة شراء لوازم العروس أخذتني قبل الزواج بيوم إلى عيادةٍ لأمراض النساء اسمها «حواء» كانت تقع في الدور الأرضي من مبنى عتيقٍ يطل على شريط الترام بمحطة الرمل، وهناك خاط الطبيبُ بداخلي بعد تخديري موضعيًّا غرزةً واحدة، هي التي نزفتْ في ليلة الاستلاب فأسالتْ على الملاءة قطرات الدم التي أفرحت «مفتاح» حتى إنه امتلأ فخرًا بفحولته واستخفَّ بعقله خبلُ النوال، فقام بعد انتهاكي يرقص كالحمقى في وسط الغرفة.

أدركتُ أن مالكي وجلّادي لا ينوي الاستقرار، بقدر ما يريد إطفاء الفحيح المِلحيِّ المُلحّ على أسافله. بمائي أو بدمي. فهو لم يهتم بشراء شقةٍ تكون لي كالمهر، مع أنه طالما وعد من قبل بذلك. ولكنه ماطل واكتفى باستئجار شقةٍ مفروشةٍ تشبهه، لا تدخلها الشمس، بآخر «شارع النصر» عند ناصية الزقاق الموازي لحارة اليهود، قرب مسجد «ابن خلدون» ومحطة الركاب البحرية. فأسكنني قهرًا في تلك المنطقة الكئيبة، الساكتة في الأمسيات. علّل السكنى هناك بأن له أقارب يمتلكون فندقًا قريبًا، يطل على الرحبة التي ننزل منها إلى سوق المغاربة وزنقة الستات. ومن المناسب لنا حسبما ادَّعى، أن نقيم قرب أقاربه المزعومين.. لم أقابل أحدهم قط.

في أسبوع التعذيب الأول احتملت المرات الأربع، بأن كنتُ أستكين في استلقائي آملةً أن يمرَّ الأمرُ بسرعة، وأصبر على لِزَاقه

متقزِّزة حتى يهتزُّ فوقي مرتجفًا وهو يبصق بداخلي، ثم يرتمي إلى جوار جثتي راضيًا كضبع شبع من جيفةٍ، فأسرعُ من سرير الذل إلى حمَّام الهوان، لأتقيأ. سَفرته الأولى إلى ليبيا كانت بعد حصوله عليَّ بأسبوعٍ، ولما عاد بعد ثلاثة أسابيع عاودني فور رؤيته التَّهوُّعُ والغثيان. وعندما اقترب مني وهو يريد أن يلتصق ويُقبِّل، عصفتْ ببطني رائحةُ الخمر فتقيَّأتُ في وسط الغرفة، فعافني. ولمَّا تكرَّر الأمر في اليومين التاليين، جلب لي طبيًّا أخبره بأنني حُبلى. احتار حينًا، ثم فرح فجأة وزعق بفخرٍ قائلًا إنني سأنجب له ولدًا، وسوف يسميه باسم جده: مبروك.

كان حَبَلي سببُ خلاصي من ميل «مفتاح» لانتهاكي، فخففَّ عندي الشعور بالامتهان، ثم خفَّف من معاناتي قيامه باستئجار الشقة المقابلة، ليسكن فيها أبي المريض وزوجته، فيكونا بقربي إذا سافر لأعماله الغامضة التي كان يصفها بأنها مهمة. وهكذا أراحني حينًا حَبَلي وسُكنى أبي قبالتي، لكن إحساسي بالحمل كان آنذاك هو الأكبر والأكثر حضورًا بداخلي. ربما لتوهُّمي من هيئة أبي الساكنة نسبيًّا، أن حالته استقرت، مع أنه كان يؤكّد لي بإشارات عديدة أن نهايته قد اقتربت، وأنه لن يعود أبدًا مثلما كان. لم أشأ أن أصدّقه لأنني أحبه وأتمنى بقاءه، ولأنني كنتُ أراه طيلة الوقت هادئًا. أما حملي فكان في كل يوم بحالٍ، وكنت أتحوَّل مع أحواله فينتابني القلق ساعةً ثم أطمئنُ نفسي بأن الجنين نتاجُ حبي الحزين الحالم، لا البؤس الحالي. كنت أشعر حينًا بثوران باطني وسريان آلام لم أعهدها، وحينًا أرتاحُ فجأةً، وحينًا يجتاح أنحائي الوجعُ فكأن عروقي تجري بداخلها أشواكٌ دقيقةٌ كتلك المتناثرة فوق قشرة التين الشوكي. وكان

يفاجئني التهوُّعُ والرغبةُ في الاستفراغ، ثم يعقب ذلك اشتهاءٌ وشرهٌ جارفٌ إلى أيِّ مأكول. زاد وزني كثيرًا، وانتفخ جسمي مع دخول حملي شهره السادس الذي كان «مفتاح» يظنه الرابع، فيقول مستغربًا إن زوجته الأخرى الليبية لم تظهر علامات حملها في المرتين، إلا في الشهر السابع. فتردُّ عليه «عزة» بحكمتها البلهاء قائلةً: *يا اخويا النسوان بتختلف، وبعدين نورا شكلها حامل في ولد، والولد بيبهدل.*

كان كلامها السفيه يقنعه ويرضيه، ومع ذلك ظل أيامًا يلحّ عليّ في عمل «السونار» لمعرفة نوع المولود المنتظر، فأرفض بحجة أن ذلك فيه خطرٌ على الجنين، فيسكت عني منصاعًا ويبدِّد الأسابيع بالسفر والغياب الكثير.. في تلك الفترة انعزلتُ عن جميع الناس، وسبحتُ وحدي في سماواتي كأن الكون ليس فيه سواي. في جوف الليل أتحسَّس بطني المتكوّر بكفِّي فأشعر بحياةٍ تتكوَّن مني، بداخلي، وأنام واثقةً بأن ما بداخلي لا ينام. لا يوجد في الحياة شيءٌ يشبه أحوال الحمل. بعد السابع استرحت نسبيًّا، ربما لأنني اعتدتُ على غير المعتاد، لكنني لما رأيتُ في الشهر الأخير قبضة «نور» باديةً لوهلةٍ على سطح بطني، امتزج بقلبي ابتهاجُ قرب الموعد بانزعاجٍ غامضٍ لا أدري مصدره، وداخلني خوفٌ غامضٌ ممزوجٌ بالبهجة.

قبل الولادة بأسبوع ظلت «عزة» قلقة، وأخذتْ تردِّد على مسامعي كل ساعة العبارة نفسها: *إنتِ بقيتِ على الآخر، لازم مفتاح ييجي..* وأظنها اتصلت به، فقد جاء مضطرب الهيئة في يوم ملبَّد بالغيوم والهموم، وكنتُ لحظة وصوله في كربٍ مريعٍ، لاجتياح الألم بطني الذي كان قد انتفخ حتى كاد ينفزر، فكنتُ لا أكفُّ عن الأنين لما

يملؤني من وجعٍ لا يُحتمل. وفي الليلة التالية بلغ عُسر حالي مداه، فلم أستطع كتم صرخاتي، صاحت «عزة» في جوف الليل: *دي هاتولد في السابع، لازم تروح المستشفى.*

في حدود الساعة الثانية بعد منتصف الليل أخذني «مفتاح» إلى مستشفى الشاطبي للولادة، وجاءت معنا «عزة» وبقي أبي في البيت يشكو الوهن وانعدام الحيلة. في طريقي إلى المستشفى بقيتُ أتأرجح بين الحياة والموت، حتى تمنيتُ في لحظةٍ أن يُغمى عليَّ كيلا أشعر باللهيب السائل أسفل بطني مع دفقات الطَّلق. لا يوجد وجعٌ أشدّ من معاناة الأم ألم الولادة. هذا حالٌ مريرٌ لن تعرفه الفتيات الحالمات بالأمومة، حتى يلدن، ولن يعرفه الرجال أبدًا. ولذلك يتوهَّمون أنهم أكثر احتمالًا من النساء، ويظنون المرأة رقيقة. مساكين. الرقةُ الأنثوية حيلةُ بقاءٍ أو رغبةٌ في منح المحبوب، لا غير.

ليلتها امتد بي المخاضُ الأخير ساعتين طويلتين كالدهور، ومع أول ضوء أرسله الفجر يوم الأربعاء الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٩٩٧ جاءت «نور» فكانت الحسنة الوحيدة لتلك السنة البائسة المفعمة بالآلام. جاءت بولادةٍ طبيعية مع أن وزنها كان مثاليًّا، بل وأزيد من معتاد المواليد، وفق ما قالته لي الطبيبةُ ظهر ذاك اليوم.. غمرتني فرحةٌ عندما سمعتُ صرختها الأولى الغاضبة، الشاكية من طردها بعيدًا عن جنتي، بعدما عاشت متنعِّمةً فيها شهورًا تسعة.. كانت فرحة، لم أعرف لها من قبل مثيلًا، ولا من بعد.

عندما أخذوا من حضني وليدتي لتنظيفها من أخلاط المخاض، شعرتُ بدوّاماتٍ من الدوار تأخذني عمن حولي وتُسلمني إلى خمودٍ

شبه بالغيبوبة، وبعد هنيهةٍ أيقظتني اللهفةُ فجاءوا إليَّ بابنتي وهي تبكي. أسكتها صدري وسكنتْ في حضني، فكأن الرضاعة أعادتها إلى الجنَّة في لحظةٍ، وردَّتها مجددًا إلى طور الجنين، فهدأتْ. أنا متأكِّدة من أنني عايشت مشاعرها هذه يوم ولادتي، ولحظة رضعتي الأولى من أمي، ثم نسيتُ هذه المشاعر النادرة، لغياب دفتر الذاكرة من رءوس الوافدين الجدد من الجنّات.

كان ملمس «نور» يوم مولدها غريبًا عليَّ. وجدت فيه نعومة فرو الأرنب، ورخاوة لُبِّ الخبز الطري، ودفء باطني، وظهور روحي في خلقٍ جديد. بعد ساعات من الولادة تبدَّد الوجع الذي مررتُ به، وابتدأتْ معاناةٌ من نوع آخر. فقد اكتشفتُ أن «مفتاح» حين عرف أنوثة المولودة، ترك لخزينة المستشفى مبلغًا من المال وانصرف مُغاضبًا. وفي اليوم التالي خرجتُ من مستشفاي بابنتي ومعنا «عزة» فأخذنا نبحث وسط ازدحام الشارع في الظهيرة، عن سيارة أجرةٍ تعود بنا إلى الشقة الكئيبة بحي الجمرك. تحاشيتُ يومها النظر ناحية بوابة كلية الآداب، المقابلة لبوابة المستشفى، كيلا اتحطَّم تحت وطأة المصير الذي صرتُ إليه. لم يكن «مفتاح» معنا. سألت «عزة» عنه، فقالت: *والله ياختي ما أنا عَارفة، أصله زعلان علشان جت بنت، كان بسلامته عاوز ولد. سيبك منه وخليكِ في حالك اليومين الجايين. وعلى فكرة علشان ما تتخضيش، أبوكِ تِعب امبارح وراح المستشفى الميري واتحجز.*

كانت المرة الأولى التي أسمعها فيها تكلِّمني بنبرةٍ مواسية، غير ساخرةٍ كالمعتاد ولا لاهيةٍ، ولما رأتني مصرة على المرور بالمستشفى الأميري للاطمئنان على أبي، وافقتني على مضضٍ

وقالت برفقٍ وحنوّ: طيب، ربنا يستر، *أنا بس خايفة عليكِ، إنت يا ختي لسه نَفَسَة، وبنتك حتة لحمة حمرا والمستشفى هناك زحمة خالص*. بعد أيام، عرفتُ منها سرَّ هذا الرفق والحنوِّ والتغير المفاجئ.

في المستشفى الأميري، المريع، كانت حالة أبي المتدهورة مستقرةً عند حوافِّ الموت. ولذلك بدا هادئًا. ولأنني كنت منهكةَ الأركان شاردةَ الأفكار، لم أدرك حين رأيته أنه استسلم للغياب الأخير.. بعد مولد «نور» بعشرة أيام، مات بالمستشفى وحيدًا.

لم أكن بقربه لحظة فراقنا، لحظة انكسار مجدافي الضعيف. أشعرني موته بوحدتي وباكتمال هزيمتي، وبأن عالمي لن يعود وعليَّ التسليم باستحالة استعادته. وفي غمرة الأسى والاستسلام لليأس، جاءتني بقلب ليلةٍ حالكة مشاعرُ أخرى غريبة عليَّ، وقوةٌ لم أعهدها في سابق الأيام.. الأمومةُ.

بابنتي «نور» انتصرت على الأسى وعبرت المآسي، وبها صرت صُلبة. نبع من ضعفها تماسُكي، ومن وجودها استهانتي بالعدم والعدمية، ومن بقائها استخفافي بالفناء. لم أبكِ أبي إلا بعد مرور شهور على وفاته، أذهلتني عن ذلك الأحوالُ الحارقةُ المحيطة بي، وعلى رأسها أحوال «مفتاح» الفادحة التي تفاقمتْ فانتقمتُ لي منه. بعد الولادة بأيام دخل عليَّ فجأةً وأنا أرضع «نور» فنظر إليها طويلًا بعينٍ حائرٍ مدهوش، ثم خرج من دون أن ينطق بكلمة. وعرفتُ في اليوم التالي أنه بات ليلته بالشقة الأخرى المستأجرة، مع أن أبي كان لا يزال حيًّا ومحجوزًا بالمستشفى. لم أهتم كثيرًا حين أخبرتني «عزة» بأنه بات ليلته عندها وسافر في الصباح إلى شغل مهم، واكتفيت

أمامها بمِطّ شفتي والتشاغل عن كلامها بتغيير قماط وليدتي. لكنني بعد خروجها من الغرفة، ومغادرتها الشقة، أجهشتُ باكيةً هواني. في ذاك اليوم زارتني عصرًا خالتي «توحة» فكانت أول إنسان من جيرة «كرموز» أراه منذ شهورٍ طوال. كأن الله سمع بكائي آنذاك فنظر نحوي لحظةً بعين الرحمن، أو، كأن الأيام أعجبها التلاعب بي فتركتْ لي فسحةً للصبر والتقاط الأنفاس.

كان مجيء خالتي «توحة» طوق طمأنينةٍ حفظني من الغرق في بحر الوحدة والاغتراب، فقد آنستني بقصِّ حكايات الجيران، وواستني بالابتسامات والنظرات الطيبة، وعلمتني بعضًا من مهارات الأمومة وخبرات العناية بالرضيعات.

جيرةُ كرموز هم عِشرة العمر. القدامى منهم توافدوا عليَّ عند وفاة أبي، فكانوا خير عون. تكفَّلوا بكل مطلوبٍ لإخراج جثمانه من المستشفى، وإدخاله القبر، وإقامة سرادق العزاء.. يوم التعزية أمضيته بهذه الشقة التي خرجتُ منها بفستان زفافٍ أحمر، وعدت إليها بعد عام بثوب حدادٍ حالك الاسوداد. لا أتذكر من ذاك اليوم المرير إلا ازدحامه. نسوةٌ كثيرات من حولي يتهامسن وهنَّ متشحاتٍ بأردية الحداد، ونور تبكي في حضني، وجوفي الفارغُ كالمقابر الأثرية تتردَّد بين جنباته الأصداءُ وتؤرجحه الأفكار. ليلتها همستُ لنفسي بأن أبي فقد حواس الحياة فما عاد الآن يتألم، لأنه ما عاد يشعر أو يتذكر فتؤلمه الذكرى. ارتاح. لن ينتظر الفرج والشفاء المستحيل، ولن ينادي باسمي في جوف الليالي مثلما كان يفعل في شهوره الأخيرة. هو الآن لا يذكرني، ولن يتذكرني، لكنني لن أنساه حتى يرحمني الموتُ من هذه الحياة.

النسوةُ كلهنَّ وكثيرٌ من البنات جئن لتعزيتي ليلتها، لكني كنتُ مذهولةً تمامًا عنهن وعمّن حولي. تمنيتُ أن تكون «أمل» موجودةً ساعتها معي، لكنها كانت مع «حسن» زوجها الذي أخذها إلى ليبيا عساه يجد حظًّا هناك، فلما لم يجد، عاد بها بعد وفاة أبي بشهرين فظل يحوّم حتى حصل على عقد عبوديةٍ مؤقتة في الخليج. ألاعيبُ الحياة عجيبة. كأن الأمور سارت على نحوٍ ملتوٍ، بحيث تذهب «أمل» إلى بلدٍ بعيدٍ، يتمُّ فيه لقاء الأمس مصادفةً، فتخبرني تليفونيًّا باللقاء في أول دقيقة من يومي هذا المبشرة أرقامه المتسقة بعودة الانتظام إلى الكون ١٠/ ١٠/ ٢٠٠١ أيكون ذلك كله صدفة؟ نعم، هي مجرد صدفة لا يكمن خلفها أيّ معنًى أو تدبير، فهي حسبما يسميها الناس في كرموز وسائر الأحياء الشعبية: استروبيا.

معظم حياتنا مصادفاتٌ، كان يمكن أن تكون ويمكن ألا تقع، فلا أثر لرفيف أجنحة الفراشة على هبوب الأعاصير. ولكن، أليس في الكون الكبير تدبير! ربما، فلا غاية لما يجري من حولنا ويحيط بنا، إلا بالقَدْر الذي نتوهمه، أو بقدرٍ قليلٍ جدًّا ونادرٍ. مثلًا، مجيء ابنتي «نور» ليس مصادفة، فقد كنتُ أدبِّره متعمِّدةً لتكون ثمرة حبٍّ لم أشأ أن يذهب سُدى، وبهذا التدبير جاءت. التدبيرُ عكس الصدفة. ولكن، لا. هذه أوهام! مجيء «نور» في واقع الأمر صدفة، فالنيةُ التي كانت عندي صادفت زيارة حبيبي قبيل زواجي بمفتاح، وكان من الممكن ألا تجتمع الظروف فلا تتحقق هذه النية، وتُنسى. أنا نفسي جئت صدفة، وموتُ أمي المبكر كان صدفة، ووفاةُ أبي عقيب ميلاد «نور» صدفة. الأرضُ كان وجودها أصلًا صدفة، وكذلك بقية الكواكب والنجوم التي تولد وتموت في أقاصي الكون الفسيح، من

دون أن نعرف عنها شيئًا. هذه كلها «استروبيا» تحدث بلا تدبير. لكننا منذ خمسة آلاف سنةٍ نتحايل فنبرِّر حدوثها بأنه إرادة آمون، ونهمس آمين، كي نطمئن ويعصمنا التحايلُ من الحيرة ومن الشعور بالعدمية إلى حين، حتى يبتلعنا العدمُ بلا قاعدةٍ معلومةٍ، ويطوينا الموت بخبط عشواءٍ لا انتظام لها.. قبل الكبير يموت الصغيرُ أحيانًا، وأحيانًا يعمِّر المريضُ ويُختطف الصحيح. وقد تلتهب الحرب لأوْهى سببٍ فيحصد المنجل المهووس من أرواح الناس بالجملة، ثم تخمد فتمتد أعمار الناجين منها أو تقصر.

لو لم يكن الأمر مجرد صدفة، لكنتُ ذهبتُ إلى الخليج لأي سبب، فقابلتُ حبيبي أمس في السوق. أنا وليس «أمل». ولو كان ما جرى تدبيرًا مقصودًا، لما كان الحب قد جمع بين روحينا حينًا، ثم عَرَكَ العشقُ جسدينا فامتزجا، ثم تركتنا الأيامُ نتمزَّعُ بمخالب العذاب. ولو كان التدبيرُ المقصود أدق، لكانت الأيام من بعد افتراقنا واشتياقنا قد ساقته نحوي، حتى أراه الآن في مصر.. في الإسكندرية.. في كرموز.. في هذه الغرفة.. في حضني المتحرِّق شوقًا إليه.

* * *

آه.. الاشتياقُ إلى المعشوق المحبوب طاحنٌ حارق، خصوصًا عند انعدام الحيلة وانقطاع السبيل. ضاقت أنفاسي مع جموح الأفكار والتهاب نار الحسرة بأنحائي، فانسحبتُ برفق من تحت لحاف السرير، وفي الصالة وددتُ لو أفتح الشباك لأرى ابتداء تلوُّن السماء، فأستبشر. لكن صوت الريح يدلُّ على عصفها وبردها الشديد، وقد تصحو «نور» في أي وقت فتأتي إليَّ دافئةً، فيصدمها البردُ وتصاب

بالزكام. حبيبة قلبي. سأبقى جالسة هنا بسكونٍ يناسب هذا الضوء الخافت المتسلل إليَّ من ثنايا خشب الشباك، وبعد ساعةٍ أو ساعتين ستصحو «نور» فتملؤني نورًا، وبعد الظهر ستصل «أمل» فتعطيني مزيدًا من الآمال المبهجة والأحلام التي نسيتُ في السنوات الماضية مذاقها الحلو المريح، ونسيتُ نفسي.

وبعدين؟ ما آخرة هذا الملل. الوقتُ يتباطأ، وعقاربُ هذه الساعة تتكاسل عن السير بسرعتها المعتادة، كأن بها ثقلًا يعوقها. طبعًا، أعرف أنني أتعجل مرور الوقت حتى تتصل «أمل» بعد الظهر، وترد إليَّ رحيق روحي بتفاصيل اللقاء المبشر بقرب الالتقاء. أعرف ذلك، لكن الوقت بطيءُ المرور فعلًا. بطيءُ المرور جدًّا. مثلما كان خلال السنة الثانية الأخيرة من زواجي التعيس، السنة التي انتهت مع انتهاء آخر شهور العام ١٩٩٩ فانطوت صفحة «مفتاح» من حياتي بعد دوام وحدتي واحتدام المعاناة.. كنتُ وقتها قد تبدَّلتُ كثيرًا للأسوأ، وتدهورتْ أموري كلها، وتزايد وزني فضاقت عني ملابسي وضقتُ بها فما عدتُ أرتدي إلا العباءات والجلاليب واسعة الجيب، المناسبة للنساء المرضعات. وصارت هيئتي البائسةُ تدلُّ على اقتراب دخولي دائرة العجائز، مع أنني كنت على مشارف سن الثلاثين.

زمان.. قبل بلوغي العاشرة من سنوات عمري، كنتُ أتمنى بلوغ العشرين بسرعة، لأتخلَّص من نحول البنات ذوات الصدر الممسوح والجسم المسطَّح كأبدان الصبيان. وأدخل في ليونة الفتيات الساحرات اللواتي اكتملن أنوثةً، فطرحن عنهن الزيَّ المدرسي الموحَّد وارتدين الألوان المبهجة. وصرن يتصرَّفن علنًا بوقار الأميرات، وسرًّا بمهارة الخبيرات. لكنني لما بلغت العشرين لم

أصل إلى ما كنتُ أصبو إليه، واحترتُ في نفسي، فقد ملأني الحنينُ إلى نعومة الطفولة. وافتقدتُ جدًا ما كان في طفولتي من احتضان النسوة لي في الزقاق كلما قابلنني، وتسامح الباعة المتناثرين في ميدان «البياصة».. وأتعبني آنذاك إدراكي لجهلي بالكثير من أمور هذا العالم المضطرب العجيب، مع أنني كنتُ أخرج كل يوم إلى الكلية وأقرأ كثيرًا، وأتبادل الكتب مع «ياسمينة». لكن ذلك لم يكن كافيًا لفهم ما حولي، وكلما عرفتُ شيئًا غابت عني أشياءُ. أيامها رأيتُ الفتيات اللواتي كنتُ أحسدهنَّ على اكتمال الأنوثة، بائساتٍ يحلمن بالحب، ومحروماتٍ يتحرَّقن إلى الزواج ويرونه غاية الأمنيات ومنتهى الأحلام.

قريناتي في الجامعة وفي جيرة الحيِّ، سعيًا للزواج أو للحب المؤدي إلى الزواج، كنَّ يتعمدن إظهار وصولهن إلى أقصى درجات الحسن وملاحة الوجه واستدارة الأجسام. وكنَّ يتواصين فيما بينهنَّ بإبراز المميز من ملامح الفتنة، ومن أساليب الإبهار اللازمة لاصطياد خاطبٍ مناسبٍ. يفعلن ذلك بحماسةٍ شديدة سعيًا لاستكمال الشكل، بلا اهتمام بالمعنى.. قلت ذلك أيامها لصاحبتي «أمل» فقالت بطريقتها الساخرة المعتادة: *والنبي بلاش فلسفة، همَّ يعني البنات هيعملوا إيه، وإيه في إيدينا أصلًا غير كده.*

وقلت مثله لزميلتي «ياسمينة» فاندهشت كأنها سمعتْ عجائب عن عالم آخر، وسألتني بلسان البراءة: *وهيَّ البنات بتعمل كده ليه، وهوَّ يعني الجواز بالشكل!* جميلة «ياسمينة» وبريئة كالسحاب الأبيض. كنا يومها جالستين في زاوية المتراح الدراسي الأحبّ إلى قلبي، وهو سطح المبنى الواصل بين المبنى القبلي لكلية الآداب

حيث «قسم الاجتماع» الذي أدرس فيه، والمبنى البحري الأكثر أناقة حيث قسم «اللغة الإنجليزية» الذي تدرس فيه «ياسمينة» بغير اقتناع تامٍّ بما تدرسه. على هذا السطح المتسع كان يلتقي كثيرٌ من الطالبات والطلبة، يتجمعون حينًا وحينًا يتفرقون، كأنهم نوارس تمرح فوق شاطئ الفرح البريء.

يومها كانت شمس الشتاء من فوقنا مُدفئة، ونسمات البحر القريب تملؤني صحوًا وثقةً بما توصلتُ إليه من أفكارٍ وقناعات. قلت لها إن الزواج ليس هو المحرِّك الحقيقي لمعظم البنات، بدليل أنَّهن ينشغلن بأنفسهنَّ فقط ولا يهتممن إطلاقًا بمفهوم المشاركة، ولا يبذلن أي جهد لفهم طبيعة الشاب أو الرجل المراد اصطياده، بإيهامه أنه الصياد. ولا يكترثن كثيرًا لطبيعة الذكر وتكوينه النفسي المختلف عنا، نظرًا لاختلاف طريقة التنشئة الاجتماعية... قاطعتني «ياسمينة» وهي تضحك، قائلة بالإنجليزية ما ترجمته: *لو سمحت ترجمي كلامك للعربية، حتى أفهمك*.

ياسمينة خفيفةُ الظل رقيقةُ القول والقوام، وشفَّافة، كأن أمها استوحتها من صورة ملائكة. أكملتُ لها كلامي واستعملتُ المقابل الإنجليزي للكلمات الاصطلاحية، ليكون كلامي أسهل استيعابًا بالنسبة لها. قلتُ: شوفي يا آنسة، المجتمع العجيب بتاعنا ده، فاكر في نفسه إنه ذكوري، بس هو أساسًا بعيد عن الذكورة وعن الأنوثة، لأنه أصلًا بعيد عن الإنسانية. وبصراحة أكثر، هو مجتمع متخلِّف. يغذِّي في الولد من صغره، فكرة أنه رجل «يا ولد خلِّيك راجل» ولا يبشِّر البنت بأنها ستكون امرأة، فتغيب عنها صورة «الأنا الأعلى» التي يجب أن تسعى للوصول إليها. ولذلك تجتهد كل بنت لشقِّ

طريقها منفردةً، من دون نموذج أعلى تقتدي به وتسعى إليه. فإذا تفتحت نوافذ مفاتنها، وفارت نارُ أنوثتها، وأحبَّتْ أن تفرح بنفسها وتُظهر بعضها ببعض العري، غطاها المجتمع. وهمس لها بأن التعرِّي سيكون مسموحًا به لاحقًا، أمام رجلٍ مجهولٍ سوف يتزوجك يومًا، ويدفع فيك مقدار المال المسمى «المهر» فيكون جسمك ملكًا له. فلا تتعجَّلي وتجعلي الرجل المجهول الذي سوف يمتلكك يومًا ما، زاهدًا في امتلاكك. يعني باختصار، كل ما فيك يا بنت ليس ملكك، لأنك ملكٌ لذكرٍ سوف يظهر في المستقبل.

- إزاي بس يا نورا؟ طيب مثلًا، شكلك الحلو ده. ده ملكك إنتِ طبعًا، وشعرك ده...

- شعري إيه بس. أنا هتحجّب قُريِّب، يمكن يوم السبت تشوفيني لابسة الحجاب. المهم، أنا لازم أمشي دلوقتِ علشان ألحق المحاضرة، الدكتور هباب زمانه داخل ع المدرج. نكمل كلامنا بعدين، باي.

يومها هربتُ بلطفٍ كيلا أكمل الكلام مع «ياسمينة» فأضطر لإخبارها عن نظرات الاشمئزاز التي صرت ألمحها في عيون الجيران وأهل الحي، وعن الاعتقاد العجيب الذي ساد فجأة من حولنا فجعل مكشوفة الشعر، إما غير مسلمة أو هي خليعة وغير عصية على النوال المجاني. وما أردتُ الاعتراف أمامها بأنني أصبحتُ في الحيِّ مُحاصرة، فلم أعد مرتاحة للخروج من البيت متوَّجة بخصلات شعري، أو بحسب وصفهم الجديد «متبرِّجة».

قبل حديثي هذا مع «ياسمينة» بأيامٍ، استوقفتني خالتي «توحة»

على سلم البيت، وقالت لي دون أيِّ تمهيد: خلاص *يا نورا بقى*، *اتحجّبي يا* بنتي وخلاص.. هي ما كانت تريد أن تشرح، ولا أنا كنتُ وقتها بحاجةٍ لأي شرح، فأومأت إليها برأسي خاضعةً، فلمستْ كتفي بحنوٍّ أموميٍّ مهزوم وأفسحتْ لي طريق صعودي على سلم النفي. وحين دخلت شقتنا قلتُ لأبي و«عزة» تسمع: *بابا، أنا بفكر أحُط حجاب*! فصاحت الإوزة: *وماله يَاختي الحجاب سُترة للواحدة!* وقال أبي: *خير إن شاء الله*.. فأدركتُ أن أوان الاستسلام آن.

الفتيات كُن يفرحنَ بارتداء الحجاب، أو يُظهرن الفرح. بعضهن سعدن به، لأنه يظهرهن أكثر براءةً، فتتوافر فرص زواجهن. وبعضهن تديَّن فعلًا، فاقتنعن بأن الحجاب شرطٌ واجبٌ على كل أنثى. وبعضهن كُنَّ يرددن أن الحجاب، يبرز الأنوثة أكثر! أما أنا، فكان رضوخي للحجاب هو أول هزائمي. سألتُ عنه د. «أبو اليزيد» بعدما مَرَّ عليَّ عامان في الحجاب، فأجابني بهدوءٍ وأفاض بما ملخصه أن تغطية الشعر بمنديلٍ هي ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر، ما كانت مصر تعرفها حتى وقتٍ قريبٍ إلا في الريفيات اللواتي يخرجن إلى الحقول تحت الشمس، وفي الخادمات اللواتي يُخشى أن يتناثر الساقط من شعرهنَّ في أنحاء البيت. وتاريخيًّا، الحجابُ والنقابُ عادة يهودية قديمة ما كان العرب يعرفونها ولا يعترفون بها قبل الإسلام، وقد قال الطبري في كتابه إن «سجاح» المتنبية، كانت أول امرأةٍ عربيةٍ غير يهودية ارتدت النقاب. لكن هذه المسألة صارت مؤخرًا ذات بُعدٍ سياسي غير معلن، لأنه يدعم بشكل هادئ الاتجاهات الإسلامية المتشدِّدة، ويؤكد حالة الاستغناء العام عن الدنيا أملًا في امتلاك الآخرة، وهي فكرة تُريح الذين يحكمون.. قلتُ

له إنني أعاني منه، ولا أقدر على خلعه لأنني أسكن منطقة شعبية، فضحك وجهه الطيب وعدَّل بإصبعيه نظارته وهو يقول ما خلاصته إن الحجاب فخٌّ وقعتْ فيه معظم النساء بالنواحي المصرية، الشعبية منها وغير الشعبية. وعمومًا مصر كلها أصبحت اليوم شعبية، وبعد سنوات سوف تصير كلها عشوائية بسبب غياب الذوق العام، وانعدام التخطيط، وعزوف الشباب عن العمل العام، بالإضافة طبعًا إلى انتشار الفساد في الكيانات الاجتماعية العليا والسفلى.. اشتقتُ إلى جلسات أستاذي أبو اليزيد، واستماع كلماته. تُرى، كيف حاله اليوم؟

هزيمتي الثانية وقعت حين انسحقتُ فقررتُ الحمل سرًّا ممن أحبه، من دون أن أخبره بما نويته. أنا لم أخدعه، لكنني لم أصارحه بالأمر حتى لا أزيد معاناته. ويوم وقَّعتُ على وثيقة زواجي بمفتاح المبروك كنت أعلن استسلامي التام لكل شيء، دون مقاومة. ومن يومها توالت هزائمي وكثرتْ حتى توقفت عن عدِّها. وكان مجيء «نور» بداية استعادتي لذاتي، وبوابة خروجي من ظلمات الهزائم المتتالية. فاستعلان حملي بها أراحني من جثوم جثمان «مفتاح» فوقي، وجعله يزهد فيّ ويوليني ظهره. ثم صار ينام بعيدًا عني في الصالة، ثم غدا يطيل الغياب في أسفاره، ثم باتَ ينام في الشقة المقابلة التي ظلت «عزة» تسكنها بعد وفاة أبي.. ولادتي «نور» أمالت قلب خالتي «توحة» نحوي بأكثر مما كان ميالًا، فكانت تزورني دومًا حاملةً معها الحلاوة الطحينية والمغات المغذِّي والأشربة المدرة لحليب الأمهات.

حتى «عزة» تأثرت بمجيء «نور». فقد رأيتها يوم ولادتي تبكي في زاوية الغرفة بالمستشفى، ثم أصبحتْ من بعد ذلك أرقّ في معاملتي،

وصار في نبرتها شيءٌ من الشجن. لما بات «مفتاح» يبيتُ عندها، هربًا من «نور» ومني ومن نفسه، لم أعترض ولم أظهر لها ضيقي بالصخب الذي كنتُ أسمعه في الأمسيات آتيًا من عندهما. ولما عرفت منها لاحقًا، ما كانا يفعلانه في تلك السهرات الصاخبات، لم أندهش ولم أهتم بلومها ولو بنظرة عتابٍ أو احتقار.

انقطعت صلتي نهائيًا بأرملة أبي، بعد جلسة عجيبة جرت بيننا أواخر صيف العام ١٩٩٩ ففي ساعة غروبٍ بلغت فيها الرطوبةُ، والحرُّ، الدرجة التي يعسر معها التنفس. دقت «عزة» باب شقتي المستأجرة، ودخلت وهي تجرُّ شنطة سفرٍ كبيرة تركتها قرب الباب، وجلستْ قبالتي بجلباب أسود. سكتتْ لحظة لتستجمع شتات روحها التائهة، وبعدها دار بيننا الحوار الذي لن أنساه.. قالتْ:

- شوفي يا نورا، دي يمكن تكون آخر مرة تشوفيني. خلاص، أنا ماشية ولا يمكن أرجع تاني. كفاية كده.

- ورواح فين الأفندي؟

- مفتاح. سافر النهارده العصر، وقال هيرجع أول الشهر الجاي.

- بالسلامة. وانتِ عايزة مني إيه دلوقتِ يا عزة؟

- عايزاكِ تسامحيني.

- هه، على إيه ولّا إيه؟

لم أكن أنظر ناحيتها. وحين أجهشتْ فجأة، تشاغلتُ عنها وعن دموعها بأن وضعت «نور» عن كتفي، وأخذتُ أهزّ بها ساقيَّ كيلا

تنزعج فتبكي، وكي تعلم الباكية أنني لا أصدق دموعها ولا يعنيني معظم كلامها.. مَسَحت خديها وهي تقول بنبرةِ ندمٍ:

ـ أنا عارفة إني زوِّدتها معاكِ الفترة إلّ فاتت، بس واللهِ كان غصب عني يا نورا.

ـ غصب عنك!

ـ أيوه ما انتِ عارفة يا ختي. الحالة كانت صعبة قوي، ومفتاح كان دايمًا بيطمَّعني بالهدايا والفلوس، وأنا كنت محتاجة. وكان لازم أرضيه.

ـ طيب، خلاص. إيه المطلوب مني دلوقت؟

ـ ولا حاجة يا اختي، ولا حاجة. أنا بس قلت أعدِّي عليكِ، وأقول لك كلمتين قبل ما امشي واختفي خالص. على فكرة «مفتاح» ما يعرفش إني ماشية، ومُش هيعرف يوصل لي أبدًا. كده خلاص.

ـ إيه يا عزّة، هتهاجري؟

ـ لا. بس أنا كده خلاص، خدت منه إلّ كنت محتاجة له، واشتريت من شهرين حتة أرض في مكان كويس. جنينة فيها شجر برتقان، وجنبها بيت قديم وفيه حوش واسع. ولما أبيع المحصول السنة الجاية، هابني مكان الحوش جامع صغير.

ـ نعم! جامع.

ـ أيوه، علشان ربنا يسامحني. أنا عملت ذنوب كتير، ومفتاح زوّدها قوي الشهور إلّ فاتت. كان بيطلب مني أجيب له

نسوان، وبعدين بقى يجيب صُحابه. والجيران خدوا بالهم، وبقيت خايفة يبلّغوا عننا، وألبس أنا قضية وهوه يطلع منها زيّ الشعرة م العجين. قلت لنفسي يا بت كفاية كده، وبعدين أنا مِش حمل بهدلة، أنا خلاص عدّيت الأربعين وفاضل كام سنة وهابقى وصلت خمسين، يعني خلاص، حُسن الختام.

ـ آه، ونويتي تبني جامع!

ـ أيوه. بس مِش هابنيه من الفلوس إلّ خدتها من مفتاح، أنا هاستنى لحد ما أبيع البرتقان، علشان فلوس الزرع حلال. أنا سألت. قالوا لي الزرع فلوسه حلال، وممكن ابني بيها الجامع واعمل حاجات خير.

ـ يا سلام، وفلوس الأرض إلّ طلّعت الزرع.

ـ لا ياختي، دي ملهاش دعوة.

ـ طيب يا عزة، انتِ حرة. المهم عايزة مني إيه دلوقتِ؟

ـ عايزة أقولك على موضوع كده.. موضوع مهم.

ما كنتُ أريد أن أستمع منها مزيدًا، لكنني صبرتُ حتى تنتهي وترحل عني. أنصتُّ متصابرةً، وصمتتْ كأنها تستجمع قواها وتستعد للبوح بشيء خطير، وسكنتْ تمامًا فأخذتُ أتلفتُ وأتأففُ من الحرّ الخانق، ثم قمتُ إلى غرفة النوم وأحضرتُ المروحة وأدرتها بسرعتها الوسطى حتى أستطيع التنفس بيسرٍ، وكيلا تتعرق «نور» فتصحو من نومها باكية. عدتُ إلى موضوعي السابق بالجلسة السمجة، ونظرتُ بهدوءٍ إلى «عزة» الصامتة كقطةٍ نادمة، فرأيتُ أنها من خلف مسحة

الجمال الباقية على ملامحها، قبيحة. كأنني انتبهتُ فجأةً لترهُّل شفتيها وغِلَظ أنفها وغُور عينيها، ولمحتُ ببشرة خديها مواضع خشنة كجلد الإوز إذا نُتف. مسكينة. كنتُ أظن أن البنات كلهن، والنساء، جميلات بطبعهن شكلًا أو معنى، لأن الأنثى لا يمكن أن تخلو من شيء جميل. وجمالها هذا قد يكون ظاهرًا، وقد يحتاج جهدًا لاكتشافه.. كثيرًا من أفكاري تغيَّرت.

- خير يا عزة، إيه الموضوع المهم؟

- مفتاح. محتار قوي، هيتجنن، بيشك إن البنت نور مِش بته.

- يشُكّ ولَّا يتشك في قلبه، أنا هاعمل له إيه!

- خدي بالك منه يا نورا، انتِ عارفة دا بيشتغل في المخابرات، ومفتري. هوَّ قال لي من يومين، إنه بعت يجيب أخبار الواد بتاع أسوان، إلّ كنتِ ماشية معاه قبل الجواز.

- ماشي يا عزة، يعمل إلّ هوَّه عاوزه. فيه عندك حاجة تانية؟

- لأ. يلَّا، أشوف وِشَّك على خير. مع إنّ شكلنا كده مِش هنشوف بعض تاني.

- بالسلامة.

لم أرها منذ ذاك اليوم، ولا أريد. بعد رحيلها بأسبوعين أو ثلاثة، عاد «مفتاح» وقد صبغ شعره بلون فاحم يشبه ورنيش الأحذية، فازدادت هيئته سماجةً وسخفًا مع انسدال الاسوداد على ثنيات وجهه المتجعد كجلد الماعز المدبوغ، وبدا لعينيَّ أشد قبحًا من ذي قبل. القبح محيطٌ بي. فور دخوله ساعة العصر، وقف أمامي وسألني عن

«عزة» فقلتُ لا أدري. سألني: متى رحلت؟ فقلت لا أدري. قال إنها أخذتْ أشياءها واختفت، والشقة الأخرى مليئة بالتراب: *يعني مشيت م الشقة من فترة!* قلت لا أدري. استدار إلى الباب وهو يقول بنبرته المقيتة: *باهي، تروح في ستين داهية، أنا أصلًا* زهقت منها *ومن إلّ خلفوها، بقت طمَّاعة على الآخر.*

خرج بعدما أغلق الباب خلفه، صفعًا، وفي آخر الليل سمعته يدير المفتاح فانتبهتُ من الوسن الممل، ولم أغادر سريري. دخل عليَّ سكرانًا وجلس متحفزًا على حافة الكرسي الوحيد بغرفة النوم، فعرفتُ أن ليلتي ستكون طويلة. نفخ مرتين في الهواء مثلما يفعل فرس النهر، ثم قال ما معناه إن هذا الوضع لا يعجبه، ولم يعد يحتمله. التزمتُ الصمت. أضاف أنه سلَّم مفتاح الشقة الأخرى لصاحبها لأنه لم يعد محتاجًا إليها، وشقتنا هذه صغيرة جدًّا وخانقة، ولهذا يفكر في استئجار شقة واسعة تطل على البحر. التزمتُ الصمت. بعد سكوتٍ دام دقيقةً قال إنه لا يعرف ما المشكلة بيني وبينه! ولو كانت المسألة فارق السن، فإن عشرين سنة ليست فارقًا كبيرًا بين الزوجين. التزمتُ الصمت ولم أعلّق، مع أن الفارق بيننا ستٌّ وعشرون سنة.. لم يجد نتيجة لمدخله الهزلي، فأدار دفَّة الكلام إلى جهة أخرى بأن مسح شقَّ وجهه بباطن كفه اليمنى، ثم قال بصوتٍ حسير:

ـ أنا تعبان، شكلي شربت كتير اليوم.

ـ ...

ـ هاتي البنت تنام على الكرسي ده، أو حُطّيها بره في الصالة

وشغَّلي لها المروحة عشان تفضل نايمة، أنا عايز أنام جنبك الليلة دي.

ـ عندي البريود.

ـ إفّ. ليش هكّي. كِيف عندك العادة وانتِ بترضّعي.

ـ أمر الله.

ـ وليش يعني، ما أنا زوجتي إلّ هناك كانت بتقطع العادة وهيَّ بترضع.

ـ وأنا مالي ومالها. فيه ستات بترضع نضيف، وستات لأ.

ـ خلاص، اسكتي.. أنا ماشي للشيراتون، وهانام هناك.

ذهب غاضبًا، ففرحتُ برحيله واسترحت. بعد لحظاتٍ قمتُ من سريري حذرةً، كي أتأكد من إغلاقه باب الشقة بإحكام.. ما كلُّ هذا الفراغ المحيط؟ جلستُ ساكنةً في الصالة، وأطلتُ الجلوس حتى شعرت بأثقالٍ تتماوج في صدري وأكلانٍ يدغدغ الحلمتين، فذهبتُ إلى «نور» وأيقظتها برفق وألقمتها ثدييَّ تباعًا لتشبع، ويخفَّ عن صدري الضغط. ما هذا الوجع. قررتُ لحظتها الكفَّ عن الأشربة المدرَّة للحليب، وتعويض «نور» عن لبن صدري بالإكثار من إطعامها مهروس البطاطس ومفروك الحبوب المبلَّلة، والعصائر. بعد يومين عاد «مفتاح» صباحًا وقد بدا كالمهرِّجين البؤساء. إذ كان يرتدي قميصًا مشجرًا بأبشع الأشكال وأسخف الألوان، تحت بدلةٍ شتويةٍ شنيعة اللون، كأن قماشها الأصفر مصبوغٌ بشوربة العدس، ومن عنقه الغليظ تتدلَّى ربطةُ عنقٍ مُبقَّعةٍ بألوانٍ فقعاء تغمُّ الناظرين، وفي

قدميه حذاء أبيض! دخل مختالًا فخورًا بأناقته، وبدأ حيلته بكلام ناعم خرج من طرف لسانه طافحًا بالكذب، فقال إنه يحبني ولن يستغني أبدًا عني. فاغتممتُ ولم أجاوبه بشيء. سكت لحظة ثم عاد للفحيح قائلًا إنه سيذهب اليوم إلى طرابلس لشغل مهم، وإنه دفع لمالك هذه الشقة إيجارها لآخر السنة، وترك مالًا تحت الحساب عند محل البقالة الكبير، وسوف يأتي الصبي كل صباح لتوصيل ما أطلبه.. تنحنح ثم أضاف أنه سيترك لي مبلغًا قبل سفره، فربما أحتاج شيئًا أثناء غيابه. لم أرد عليه بأي شيء فانتابه القلق وخلع عنه الجاكيت وألقاها على قائم الكنبة، ثم شدَّ مخدعًا وجلس مائلًا كالمرتاح، وراح يقول كالماكرين: *يا نورا بلاش العند ده، إنتِ مراتي، وعليكِ حقوق شرعية ليَّ.*

ـ وبعدين، إحنا مُش كُنا خلصنا من الحكاية دي! وعمومًا إذا كانت «عزة» مشيت، شوف لك واحدة غيرها. بس ياريت تسكن معاها بعيد عني.

ـ لا، أنا مِش عايز كده. وبعدين أنا كنت مع الزفتة «عزة» عشان حبيت اضغط عليكِ. بس الحال بتاعنا ده مِش ممكن يستمر، يعني مش معقول من يوم ما اتجوزتك، ما يحصلش بنَّا شيء إلا مرتين بس.

ـ حصل أربع مرات. وبعدين هوه فين الجواز! إنت اشتريتني بشوية فلوس، ودمرت حياتي كلها.. عايز إيه تاني؟

ـ يا نورا، خلينا نبدأ من جديد.

ـ نبدأ إيه؟

ـ شوفي، أنا طيارتي الساعة أربعة. وانتِ عارفة، أنا بروح مطار النزهة قبلها بنص ساعة بس. يعني عندنا كام ساعة حلوين، نقدر نقعدهم مع بعض. قومي كده خُدي حمَّام، واستعدي..

ـ قلت لَك عندي نزيف.

ـ إفّ، وآخرتها إيه يعني. طيب، الله غالب. خلي موضوع القعدة الحلوة ده بعدين، وخلّينا نتكلم دلوقتِ في حاجة تانية.

ـ خير، حاجة إيه؟

ـ البنت دي، ليش مِش طالعة شبهي؟

ـ نعم.

ـ أيوه يا نورا، أيوه. البنت طالعة زرقا زي العبيد، وأنا أبيض شمعة. وشكلها وعينيها ومِنخارها غيري خالص. دا بناتي إلّ هناك، حتة مني. تشوفيهم، تقولي على طول دول عيال مفتاح.

لحظتها، أخذتني بعيدًا عنه فكرةٌ غريبة، هي أن ابنتيه باشتان! فقد ورثت كل مسكينة منهما قُبح أبيها، وقلت في سري إن القبح من حولي يتزايد تدريجيًّا، فيصير بشاعةً. كان «مفتاح» قبيح الشكل والمضمون، دومًا، لكنه صار مؤخرًا شخصًا بشعًا لا يمكن أن يحتمله أحد. وسوف يزداد كلامه القبيح بشاعةً إذا استمر، فيجب إيجاد طريقة لقطع هذا الجدال التعيس، وخير وسيلة للدفاع الهجوم. وليكن ما يكون. قلتُ:

ـ أنا مُش فاهمة. إنتَ يعني عايز تقول إيه؟ اتكلِّم كده بوضوح.

ـ أتكلم أقول إيه. أنا قلت إلِّ عندي، وانتِ فاهمة قصدي. عمومًا أنا ماشي دلوقت، والمرة الجاية نبقى نتكلم في الموضوع ده، شكله محتاج وقت. خلاص، بعدين.

ـ ...

ـ ماشي يا نورا.

قام من أمامي مثل فأر يهرب، فرأيتُ تفاهته وضعفه المستتر خلف خشونته الخادعة. وعاد بعد أسبوعين بخطةٍ جديدة، فقد أظهر في أول الأمر الاستهانة كأنه غير متوتر، وأخذ يلوك الكلام حول تفاصيل لا معنى لها، متأرجحًا بين موضوعات لا رابط بينها. ولما وجدني صامتةً تمامًا، راح يلمِّح لما يسمِّيه علاقتي الأخرى السابقة، مؤكِّدًا أنه يدرك جيدًا أنها كانت مجرد لعب عيال! ثم أخذ يستعرض قدرته الفائقة على الوصول لأي معلومة يحتاج معرفتها، وأشار بنبرة تهديدٍ خفية إلى أنه لا يترك حقه أبدًا، ولم يسمح قط لأحدٍ أن يستهزئ به.

تركته يهرف بالكلام ويروح فيه ويجيء كالتائه، وحين رأيتُ أن اضطرابه قد بلغ مداه انفجرتُ فيه زاعقةً، فانخسف. قلتُ له إن الكيل فاض بي وإنني على وشك الإصابة بالجنون، وأظنه أصابني فعلًا، فأنا منذ دخلت هذه الشقة الكئيبة لم أخرج منها خلال عامين، إلا مرة لمستشفى الولادة والمستشفى الأميري لأزور أبي وهو يموت، ومرة أخرى أخيرة لأتلقى العزاء فيه. فما الذي يظن أنني فعلته منذ زواجي التعيس؟ ردَّ عليَّ ببروده المعهود: *وقبل الجواز عملتِ إيه؟*

صرخت فيه ففزع، وارتعدتُ متفضةً فارتدع. حدَّقت نحوه بعين الشر فكنتُ مثل «الكوبرا» إذا انتصبتْ، والإعصار إذا أراد أن يهب، فدبَّ بقلبه الرعبُ وفضحته عيناه. قمتُ غاضبةً إلى غرفة النوم، فسكن في مكانه ونام حتى الصباح التالي على الكنبة، بعد أن عبَّ كثيرًا من الزجاجات التي كان يحضرها معه، وملأ المكان بالرائحة المقرفة.. ظل على حاله المزري هذا ثلاثة أيام، فكان لا يقوم من مكانه إلا لقضاء الحاجة، ثم يعود إلى الصالة المعتمة فيرتمي على الكنبة بجلبابه الذي اتسخ، وحوله بقايا الطعام الذي يلتهمه بنهم مثلما يأكل الخنزير.. عصر اليوم الثالث، ناداني فجأةً زاعقًا فجئتُ إليه سائرةً بخطى الحذر، ولم أظهر له ارتياعي باحمرار عينيه وسوء منظره. بادرني بقوله: شوفي بقى، *الناس عندنا تقول: الكلام الهين يضيَّع الحق البين. وأنا عايزك دلوقتِ تعترفي، البنت دي بنت مين؟*

أراد أن يرعبني. سحب مسدسًا أسود من تحت مخدته المنبعجة في زاوية الكنبة، وحرَّك أعلاه للخلف استعدادًا للإطلاق مُحدثًا باحتكاك الحديد مع الحديد، صوتًا كصرير أبواب الجحيم. جاهدتُ خوفي وبقيتُ واقفةً وسط الصالة مثل صواري المراكب، فانتصب واقفًا قُبالتي كالمخبولين وهو يقول: *قُدامك نص دقيقة، يا تعترفي، يا هضرب البنت دي طلقة في رأسها، وبعدين هاخنقك بإيدي،* وهافر، *ومُش هاخد فيكم ولا يوم سجن!* عرفتُ أنه بلغ بالتردِّي إلى حدِّ الجُبن، فقلت له فوري: *اقتلني أنا الأول، علشان لو جيت جنب البنت، هاقطَّعك بسناني وآخد فيك إعدام.*

ـ نعم، وبتهدِّدي كمان.

ـ أبوه بهدِّد يا مفتاح، وهانفِّذ. أنا كده كده ميتة.

تخشَّب كعَصَاةٍ تترنَّح، ثم ارتخى عُوده وسال متهدِّلًا إلى الكنبة، وترك المسدس بين قدميه على الأرض. في تلك اللحظة جاءت «نور» تحبو، وتصرخ فزعةً، فأخذتها إلى غرفة النوم وأغلقتُ علينا بابها بالمفتاح. في حضني راحتْ تبكي بوجلٍ، فبكيتُ من دون صوتٍ بحرقةٍ، حتى فعلت «نور» ابنة السنة الواحدة ما لم يخطر لي على بالٍ، إذ احتضنتني بحنوٍّ أموميٍّ نادر فأذهلني عن البكاء. سكوني في حِضنِ نور.

* * *

تخلَّصت من «مفتاح» بالطلاق البائن، بينونةً كبرى، في زيارته التالية عندما عاد مع عواصف وأمطار نوَّة «رأس السنة» التي اشتد فيها شتاءُ سنة الألفين، حتى أسقط من السماء البَرَدَ مع زخَّات المطر. كنتُ قبل ذلك بأيامٍ قد أخبرتُ خالتي «توحة» بما جرى، فأصابها الهلع ونصحتني بترك هذه الشقة والذهاب معها إلى كرموز، ثم استدركتْ من فورها وقالت إنني لا يجوز أن أترك بيت الزوجية في غياب الزوج، كيلا يركبني الغلط. هكذا قالت. ولما رأتني أرتجفُ، طمأنتني بأنها لن تتركني وحدي أواجه هذا الخبل، وستبقى مقيمةً معي حتى يعود «مفتاح» ونجد حلًّا نهائيًّا. سألتها: وبيتك؟ قالت: *هوَّه في حد غيري ساكن فيه، بلا نيلة، يعني هوَّه البيت هيخاف ينام لوحده!* ضحكتُ، فسألتني إن كان جهاز التلفزيون يعمل، فقلت لا أعرف لأنني لم أستعمله من قبل. قالت باسمةً: *طيب قومي كده شغليه، انتِ عارفاني بحب أتابع كل المسلسلات، العربي والأجنبي..*

أمضينا أيامًا طيبةً امتدت قرابة شهر، ثم جاء «مفتاح» كعادته على غير موعد. في يوم بارد. فوجدنا جالستين بالصالة أمام التلفزيون، وأمامنا «نور» تلعب على الأرض بقطع ملونة من البلاستيك. كأنه بوغت بما لم يتوقع، فقد غمغم بتحيةٍ غير مفهومة، ثم راح يحملق فينا تباعًا، حتى بدا منظره مثيرًا للسخرية. أخذتُ «نور» ووضعتها خلفي على الكنبة وجلس هو على الكرسي المنفرد، ولما أغلقتُ بالريموت الجهاز ولم نتحرك من مكاننا أو ننظر إليه، التفت «مفتاح» إلى خالتي «توحة» وقال قلقًا:

ـ خير يا حاجَّة.

ـ خير يا خويا، كل خير. دلوقتِ احنا قلقانين على «نورا» وعلى البنت. ورجَّالة الحتة كلهم عايزين يقعدوا معاك، يعني، عشان نشوف حل. «نورا» يتيمة ومالهاش أخ، بس كل رجالة الحتة عندنا أهلها، وزي أبوها، وكلهم كانوا صحابه.

ـ أنا مِش عايز أقعد مع حد يا حاجَّة.

ـ واللهِ يا اخويا انتَ حر. خلاص، وقال على رأي المثل: شيل ده من ده، يرتاح ده عن ده.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني يا سي مفتاح، زي ما دخلنا كده بالمعروف، نخرج برضه بالمعروف، ولّا انت شايف حاجة تانية؟

ـ لا تانية ولا تالتة، كفاية قرف. بس اعرفي إنها كده ملهاش

عندي أي حقوق، لا هيَّ ولا البنت، يعني مش هتاخد مني ولا مليم.

ـ يا سيدي اللهُ الغني، ومفيش حاجة بتدوم.

ـ ماشي يا حاجَّة، الله غالب. ودلوقتِ إيه المطلوب مني؟

ـ ولا حاجة هيَّ شنطتها جاهزة، ننزل دلوقتِ على نفس المأذون إلِّ كتب لك عليها في كرموز، وهنجيب نفس الشهود يشهدوا برضه على الطلاق. وكل واحد منكم يروح في ناحية، وربنا يسهّله بقى. ونورا هتقعد في بيت أبوها، تربي بتها.

ـ واللهِ تقعد مطرح ما تقعد، هيَّه حرة. وزي ما بيقولوا عندنا: إلِّ تطلقها ما تعرَّفها فين حوش أهلها.

في دكانة المأذون الذي حرَّر قبل عامين رقّ عبوديتي، تحررتُ، وجئتُ من يومها للسكنى في شقة أبي هذه، فهدأت أموري وانتظمتْ مع مرور الأيام.. جارتنا «أم سماح» أوجدت لي عملًا مناسبًا مع قريبةٍ لها اسمها «مدام كاميليا» تملك معمل تطريز، في شقة قديمة واسعة قرب مسجد سلطان. في المعمل ماكينات للتطريز الآلي، لكن مدام «كاميليا» ذكية وماهرة إلى الدرجة التي جعلتها تمزج بين عمل الماكينات والتطريز اليدوي، فتصير أسعار العباءات النسائية أعلى.. كل أسبوع، تعطيني عشر عباءات أو أكثر، فأقوم بإضافة التطريز اليدوي المطلوب وأتقاضى عن كل قطعة عشرة جنيهات، وهذا كافٍ للمعيشة ولشراء الكتب المستعملة من شارع النبي دانيال. في القراءة عزاءٌ، ولذة، لكن ابنتي «نور» هي عزائي العميق ولذة أوقاتي البطيئة.

كل ليلةٍ تنام في حضني فأحنو، وتصحو فيتسم النهار. لأجمل ما في الوجود. بعد عامٍ سأذهب بها إلى المدرسة، كل يوم، وسأكون دائمًا سندًا لها حتى تستطيع السير وحدها في دروب الحياة، وتجد طريقًا للسعادة. أنا سعيدةٌ من أجلها، وحزينة من أجلي. أحيانًا تغمرني مشاعر متضاربة كثيرة الشجون، وأحيانًا أصفو فأجد الكون قد صار أقل قبحًا مما كان عليه في سنواتي الخمس السابقة.

* * *

تعالتِ الأصواتُ المتصاعدة من صخب البائعين وحركة الناس في الزقاق، فانتبهتُ إلى أن الساعة تعدّت العاشرة. لا تزال «نور» نائمة في هدوءٍ ملائكيٍّ، لا بأس، النوم لذيذ عند دخول الشتاء. سأقوم الآن لإعداد طبقَي الفول بالثوم والفول بالبصل، ثم أوقظ صغيرتي وننزل الدور الأرضي لنفطر كالمعتاد مع خالتي «توحة» بعد إحضار الأرغفة الساخنة. والفلافل المحشوة. وقرطاس المخللات. بعد فطورنا سأترك «نور» أمام أفلام الكرتون، وأحكي لخالتي «توحة» على المكالمة التي جاءتني ليلًا من ابنتها «أمل» وستفرح معي، لأنها كانت من البداية تتمنى زواجي بمن أحب. كانت تحبه وتستبشر به. وهي التي أطلقت عليه سابقًا اسم «سمارة» حين سكن بالقرب منا. كانت تداعبه بذلك الاسم حين يلقي عليها التحايا، بقولها الأمومي الآسر: *أهلا يا سمارة يا أحلى سكان الحارة*.. وعلى النقيض، كانت تنقبض حين ترى «مفتاح» يزورنا، وتشيح عنه إذا مرَّ بها تتشاغل بأي شيءٍ كيلا تردَّ السلام، وردَّت إليه أول وآخر هدية أرسلها لها. كيس المكسرات. ولما عرفت نيته الزواج مني، كانت تردد ليل نهار قولها المأثور: *يا واخد القرد على ماله، يروح المال ويبقى القرد على حاله*.

البصل المقطَّع يُسيل دموع الفرح من عينيَّ، فأضحكُ بلا سبب وأنا أدقُّ فصوص الثوم بالهاوُن، على هَوْن، كأنني أعزف لحنًا له نغمةٌ واحدةٌ من ثلاث دقاتٍ متالية، وسكتةٍ لتبديد الصدى الرنان. الحب يجعل دنيانا أحلى. غطَّيتُ الطاستين الصغيرتين على الفول المطبوخ كيلا يبرد، وأسرعتُ إلى الحمام وغسلت جسمي وروحي بالماء الفاتر. والباب مفتوح. لم تترك «نور» السرير، مع أن موسيقى الهاون ورائحة الفطور الفوَّاحة أيقظتها، لكنها تمهَّلت متكاسلةً حتى أخذتها من السرير إلى غسيل وجهها إلى السلم، في الطابق الأرضي استقبلتنا خالتي «توحة» بمرحها الصباحي كالمعتاد وعبارتها الدائمة: *يا صباح العسل على العرايس الحلوين.*

- صباح النور يا أحلى «توحة» في الدنيا، شكلك النهارده صحيتي بدري.

- والله يا نورا ما عدت بعرف أنام.

- ليه يا خالتو، بتحبِّي جديد ولا إيه؟

- ولا جديد ولا قديم، ما خلاص بقى، غطِّيته بالليفة ونسِّيته التشريفة.

- عيب الكلام ده يا خالتو. بطَّلي شقاوة. المهم، يلَّا نفطر علشان فيه موضوع مهم حصل امبارح بالليل، هاحكي لك عليه.

على خلاف ما توقعتُ، لم تفرح كثيرًا حين أخبرتها باتصال «أمل» وبدت على وجهها علامات الهمّ والجدية، فظننتُ أول الأمر

أنها متأثرة لعقوق ابنتها لأنها لا تتصل بها إلا نادرًا. وقد اشتكت لي من ذلك مرارًا. لكنني فهمت بعد حين من سياق كلامها، أنها قلقةٌ ومتوجِّسة، ولا تريد أن تتعجل الفرح وتستدني البعيد، ثم تُفجع. لما رأت امتقاع لوني بعد استماعي لكلامها الداعي للتمهل، أضافت: *أنا بس يا نورا خايفة عليكِ، ربنا عالم انتِ عندي زي «أمل» ويمكن أكثر، إنما مين عارف، يمكن يكون الخير جاي قريب، خلّينا نصبر شوية ونشوف.*

ـ وانتِ قلبك حاسس بإيه يا خالتي؟

ـ حاسس يا نورا إنك هتكوني أحسن واحدة في الدنيا.

ـ طيب. أنا هاطلع دلوقتِ، الساعة عدت اتناشر، معاد المكالمة قرَّب. تحبي أقول حاجة لأمل؟

ـ قولي لها تحط في عينها حصوة ملح وتكلمني.

ـ حاضر يا قمر.

علا وجيبُ قلبي عندما وصلت عقارب الساعة إلى حَدِّ الواحدة، فلما بلغتْ الثانية ظهرًا ولم تتصل «أمل» بلغتُ من التحيُّر وشدة المعاناة المدى، فليس باستطاعتي التشاغل بأي عمل من الانتظار، وليس بإمكاني الجلوس محدِّقة في اللاشيء حتى تأتيني المكالمة المتأخرة عن موعدها. حرام عليكِ يا أمل. أخرجتني «نور» من عجزي وجمودي التام حين قالت بنبرة رجاءٍ واستعطاف لا سبيل لتجاهله: *ماما، أنا عاوزة فشار، ممكن؟*

ـ ممكن طبعًا يا روح قلبي.

نهضتُ من جلستي الأرضية وهممتُ إلى المطبخ فأوقدتُ النار والقيتُ على قطعة الزبد حفنةً من الذرة، وغطّيتُ الطاسة بعد إضافة بعض الملح، وانتظرت الطرقعات المبهجة. تك، تك، تك. وسرعان ما كان الفشار بين يدي «نور» المستغرقة تمامًا في متابعة صور وألوان حلقات الكرتون.. اتصلي يا أمل، فقد نفد صبري، والساعة قاربت الثالثة بعد الظهر.

في الرابعة والنصف عصرًا، انخطف قلبي حين رنَّ التليفون رنّاته الطويلة، فأخذته إلى غرفة نومنا بيدٍ ترتجف. كلي كان يرتجف. وعلى السرير كظمت غيظي وقلتُ لها برفق إنها تأخرت عليَّ، فضحكتْ وهي تقول إن فرق التوقيت هو الذي أوحى لي بذلك، وزوجها «حسن» يذهب لعمله في الواحدة ظهرًا.. هذا كله ليس مهمًّا، الآن، فهناك الأهم.

ـ معلش يا أمل، أنا عارفة إني تعبتك معايا، وبكلّفك مكالمة دولية.

ـ عيب الكلام ده يا نورا، تعب إيه. وبعدين المكالمة دي هدية من «فهد» هوَّ بيشتغل هنا في السترال، والمكالمة من مكتبه، ومن تلفونه كمان.

ـ فهد مين يا أمل؟

ـ صاحبي. اتعرفت عليه من نص ساعة. واد زي القمر، وفرفوش. المهم يعني، المكالمة دي بلُّوشي.

ـ طيب، قبل ما أنسى، ابقي كلِّمي أمك علشان زعلانة.

ـ زعلانة من إيه إن شاء الله، ما أنا كلمتها الأسبوع إلّ فات.

أحسستُ بأن الكلام سوف يميل إلى ناحية بعيدةٍ عما أنتظره، وقد يثير عند «أمل» الغُصَّة القديمة التي تلوم أمها، ظلمًا، بسببها. فأخذتُ قياد المكالمة وانعطفتُ به إلى ما أود معرفته، ورجوتها أن تقصَّ عليَّ تفاصيل لقاء الأمس كاملةً، وألا تهمل أيَّ كلمة. قالت إنها في العادة تملّ من الجلوس في البيت وحدها، حين يخرج زوجها لنوبة عمله المسائية ويعود مع منتصف الليل. هي تسميها: المواعيد العفاريتي. ولتدفع عنها الملل، تخرج بعد خروجه إلى أحد مكانين، المول أو «سوق واقف» لأنها تحب أن ترى الناس، وترى نفسها وسط الزحام. طيب، وبعدين. أمس ذهبتْ إلى «سوق واقف» المفتوح، لأن الرطوبة كانت معتدلة وحرارة الشمس محتملة. وبعد أن اشترتْ «العُصفر» الذي تستعمله في صُنع الليمون المخلل، اشتهت الآيس كريم فاشترته من المحل الذي على يسار الداخل إلى السوق من ناحية موقف السيارات، وانزوت في المقهى المجاور كيلا تلعقه وهي تسير، لأن ذلك غير معتاد هناك. طيب، وبعدين!

ـ بس يا نورا، أنا خلصت الجيلاتي من هنا، ولسه هخرج م الكافيه، لقيت حد بيقولي: هوَّ حضرتك الأخت «أمل» صح؟ لقيته سمارة. بس، رجعنا تاني ع الكافيه. أصله كان شايل حاجات كتير شاريها من السوق، واتكلمنا.

ـ أيوه، احكيلي يا أمولة كل كلمة قالها. كل كلمة وحياتك.

لم تضف حرفًا واحدًا إلى ما أخبرتني به ليلة أمس، لأن الجلسة معه لم تستمر طويلًا، ولأنه كان مرتبكًا. سألتها: هل تزوَّج؟ قالت

إن الأشياء التي اشتراها تدل على ذلك. كيف؟ قالت لو لم يكن متزوجًا، لما اهتم بشراء خزين للبيت وهو على سفر قد يطول لشهر أو شهرين. هل حكى أي شيء عن زوجته؟ لا، ولا كلمة. كيف كان ينطق اسمي؟ بهيمان. هل أدرك أن «نور» ابنته؟ أظن، لأنه سرح بعينيه حين قلتُ له إن البنت تشبهه.

ـ وبعدين يا أمل؟

ـ ولا قبلين، هوَّ ده كل إلّ حصل.

أسلمتني المكالمة إلى الفراغ، وصرت في حالٍ يخالف حالي بعد مكالمة منتصف الليل. كنتُ منذ الأمس فرحةً فصرتُ الآن حيرى، وكنتُ مستبشرةً بما أتمناه فصرتُ الآن متوجِّسة مما أخافه. هو إذن متزوِّج. الآن فهمتُ نصيحة خالتي «توحة» صباح اليوم بالتريث، فقد أشفقتْ عليَّ من الوقوع عقب التحليق، فأرادت ألا أتعجل الفرح وأستبق الأمور، ثم تقصم ظهري الوقائعُ وتقهرني الحقائقُ. وقد وقع ما كانت تتحسَّب له ولا تريده لي، وانكسرتُ عند الصدمة الأولى.

مالي! ما الذي جرى لي فجأة، أراني الآن كقطعة قماشٍ متآكلة القلب، مهترئة الأطراف، لا تصلح حتى لمسح البلاط. بل ما عدتُ قطعة قماش! أنا خيوط مفككة. دخلتْ «نور» عليَّ الغرفة لتخبرني بأنها جاعت، فقمتُ متباطئةً إلى المطبخ، وسخَّنت صينية البطاطس المتبقي نصفها من عصر أمس، وأعددتُ قدرًا من الأرز الأبيض. هي تحب مخلوطهما.

ليت رأسي يتوقف عن الدوار وتدوير الهواجس، فأنا متعبة، ولا أحب طحين هذه الأفكار الحارة التي تتجول الآن بداخلي: يجب أن

ينتهي الماضي إذ ينقضي، لكنه لا ينتهي ما دمنا لا نعيش الحاضر. ولأنه لا حاضر لي، فليس لي إلا ماضٍ فيه حبٌّ مقموع، وآتٍ فيه آمالٌ تخصُّ صغيرتي. حاضري باهتٌ. فهو مجرد بوابةٍ لعبورٍ دائم من فواتٍ إلى مأمولٍ غير مضمون. رأسي يرنّحه الدوار. «نور» تأكل ببطءٍ، وعيناها متعلقتان بشاشة التلفزيون. بقيت أنظر ناحيتها، فأراها ولا أراها.. رنَّ الهاتفُ مجددًا، الرنة ذاتها، فاستغربتُ معاودة «أمل» الاتصال بعد ساعة أو أكثر من انتهاء المكالمة السخيفة السابقة. قمتُ من جوار «نور» مسرعةً إلى السرير، وكدتُ أتعثر في سلك الهاتف الملتف على الأرض كدوَّامات البحر، وكالحيات. خفق قلبي إذ خطر ببالي أن المتصل قد يكون هو، لعله أراد أن يرحمني باتصالٍ منه قبل سفره. لكنها كانت أمل. قالت: *شوفي يا نورا، أنا كنت قاعدة دلوقتِ أتكلم مع «فهد» وبعدين جت السيرة فقال لي حاجة مهمة.*

ـ خير يا أمل.

ـ خير طبعًا، «فهد» عنده واحد صاحبه بيشتغل في الأمن بتاع محطة التلفزيون، ويقدر يجيب منه كل أخبار «سمارة» بس هوَّ عايز يعرف اسمه بالكامل.

أخبرتها باسمه وبالمعلومات كلها التي أعرفها عنه: عنوانه ويوم ميلاده وتاريخ تخرُّجه، فوعدت بموافاتي بالخبر اليقين بعد يومين، لأن «فهد» متحمسٌ للمساعدة! فهو بحسب وصفها شخصٌ «لذيذ» جدًّا وعنده اتصالات كثيرة، يعمل بالدوحة منذ عدة سنوات، بلغ من العمر الخامسة والثلاثين ولا يزال يبحث عن الحب الحقيقي.. استغربتُ كلامها عن هذا «الفهد» الذي قابلته قبل ساعات، فقط،

وتتحدث عنه كأنه صديقٌ قديمٌ يُعطي الوعود، ويعد بالمساعدة! لكنني لم أشأ أن أجادلها في أي شيء، ليقيني بعدم جدوى الجدال، ولعلمي برأيها في الرجال. ختمتُ الكلام معها بإعادة تذكيرها بضرورة الاتصال بأمها، فردَّت عليَّ بنبرةٍ متوترة: *بعدين يا نورا، هاكلّمها بعدين، أنا دلوقتِ عايزة أركّز مع «فهد» لحدّ ما أظبّطه.*

أمل لم تتغيَّر، لكنها وجدتْ في الغربة فرصةَ الانطلاق، فقد انفتح أمامها المجالُ هناك لتطبيق أفكارها وتحقيق الأحلام التي طالما همست إليَّ بها. أحلام المأزومين. هي لا تحب الرجال، لكنها ترى ضرورة استعمالهم للوصول إلى ما تريده المرأة، فهذا عندها هو سبيل النساء الوحيد لاسترداد ما سلبه الرجالُ منهن.. بقيتُ جالسةً على السرير قرابة ساعةٍ أفكِّر في «أمل» كيلا أفكِّر في الأخبار التي ستأتيني بها بعد يومين، حسبما وعدت، أو حسبما وعدها فهدُها فوعدتني. كأنني غبتُ تمامًا عما حولي، حتى دخلت عليَّ صغيرتي وهي تبتسم لسببٍ لا أعرفه، فأعادتني إلى اللحظة الحاضرة. احتضنتها طويلًا، ووافقتها حين قالت: *ماما، تعالي اقعدي جنبي نتفرج على «بكّار» وهاتي البطانية الصغيرة علشان اتغطَّى من البرد.*

فهمتُ أن «نور» تنوي النوم أمام التلفزيون كالمعتاد، ولا بأس عندي في ذلك ما دام يريحها ويسعدها. أخذتها، والغطاء، وجلسنا مستدفئتين أمام التلفزيون بعدما أعطيتها نصف رغيف عليه مسحة الجبن الطري الذي تحبه، فأكلت من أطرافه قضمات وتركت الخيار حتى الححتُ عليها لتأكله، مستعملةً معها الحيلة ذاتها: الخيار يجعل شعر البنات طويلًا وناعمًا! أكلته على هونٍ واندست تحت إبطي والبطانية. راحت تتابع بعينيها، كعصفورٍ ينظر من شرفة عشِّه، الصور

المتتالية مبهجة الألوان في مسلسل الكرتون الذي يجعل الصغار يحبون النوبة وأهلها، ويجعل دوامات ذكرياتي تدور.. بعد إعلانات كثيرة جاءها المسلسل الآخر الذي تحبه، وتنطق اسمه «بوكاهانتس» بطريقةٍ طريفةٍ، مختصرةً إياه إلى: بوكنتس.

طمأنني قليلًا اطمئنانُ ابنتي المستريحة إلى الدفء، فأخذتني الأفكارُ بعيدًا حتى طوَّفتْ بي المخاوفُ الغامضة من جديد، فقلت في سري: لن أبتعد عن «نور» لأي سبب، وسأبقى دومًا لصيقة بها، كيلا يعصف بها الإحساسُ بالوحدة واغتراب الانفراد. الفتيات إذا انفردن، تفترس الواحدة منهن الأهوالُ، وقد يقع معها المحظورُ والمحذور منه، مثلما جرى مع «أمل» أيام كُنا في الرابعة عشرة من عمرينا. لن أسمح للمآسي الفاجعات بأن تحوِّم حول ابنتي، ولن يجرؤ الشرُّ على الاقتراب منها، ما دمت دومًا معها. العام القادم، سآخذها بيدي كل يومٍ لمدرستها، وأعود لأنتظر خروجها لدى الباب. ومهما كانت الأسبابُ، فلن أتركها في البيت وحدها فينهش فراشتها كلبٌ مسعور من أمثال جعفر الفرَّان.. كانت «أمل» وحدها، تستحم، حين جرت مأساتها الأولى التي لم يتوقعها أحدٌ، فبدأ دمارها الداخلي منذ ذاك اليوم. كنا بالكاد قد تخطينا العام الثالث عشر من عمرينا، لكنها تكبرني بشهورٍ تبدو أكبر من عمرها الفعلي، لأن «خرَّاط البنات» تعجَّل في نحت استداراتها وفي إظهار الفواكه بستان أنوثتها. فكانت ككل المراهقات، فرحةً بجسمها ومتباهيةً بنهديها وردفيها، في الحدود المسموح بها للتباهي بالأنوثة. وفي اليوم الذي تزوَّجت فيه «سماح الهَجَمَة» بنت جارنا الطيب «حسن الكمري» ذهبت خالتي «توحة» مبكرًا إلى بيت العروس لتساعد في إعداد لوازم العُرس من

أكلات وشربات، ونفّذت يومها ما تهامست به من قبل العُرس بأيامٍ فارتدت في الصباح عباءةً حريرية واسعة الجيب، بلون المشمش، تكشف عن عنقها الجميل وصدرها الرجراج. وأسبلت على شعرها المغسول اللامع، المنساب إلى كتفيها دون تقميط، طرحةً محلاة من أطرافها بدوائر الترتر الصَّدَفي. كانت جميلة، ومبتهجة. وكان ملبسها إعلانًا بأنها خلعت عنها قتامة الأسود الذي ظلت ترتديه لعشرة أعوامٍ، حدادًا على زوجها الذي أنجبت منه «أمل» أيام كانت في الثامنة عشرة من عمرها، ولم يسمح لها زمانها بإنجاب المزيد، لوفاة زوجها الذي كانوا في الزقاق كثيرًا ما يحكون عنه، لأنه كان أحد فتوَّات «الجمرك» المعروفين بالفتك عند العراك مع الغرباء، وباللطف و«الجدعنة» عند التعامل مع جيرانه. طُعن في عركةٍ فمات عند مساكن الطوبجية، ومن بعد وفاته اعتاد الجميع على رؤية خالتي «توحة» في ملابس الحداد. حزنًا عليه، أو أسفًا عميقًا على مصير الأرامل اللواتي ينكسرن في العشرينيات من أعمارهن.. وكان يوم خلعها لاسوداد الحداد، يومًا للفجيعة المريعة.

لازلتُ أذكر كل التفاصيل، ولن أنساها ما حييتُ. بعد مغيب الشمس ذهبتُ إلى سطح بيت العروس بثوبٍ غير جديد، بصحبة «أمل» وأمها التي بدَّلت العباءة المشمشية الصباحية، وارتدتْ فستانًا واسعًا بلون أوراق الشجر الملقاة على خلفيةٍ سوداء ووضعت على شفتيها اللون الأحمر، فبدت فاتنة. وسعيدة. الجيران كانوا يتهامسون أيامها بأن خالتي «توحة» سوف تتزوَّج قريبا من «جعفر الفران» القادم قبل شهور إلى الزقاق، من الريف، ويعمل خبَّازًا في فرن «عم فوزي»

ويبيت فيه ليلًا. ولما سألتُ «أمل» عن صحة هذا الكلام الدائر همسًا، مصَّتْ شفتيها وحملقت في اللاشيء، ولم تُجب.

مثلما يحدث في الأعراس دومًا، صار الزقاق ليلتها مسرحًا لاحتفال الرجال تحت أقدام الراقصات البدينات المستأجرات لإهاجة شهوة العريس، فاحتشدوا من بعد صلاة العشاء أمام «خشبة المسرح الشارعي» يشربون البيرة بلا خجلٍ ويدخِّنون الحشيش المكرَّز فوق معسل الشيشة. أما النسوة والبنات والصغار من الأطفال، فكان اجتماعهنَّ الصاخب على سطح منزل العروس، حيث يستمر الرقص الحقيقي غير المستأجر، من أول الليلة إلى أواخرها.

بدأ الحفلان، السطوحي والشارعي، في حدود الثامنة مساءً. فضجَّت مكبراتُ الصوت بالصاخب والمَرِح من أغنيات الأعراس ذات الإيقاعات القوية، المشجِّعة على الاهتزاز. وكانت «أمل» وزوجة أبي، هما اللتَيْن افتتحتا الرقص السطوحي وسط ابتهاج النساء وصخب أطفالهن، وما كادتا من أول الليلة تتوقفان عن هز الأرداف. «عزَّة» ترقص بليونة الخبيرات، و«أمل» بعنفوان المبتدئات. وكانت الأخريات يرقصن حينًا، ثم يتوقفن لاهثاتٍ لالتقاط الأنفاس ولإطلاق الضحكات بلا سبب أو لأوهى الأسباب. في حدود الساعة العاشرة مساءً حين بلغ الصخب العلوي مداه، والتحتاني، جاءت أمل إليَّ في زاوية السطح وهمستْ بأن موعد المفاجأة قد حان! إذ كانت قد استعدت سرًّا لارتداء فستانين. وما كان يعلم بذلك إلا أمها وأنا، الفستان الأول الذي ابتدأت به ناصع الاحمرار، برَّاق، كانت تسميه: الماتينيه. والآخر الذي سوف تفاجئ به الجيران، كحليٌّ،

وأشد بريقًا من الأول ومُحلًّى بقصبٍ له لون السماء وفصوص لامعة كالنجوم، وهو الذي كانت تسميه: السواريه. الثوبان كانا كاشفين عن ذراعيها ومهبط صدرها، وقصيران بأكثر من المعتاد ارتداؤه، وضيّقان عند الخصر والصدر بما يسمح ببيان جمال النهدين، وضبط حركة الردفين حين ترقص.

ذهبت «أمل» لتغيير الفستان ومفاجأة الموجودين، فتأخَّرتْ. أرسلتني أمها لاستطلاع الأمر وتحذيرها من وضع أحمر الشفاه وظلال الجفون، فذهبتُ غافلةً عما سيصدمني بعد دقائق، وآمنةً، لأنني رأيتُ أبي يجلس مع أصحابه قرب باب البيت، فتبادلنا الابتسام.. كان بابُ شقَّتهم الأرضية مواربًا، والأنحاءُ معتمةً، فاستغربتُ الحال وسارعتُ إلى أزرار النور. لم ألمح «أمل» فاعتقدتُ أنها عادت إلى سطح الرقص، وظننتُ أننا لم نتقابل في الطريق القصير بسبب الزحام.

عند مغادرتي شقة خالتي «توحة» سمعت وأنا عند الباب صوتًا كالأنين المكتوم، شبيهٌ بمواء القطط في شهر «طوبة» لكنه ضعيفٌ خافتٌ. خفتُ، لكنني تشجَّعتُ بالصخب الآتي من الخارج ودخلتُ إلى ناحية «الحناية» لأتحقَّق مما سمعته، فوجدتُ «أمل» مستلقيةً على الأرض.. عاريةً تمامًا، ومغبَّرةً، ومنهوشةً، ومستسلمةً كبقايا فرائس الوحوش. ومن فمها وأسفل بطنها، يسيل الدمُ فيلطِّخ ما حول الفتحتين.

صُدمت فلم أقدر على الحركة. كنتُ صغيرةً وغير مدركةٍ لمعنى ما أراه، لكنني شعرتُ بأن شيئًا خطيرًا قد جرى. أسرعتُ إلى

حيث يجلس أبي، ولما لمحني أقتربُ، قام من بين الجمع وهَمَّ إليَّ بأقدام القلق. أخذته من دون إجابةٍ إلى «الحناية» مع أنه ظل يسألني: *مالك يا نورا، حصل إيه يا بتي، حصل إيه؟!* لما رآها، أخذ يردِّد وهو مذهولٌ «يا ساتر يارب، يا ساتر يارب» وحملها إلى السرير وغطى عريها بملاءةٍ، ثم أسرع إلى مطبخهم وجاء ببصلةٍ كبيرةٍ هشَّم استدارتها وراح يمررها أمام أنف «أمل» حتى شهقت وأخذتها الرجفةُ، ثم خمدتْ مجددًا. كنتُ عند باب الغرفة واقفةً كالهائمة في الفراغ، خائفةً، وحيدةً، ومسكينةً كصاحبتي المستلقية على سرير الإغماء.

ـ يا نورا نادي خالتك «توحة» بسرعة.

ـ لأ يا بابا، أنا خايفة. هيَّ «أمل» مالها، إيه إلِّ جرى لها؟

ـ طيب، أنا هاروح أناديها. وانتِ تعالي اقعدي هناع السرير جنب أمل، أنا جاي على طول.

خرج مسرعًا وتركني متحيِّرةً. برفق طفوليٍّ بريء مسستُ بأطراف أصابعي رأس «أمل» وشعرها المنفوش، ثم لامستُ جبهتها المتعرِّقة المغبَّرة براحتي اليمنى. ولما رأيتها ساكنةً أمسكتُ بيدي الأخرى أصابع كفها اليسرى كأني أحتضنها، فشهقتْ فجأةً وانتبهتْ من الإغماء مرتجفةً كأنها تكهربتْ. فزعتُ. لم أدر كيف أواسيها وأخفِّف عنها ما لا أعلمه، فاقتربتُ لأضمَّها، لكنها أجهشتْ بعويلٍ مزَّق قلبي. وبعد فترةٍ هدأتْ، وأخذها النشيجُ وأخذني الذهول. تخشَّبتُ في جلستي عاجزةً عن أي شيء، إلا النداء في الفراغ بصوتٍ خافت ضعيف: يا بابا.. يا بابا.

لما جاء أبي خلف خالتي «توحة» المرتاعة، انتبهتْ «أمل» لدخولهما الغرفة فاعتدلت عن استلقائها، وجلست في وسط السرير تؤرجح رأسها مثلما تفعل المعدِّداتُ من النسوة في المآتم، وأخذتْ تزومُ كالمجذوبين. والكلُّ مندهشٌ، مصدوم. بعد حينٍ راحت تحشو ما بين فخذيها بالملاءة الصفراء المبقَّعة بدمائها، وهي مذهولةٌ عن أنها تعرَّت من جديد، وبدا معظمُ جسمها المطيَّن بعَرَقها وتراب الأرض.. صخبُ العرس يأتي من الزقاق عاليًا كالصراخ، وخالتي «توحة» متسمِّرةُ العين والأطراف، وأبي منكَّسُ الرأس يتمتم بأدعيةٍ مهموسة، وأنا تائهة. أما «أمل» فكانت تنوحُ بكلمات لم أسمعها منها من قبل: إنتَ فين يابا، رُحتْ فين يابا، تعالى شوف يابا.

رأسي الصغير، أيامها، لم يستوعب عويلها ولم يفهم السرَّ وراء نداء «أمل» لأبيها المتوفَّى قتيلًا قبل عشر سنوات. لماذا تتذكره، وتذكره الآن! لكن أمها فهمتْ واستوعبتْ، فلطمت وجهها حتى سال من طرف فمها الدمُ. بكاؤهما أبكاني، وآلمني عذابهما الذي ما كنتُ أعي فداحته، وليتني ما وعيتُ. بعينٍ مبللة رأيت أبي يغطي «أمل» بثوبٍ أظنه كان معلقًا خلف باب الغرفة، ثم يأتي بكوب ماءٍ مسح وجهها بنصفه وأعطاها النصف الآخر لتشربه، فشربتْ وهي تسحُّ دمعًا غزيرًا.

لا أدري ما الذي أجلسني على الأرض قرب باب الغرفة، هامدةً، زائغةَ العينين، يابسةً مثل يمامةٍ ميتة. يصمُّ أذنيَّ الضجيجُ الآتي من خارج الشقة، كأن الجدران لا تفصلنا عنه. حاول أبي أن يأخذني عن الأرض. فما استطاع، وما استطعتُ الحركة. ما كان في رأسي لحظتها إلا دوَّاماتُ اللون الأسود، تدور بصحبة أصداءٍ تتصاعد كالصراخ من

مقابر عمود الصواري، القريبة، فتصل إلى سقف السماء المعتمة.. لا أدري متى خفتت الأصواتُ الزاعقة من مكبرات الصوت، فاستدام بالغرفة الطنينُ حينًا، ثم عمَّ الصمتُ. سألها أبي: فيه *إيه يا أمل يا بتي، إيه إلّ حصل؟ مين عمل فيكِ كده؟* وظل يسألها حتى حكتْ ما جرى، بكلماتٍ مبهمات. وقد حكت لي في الشهور التالية مزيدًا من التفاصيل، فألقت في باطني بذور الروع والرعب وجوائم الكوابيس التي ظلت تزورني زمنًا.

لما نزلتْ «أمل» من فوق السطح لتغيير الثوب، أرادتْ أن تستحم بسرعة لتُذهب عنها العَرَق، وخرجتْ من الحمام عاريةً لظنها أنها بالشقة وحدها. والباب مغلق. لكنها وجدت «جعفر الفران» واقفًا بوسط الغرفة وبيده الفستان «السواريه» فلما فوجئتْ به ارتعبت وهرعتْ مسرعةً إلى الحمام واستترتْ خلف بابه. قال لها: *تعالي يا بتّ، عايزك في موضوع!* فردَّتْ: *بتّ لما تبتّك، هات هدومي..* ضحك بطريقة المحشِّشين السكرانين وهو يقول: خلاص، خُدي *يا شعنونة..* ومَدَّ لها فستانها فمدت يدها من خلف الباب لتأخذه وهي تقول: *يلّا غور في داهية من هنا.*

بسرعة، أمسك كَفَّها بيدٍ وبالأخرى دفع الباب، فصرخت، فكمَّمها وهو يسحبها نحو السرير. انفلتتْ منه، فلاحقها حتى لحق بها في الصالة أمام الحمام، وهناك دافعته ودفعته عنها فلم يندفع، أطبق عليها فتملَّصت حتى انزلقتْ قدماها الحافيتان، وكان وقوعها موجعًا. خلع عنه الجلباب فاستقوتْ وقامتْ لتستبق الباب، فدفعها بقوة نحو «الحناية» وجثم فوقها. شتمته صارخةً، وحاولت أن تضربه بشيء فما وجدت ما يُجدي. كَمَّم فمها لتكف عن الصراخ، فاختنقتْ، ولما

سنحت لها فرصةٌ عضتْ كَفَّه، فلكمها بكفّه الأخرى فدار رأسها وانفركت شفتاها بين أسنانها وقبضته. وسال الدم الأول. تزحَّف بها على الأرض وهو يلعق بلسانه كالمسعور، ما سال من الدم حول فمها، فاختنقت، ولما انتفضتْ تحته خفَّ عنها وسحبها من شعرها إلى حائط الحناية وهو جاثٍ على ركبته، وهي تصرخ بكل ما بقي فيها من قوى، فلا يسمعها بسبب الصخب أحدٌ.. انهارت قواها وأخذها ما يشبه الإغماء، فما استطاعت مقاومة ساقيه وأصابعه القوية الموسَّعة ما بين ساقيها. كان جاثمًا وثقيلًا. همدتْ تحته وانفرجتْ، فاخترمها ودكَّ حجر أساسها حتى فتَّته، فصارت مثل كتلةٍ من الطين اللازب أو العجين فاهتاج وصار مرعبًا، وما عاد شيءٌ يمنعها عنه أو يعوقه فانغرس فيها واندفق ماؤه فاختلط بدم عذريتها.

ليلتها، وهي تحكي بكلماتٍ ترتبك وتُربكني، كان أبي يردِّد بحسرة المهزومين لفظةً واحدة: يا ستَّار.. وكانت أمها ترتجف ولا تحوِّل نظرها المحدِّق في الفراغ، وكنتُ فزعةً مما سمعته وغير واعيةٍ تمامًا بمعناه. وكانت كتفاي ترتجفان. قال أبي الجالس على حرف السرير مثل منزلٍ قديم أسقطته الأمطار، إنه لمح «الخنزير» يخرج من باب البيت مسرعًا، فظن أنه نزل من عند صاحب الفرن.. سكت أبي لحظة، ثم سأل مستغربًا: *بس إزاي الحيوان ده فتح عليها باب الشقة، جاب المفتاح منين؟*

بانهزامٍ تامٍّ وروحٍ تتعذَّب، أجابته خالتي «توحة» بقولها: *أنا يا اخويا خلِّيت معاه المفتاح، علشان لو احتاج يدخل الحمام يقضي حاجته، كنت فاكراه بني آدم ابن الواطية!* وعندئذ عادت «أمل» للنشيج، وعاودتْ البكاء الحارق وهي تخبط على فخذيها وتقول بصوتٍ

كنشيج القابعين في قعر الجحيم: *يقضي حاجته ياَمّه! أهو قضاها ياست العرايس، قضاها وقضى عليَّ.*

انفجرتا باكيتين، فقال أبي بعدما استغفر الله إن البكاء لن يجدي الآن بشيء، وأضاف بشفةٍ ترتجف: *ربنا أمر بالستر، واحنا دلوقتِ مِش عايزين فضايح، ومِش لازم أي حد تاني غيرنا يعرف إلِّ حصل، قوموا دلوقتِ ناموا والصباح رباح، وخليكي يا نورا نايمة هنا جنب «أمل» لحد الصبح، وانت يا توحة روحي نامي في الأوضة التانية، ومفيش داعي «عزة» بالذات تعرف الموضوع ده. لا هيَّ، ولا أي حدّ تاني. رحمتك يارب.*

* * *

رحمتك يارب!

* * *

بعدما صعد أبي إلى شقتنا وخرجتْ خالتي «توحة» من الغرفة، جلستُ حائرةً، شاردةً. لم يكن يشغلني إلا سؤالٌ وحيد يطنُّ برأسي، ولا أجد له إجابة: حين وقعت الواقعةُ، أين كان الله الذي يذكره أبي كثيرًا، وبقيةُ الناس؟ مع مرور الأيام والعبور بالمآسي، تفرَّعتْ عن ذلك أسئلةٌ أخرى كثيرةٌ، لا توجد لها هي الأخرى إجابات.

لم أنم طيلة الوقت الباقي من تلك الليلة، ولم تكف «أمل» عن الارتجاف والتهريف بكلماتٍ مبهمات.. وفي اليوم التالي انتشر بين الجيران أن «جعفر» سرق المائتي جنيه التي تركها معه «عم فوزي» صاحب الفرن، لتسليمها لمورِّد الدقيق. فعل ما فعله، وهرب، فلم

يره أحدٌ من بعد ذاك اليوم.. لماذا أستعيدُ الآن هذه الفجائع القديمة والمواجع! لابد أن الإرهاق هو السبب، فأنا لم أنم منذ منتصف ليلة الأمس، والساعة الآن تقترب من التاسعة مساءً. دعوت «نور» إلى النوم، فتمنَّعت واحتجَّت عليَّ بالحُجَّة التي أسوقها كل ليلة:

ـ يا ماما الوقت بدري، وكمان أنا جعانة.

ـ جعانة، ولا يعني عايزة تشغليني وخلاص. طيب أجيب لك جبنة تُركي وخيار؟

ـ لا يا ماما، أنا نفسي في رزّ بلبن.

هي تراوغني بمكرٍ طفوليٍّ لتطيل فترة جلوسها أمام التلفزيون، وأنا ما عدتُ قادرةً على مقاومة النعاس، وسيحتاج ما طلبته وقتًا يزيد عن ساعة. ولكن هناك حل. وضعت على النار بعضًا من الأرز الأبيض المطبوخ يوم أمس، وسكبتُ عليه بعضًا من كيس اللبن وأكثرت السُّكر، ورحتُ أقلِّب ذلك فوق نارٍ هادئةٍ حتى تشابه ما فعلته، مع ما طلبته نور.. أكلته راضيةً، فأخذتها وهي مستسلمة إلى السرير.

ما كادت حبيبة قلبي ترتاح فوق مهاد الأحلام، حتى عَصَبتُ شعري وأزحتُ للوراء رأسي متهيّأةً لنومٍ طويلٍ عميق. نمتُ. لكن نومي لم يكن طويلًا ولا عميقًا، لأن السؤالين ظلّا يؤرجحان روحي فوق أشواك الشكوك: هل تزوَّج فعلًا غيري؟ وهل سأراه بعد شهر، أو شهرين؟ كأنني الآن في منطقة وسطى ما بين النوم والانتباه، فالمشاهد والأحلامُ تمرُّ بي وتتوالى عليَّ كأنني أنظر من نافذة القطار التوربيني. ألمحني لحظةً وقد ارتددتُ طفلةً ترتدي الزيَّ المدرسي وتريد أن

تنام، ولحظةً أجري وسط البنات في فناء مدرسة «راغب» الابتدائية، وأجلس على الصخور إلى جوار أبي وهو يصطاد بصنارةٍ طويلة، من شاطئ البحر الوعر الممتد خلف قلعة قايت باي. ثم أراني أصعد سلم طائرة ظننتها متجهةً إلى بلاد الخليج، لكنها حطّت في صحراء جليدية ليس فيها إلا اللون الأبيض والصقيع وخيمة خاوية. أشعر ببردٍ شديد، وأصواتٌ تصلني أصداؤها من بعيدٍ مع صرير الريح. أين ذهب الناس؟ أسيرُ وحدي في شارع العطارين ظهرًا، كأن أبي كان معي قبل قليل، وتركني. أنادي عليه فلا أسمعني، وأنادي على «ياسمينة» فتبتسم لي من بعيد.. أنا أحلم، أم أن ما أراه هو الحقيقةُ وما سواه الأحلام؟

انتبهتُ فوجدتُ قلبي يخفق بشدة، وغبتُ مجددًا فرأيتُ أشجار «المنتزه» تتمايل وهي مكللةٌ بأزهار ملونة. أشعر بالعطش. أشرب الشاي النوبي فلا أجد له طعمًا، هذا ليس شايًا وليس حليبًا. هذه محطة القطار، وتلك قططٌ تمُوء على أرصفة المحطة، وجعفر الفران يجري عاريًا ليهرب من طيورٍ تطارده. أنا لستُ هنا، ولست هناك. أين نور؟ ياسمينة تهمس لي بأن ابنتي ذهبت إلى المدرسة، وسوف تعود بعد أيام. لا. نور لن تبتعد عني، ولن يأخذها أحد مني.

أفقتُ من نومي فوجدتني مستلقيةً مثل غريقٍ أنقذوه من دوَّاماتٍ سريعةٍ كالتروس المتداخلة. أردتُ أن أنهض أو أزيح عني اللحاف فما اقتدرتُ، وأردتُ معاودة النعاس فما استطعت. يمنعني من النوم عطشي، وجفافُ روحي. هذا اللحافُ الساخن ثقيلُ الوطأة، وغيرُ محتمل، يجب أن أنهض الآن وأهدأ قليلًا قبل معاودة النوم. لماذا

لم أحلم به؟ ولماذا أعجزُ عن اليقظة التامة وعن الغرق في الغياب؟ ولماذا لم أولد في حي «لوران» لأبٍ مهندس؟ قومي يا نورا عن سريرك هذا، فالنومُ الآن محال.

* * *

في الصالة اندهشتُ حين رأيتُ عقارب الساعة الحائطية لم تتخطَّ بعدُ العاشرة وأربعين دقيقة. كنت أظنُّ أن الفجر اقترب. كوب الماء البارد أطفأ شيئًا من سخونة باطني، لكنني ما زلتُ أشعر بالحرِّ الخانق وأجد تحت ملابسي عرقًا كثيرًا. لو خلعتُ عني الرداء الشتوي فسوف يصيبني البرد والزكام، فالأفضل أن أجلس حينًا في الصالة حتى يهدأ هذا اللهب المتَّقد بداخلي، وسوف أستدعي من ذاكرتي أمورًا مبهجة كي تُريحني حينًا وتُسلمني برفقٍ إلى نومةٍ هادئة.

لا أتذكَّرُ أي شيء.. جلست ساكنةً وسط ظلام الصالة، أتأملُ خيط الضوء الضعيف الآتي على جناح الخجل من لمبة «السهَّارة» المجاورة لسريرنا. رأسي فارغٌ تمامًا. من دون مقدماتٍ جاءتني فكرةٌ مفاجئة، فقمتُ من فوري وأخذتُ التليفون إلى الغرفة الأخرى، واتصلت بصاحبتي التي لم أرها منذ سنوات: *ألو، أيوه يا طنط، أنا نورا زميلة ياسمينة، حضرتك عاملة إيه؟ أنا آسفة لو كنت اتصلت في وقت متأخر، آسفة جدًا.*

جاءني صوت والدة «ياسمينة» مرتاحًا، مثلما عهدته أيام كنتُ أتصل بهم كثيرًا، وأزورهم أحيانًا. قالت إن الوقت غير متأخر فلا داعي للأسف، وإنها سألتْ عني كثيرًا فكانت «ياسمينة» تخبرها بأن تلفوني لا يرد. قلتُ لها إن بيتي لم يكن فيه أحد كي يرد على التليفون،

لأنني تزوَّجت، لكن الزيجة كانت غير موفَّقة فعدتُ إلى بيتي مع ابنتي.. واستني بألفاظٍ أنيقة، تليق بمهندسةٍ فضَّلت البقاء بالمنزل لتربية ابنتها الوحيدة، فلما تزوَّجت ابنتها لم يعد لديها ما يشغلها:

ـ ألف مبروك يا طنط، اتجوِّزتْ إمتى ياسمينة؟

ـ من سنة ونصف. بسّ ساكنة هي وعريسها بعيد عني، في فيلا كبيرة ناحية الهرم، أصل جوزها من أهل كايرو. هه هه.

ـ ألف مبروك يا طنط، معلش جَتْ متأخرة.

ـ ولا يهمك يا بتي. المهم بقى إنهم غايظنّي على الآخر، علشان مُش عايزين يخلِّفوا دلوقت، بيقولوا لما يكملوا ثلاث سنين من غير مسئولية. عايزين يتبسطوا الأول مع بعضهم.

ـ وماله يا طنط، سيبيهم براحتهم.

ـ طيب. على فكرة «سمسمة» هتفرح جدًّا لما تعرف إنك اتصلتِ، أنا هاقول لها بكرة الصبح، أصل هُمَّ الليلة دي سهرانين بره البيت. وإنتِ يا نورا إوعي تقطعي تاني، كلميني دايمًا، وابقي تعالي زوريني لما يكون عندك وقت. أنا على طول قاعدة في البيت لوحدي.

ـ حاضر ياطنط.

بعدما انتهت المكالمة، تخافتتْ دقات قلبي تدريجيًّا وأحاط بي السكونُ.. جلستُ وحيدةً في العتمة، وليس في رأسي إلا سؤال: متى ينقضي ليلي ويطلُّ الصباح؟



أمـل

تأخرنا عن موعد نزولنا المعتاد للإفطار، لأن «ياسمينة» اتصلت صباحًا ففرحتُ حتى نسيتُ الوقت مع جريان حديثنا حلو المذاق، المريح للأرواح، أحسستُ بأننا لم نفترق لسنوات. لولا إلحاحُ «نور» ونداءاتُ خالتي «توحة» الصاعدةُ إلينا من قاع بئر السلم مُنغَّمةً ممطوطةَ الآخِر، لاستطالت المكالمة بيننا وقتًا أطول من تلك الساعة المبهجة الجميلة.

الوقتُ يهرب من أمام الجمال، فلا نشعر بمروره، ويتطاول وقوفه أمام القبح حتى نحس بأنه لا يريد أن يمرّ. الجمالُ والزمان عدوَّان يتباغضان. على عجل أدفأتُ الفول المطبوخ، وهبطت الدرج بالطعام وخلفي «نور» بخطواتها الحذرة، وحين دخلنا الشقة الأرضية وجدنا لدى بابها المفتوح، حضن «توحة» وسخطها المتسامح:

ـ فيه إيه يا عرايس، الساعة بقت حداشر. طبعًا، في الشتا يحلوّ نوم الهوانم.

ـ لا والله يا خالتو، أنا صاحية من بدري. بسّ صاحبتي «ياسمينة»

اتصلت والكلام خدنا. رجّعتني للأيام الحلوة. آه يا خالتو، أنا حاسّة إني مبسوطة قوي.

ـ إلهي تتبسطي على طول يا نورا يا بنت «يُسرية».

افترشنا الأرض حول «الطبلية» مقبلين على الطعام بشهية شتوية ورضا، حتى تململت «نور» لإظهار رغبتها في مشاهدة التليفزيون، وبالطبع نالت ما ترغب فيه. الشاشة هنا أكبر من التي بشقة أبي، وألوانها أشد سطوعًا وألقًا.

أظنني أردتُ الإبقاء على أجواء البهجة التي أشاعتها في نفسي المكالمة الصباحية، فحكيتُ بعضًا من أخبار «ياسمينة» وشجّعني على ذلك أن خالتي «توحة» تُحسن الإنصات وتحب الحكايات: *ياسمينة جميلة جدًّا يا خالتو، وروحها حلوة، بحس كده إنها أختي زي «أمل» بالضبط. عايشة دلوقت في فيلا كبيرة في مصر، بس بتحنّ لإسكندرية وللبحر. جوزها رجل أعمال، وأكبر منها بسبع سنين، بس واضح إنه غني وبيحب الحياة. كل يوم عندها مناسبة أو عزومة أو حفلة، لحد ما زهقت يا عيني من الحفلات. حماها راجل معروف وبيطلع كتير في التلفزيون، بتقول إن الريس بيحبه وإن معارفه كلهم من الناس الكبار، وإنه كويس معاها وطيّب قوي. ربنا يسعدها. نفسها ترجع تعيش تاني في اسكندرية، بس جوزها كل شغله هناك في مصر. أمها راحت زارتهم مرتين في أول الجواز، وهُمَّ كل فين وفين يزوروها ويرجعوا في نفس اليوم، مع إن عندهم هنا شقة كبيرة في الإبراهيمية، على شارع أبو قير، ومقفولة على طول. بتقول يا ريتني كنت اتجوزت في اسكندرية، علشان أسكن جنب ماما.*

ـ يا نورا، كل واحدة بتاخد نصيبها، يلّا، هاقوم اعمل الشاي.

ـ خليكي إنتِ يا خالتو، أنا هاعمله بسرعة.

.. لم تأتِ الأيامُ التالية بأي جديدٍ، ولا الشهورُ، ولولا مكالمات «ياسمينة» ومداعبات «نور» ولذة جلسات الإفطار، لصارت مرارة أوقاتي البطيئة مما لا يحتمل. والتطريز أمسى مُملًا. «أمل» لم تتصل بي ولا بأمها، إلا بعدما مرَّ اثنان وعشرون يومًا على المكالمة التي قلبت كياني، وليتها حين اتصلت قالت جديدًا. فقد أكدت فقط أنها هي وصاحبها الجديد «فهد» لم يهملا موضوعي، وسوف تخبرني بما سيعرفانه فور رجوع صديق «فهد» من إجازته السنوية التي يقضيها ببلده. الجزائر. وسوف يكون مفيدًا! فهو يعمل في المحطة التليفزيونية حارسًا، ويمكنه الحصول على الأخبار من العاملين.. وبعدها بيومين اتصلت مجددًا لتخبرني بأنها وجدت عملًا كمعلّمة لغة عربية، وبأنها ما عادت تطيق ضيق الحياة مع زوجها «حسن» الذي وصفته بنبرة امتعاض بأنه: *عبيط كده، ومالوش أي لزمة في الوجود.*

أمست المكالمات الهاتفية هي صلتي الوحيدة بالعالم، حتى أحوال الجيران وقصص الزقاق والأخبار والبرامج التلفزيونية، عزفتُ عن متابعتها. ومع دوام انفرادي ومرور الأوقات الصامتة شعرتُ شيئًا فشيئًا بأن غصنًا أخضر كان ينمو بداخلي ويكادُ يورق ويُزهر، يزوي. في قلب الشتاء يطول الليل ويؤرِّقني الترقُّب. يملؤني المللُ المُرُّ، فينحدر بي نحو جحور الحيرة.. في لحظات صمتي، تراودني الأفكار المتفرقات التي تأخذني إلى دوامات أسئلةٍ لا إجابة عليها، تقودني لأسئلةٍ أخرى لا إجابة عليها. حياة

الناس إجاباتٌ واستجاباتٌ وتجاوبٌ، أما حياتي السيَّالة فهي أسئلةٌ وسيلانٌ مستمرٌ لأيامي. أراها تتبخر أمامي ويطير بها الهواء، كأنني خيوط بخور، أو رذاذ بحري يتطاير في يومٍ عاصفٍ فوق شاطئٍ صخري. أنا خواءٌ هائمٌ في هواء. باطني فارغٌ إلا من ذكرياتٍ كانت سابقًا تؤنسني، فصارت اليوم تستبد بي وتحرقني، لأن زمانها لن يعود. لن يعود ما فات. وكيف يعود وأنا نفسي ما عدت مثلما كنتُ، وكل المعتاد قديمًا ما عاد الآن معتادًا. حتى العفريت الذي يتملَّك النساء كل شهر أيامًا معدودات، ويعربد بالبواطن فيسيِّل منهن الدم، توحَّش. صارت آلامه الشهرية أشد وأنكى. كنت قبل سنوات أحتمله راضية حتى تنقضي أيامه وأتطهَّر منه، أما الآن فقد صار نخره لعظامي أعظم وجعًا، وتعذيبه لروحي أعمق إيلامًا.. يضايقني قولهم إنني أكون خلال دورتي القمرية «نجسةً» وعليَّ الانتظار مثل كل النساء انقضاء تلك الأيام، حتى أتطهَّر. هل أتطهَّر مني! وما معنى قولهم إن الرجال دومًا طاهرون، ولا يتنجَّسون إلا بملامسة حصن النساء الحصين! فمن لامس من هؤلاء الطاهرين أُسَّ امرأةٍ منا أو ذاق عُسيلتها، وجب عليه الغُسل ليتطهر بالاستحمام مما اقترف. فإن كانت امرأته حائضًا وجب عليه أصلًا اجتنابها، وتركها وحدها فريسةً سهلة للجنِّ الدافع للجنون. رؤوفٌ. رحيمٌ. ودود! ما معنى هذه الأسماء آه، عقلي يكاد كالبركان ينفجر.

قبل عيد الأم بيوم واحد، اتصلت بي «أمل» صبيحة يوم الأربعاء الموافق للعشرين من مارس، لتخبرني بأنها قابلت الرجل الجزائري الذي يعمل بالأمن، وجلسا بالأمس ساعتين مع صديقهما «فهد» ووعدها بأن يأتيها بالخبر اليقين من شئون الموظفين، خلال أيام.

أسمته «أبو راسين» لأن في رأسه ووجهه استطالة، وراحت تحكي متفاحشةً عن ملابسه الريفية الدالة على أصله الصحراوي الفقير، وعن بروز أسنان فكِّه الأعلى مما يجعله شبيهًا بجارتنا «نوسة الهبلة»، وعن تلفِّته نحو اللبنانيات اللواتي كن يجلسن بالقرب منهم مما يدل على أنه بحسب تعبيرها: عمره *ما دخل دُنيا ولا شاف فونيا*.. وغير ذلك من كلامها الذي لا قيمة له، وفي نهاية المكالمة وبعد عدة عباراتٍ جوفاء مُتلعثمة، أفصحت: *المشكلة يا نورا، إني مسافرة كام يوم مع الناس إلِّ باشتغل عندهم.*

ـ ناس مين يا أمل، إنتِ قلتِ بتشتغلي في مدرسة.

ـ لأ، أنا عندهم في البيت! باشتغل مُدرِّسة خصوصي لبنتهم، وباخد بالي منها طول النهار وكده يعني. البنت عندها خمس سنين، وشكلها وِحش أوي يا نورا.

ـ طيب يا حبيبتي، ربنا يوفقك.

ـ هاعمل إيه بس يا نورا، أهو أي حاجة تجيب فلوس وخلاص. وأحسن برضه من الليمون المخلل. المهم، همَّ رايحين يتفسحوا أسبوعين في دبي، وهيخدوني معاهم. أصل الراجل أبو البنت شكله كده عينه مني، ومراته عاملة كده زي الزكيبة، معذور برضه.

ـ والنبي بلاش الكلام ده يا أمل، وعلشان خاطري اتصلي بخالتي توحة.

ـ يووه، هيَّ يعني أمي دي هتفضل تزنّ كده على طول. ما

هي كل شهر بيوصلها مني مية وخمسين دولار، عايزة إيه مني تاني؟

ـ معلِش يا أمل، كلميها برضه. خليكي حلوة يا بت، دا بكره عيد الأم.

ـ ماشي، ماشي.

في الصباح التالي نزلتُ مع «نور» للإفطار مع خالتي توحة، ومعنا هدايانا إليها: عباءةٌ سوداء ناعمةٌ كالحرير ذيلُها وجيبُ صدرها وأكمامها مزركشة الحواف، ومعها غطاءُ الرأس الذي صرنا نسميه «الطرحة» لونه رماديٌّ قاتمٌ يليق بالأمهات الحزانى، ومعهما شنطة يد من الجلد الصناعي المسمى «فيرنيه» مُحلاة بسلسلة من معدنٍ فضيٍّ لامع.. فرحتْ جدًّا بنا وبالهدايا، ثم غمرتها موجة أسى فبكتْ بانكسارٍ، ولما استفهمتُ منها عرفتُ أن «أمل» اتصلت بها قبل ساعةٍ وتحدَّثت معها بالجفاء المعتاد، وتبرَّمتْ، ثم أعربتْ عن رغبتها في الطلاق من «حسن» حين يأتيان بعد ثلاثة شهور، لقضاء إجازة الصيف القادم.

مسكينة «أمل». لم تستطع مسامحة أمها على تساهُلها السابق مع المغتصب القديم، فالتسامح يحتاج قوة تفوق أثر الألم. وهي ضعيفة كمعظم النساء، ومحبطةٌ. فقد كانت تظنُّ في زمن المراهقة أنها إذا كبرتْ، فسوف تنسى ما لحق بها من انتهاكٍ في زمن الابتداء. لكنها كبرت ولم تنس شيئًا. وكانت تظنُّ أنها إذا تزوَّجت وأنجبت فسوف تبرأ من ذكرياتها، لكنها تزوَّجت «حسن» فلم تنجب، ولم تنس. واستْ نفسها بأنها ستهجر المآسي إذا سافرت إلى بلدٍ نفطيٍّ

يُسيل المال بين أصابعها، فتنسى، لكنها كانت واهمة.. لما ذهبت إلى ليبيا مع زوجها النحيل «حسن» لاحقها الملل، ولما رحلت معه إلى الخليج، لم تجد لنفسها عملًا مناسبًا يضاعف الأجر الهزيل الذي يحصل عليه زوجها، فابتكرت فكرة جريئة: أن تُعدَّ بمنزلها الليمون المُعصفر الذي يحبه المُعارون والوافدون، فتبيعه لهم مباشرةً، أو تعطيه لدكاكين البقالة الصغيرة لبيعه. بعد شهور كادت تجارتها تروج وتُجري المال بين يديها، وفي غمرة فرحتها بذلك جاءها الشهر الماضي تحذيرٌ صارمٌ بضرورة التوقف عن هذا النشاط غير المرخَّص به، وتهديدٌ بالطرد من الجنة الصحراوية البائسة إذا استمرت. فتوقفت. وها هي الآن تعمل جليسة أطفال في بيت رجلٍ يشتهي جسمها ويتمنى نوالها خلسة، فلا تردعه، لعلها بعد حينٍ تجد لنفسها مخرجًا. هي طموحٌ، شحيحة الحظ، وتعيسة الحال. كالغالبية من نساء بلادنا المنكوبة بنا، وبأفكارنا.

الغريب في «أمل» المسكينة، أنها ظلت بعد واقعة اجتياحها الغشوم بشهور، تحكي لي كثيرًا عن تفاصيل اغتصابها. ما أحببتُ تكرارها الحكاية، لكنني كنتُ أتوهمُ أن البوح يريحها، فأسمعها وهي تضيف في كل مرةٍ تفصيلةً جديدة لم تكن قد ذكرتها من قبل، أو ذكرتها سابقًا لكنها تحكيها بمفردات أخرى ونبرة تختلف. ثم صارت بعدما أكملت كل التفاصيل، بكل الكلمات الممكنة، تكرِّر الحكاية كأنها حيية أَسْرها أو مستمتعة باستعادتها. في عامنا الجامعي الأول، قلت لها في ليلة هادئة إنني قلقة من شغفها بالإشارة إلى مأساتها كلما سنحت الفرصة، فقالت إنها تُعيد ذكرها معي، ومع نفسها حين تنفرد، لأنها كانت تريد أن تفهم. سألتها مستنكرةً:

ـ تفهمي إيه يا أمل، الإجرام بتاع جعفر الفران؟

ـ لأ، عايزة أفهم قِوّة الرجّالة.

ـ قِوَّة إيه بس يا أمولة! السِّت أقوى من الراجل ميت مرة، بس هيّه مضطرة ساعات تلعب دور الضعيفة معاه، علشان الأمور تمشي.

ـ وعلشان الشعور بالضعف حلو، وله لذة كده.

ـ ده كلام مجانين يا أمل.

وفي مرةٍ تاليةٍ قالت لي إن ما جرى معها، يحدث كثيرًا مع كثيرٍ من البنات الصغيرات قليلات الحيلة، فيستسلمن له مستمتعاتٍ. ومع الزوجات اللواتي يُضربنَ ثم يُسقنَ إلى السرير. استغربتُ كلامها.. وفي السنة الأخيرة من دراستي الجامعية، انقطعت «أمل» عن دراستها بقسم اللغة العربية بكلية التربية، وعملت بائعة ملابس في المحل الذي بمنتصف شارع صفية زغلول. وأيامها أخبرتني في هدأةٍ مسائية، بأنها تترك نفسها لصاحب المحل في المخزن الملحق وتستسلم لعبثه بكل أنحائها، وتظهر له الاستمتاع كي يكافئها. راعني كلامها. أخبرتها بأنها صارت فريسة لمأساتها القديمة، ويجب عليها أن تواجه نفسها، وتقاوم. استخفَّت بكلامي. وقلت لها إن حالتها هذه وصفها «إميل دوركايم» في دراسته عن الانتحار وأسماها «اللامعيارية» أو حالة فقدان المعايير، وهذا أمر خطير. فصدمتني بنظرتها المتحدية، وأفزعتني بقولها إنها تلتذ بشعورها أنها رخيصة، وفريسة ممكنة المنال لمن يجرؤ على الاقتحام. والمقاومة المؤقتة عند الابتداء، تزيد الرجل تهيُّجًا واستنفارًا، ولكن ليس بوسع النساء في خاتمة المطاف إلا الاستسلام والانسحاق والاستمتاع.

ـ إيه الكلام ده يا أمل، انتِ اتجننتي يا بتّ!

ـ هيّه إلّ تقول الحقيقة، تبقى مجنونة.

ـ حقيقة إيه بس، ده كده استلاب.

ـ نعم ياختي! استلاب دي يعني إيه؟ يا نورا بطّلي الكلام الكبير ده، أنا مش ناقصة همّ والنبي.

ـ نبي إيه بقى. وبعدين كده حرام، وربنا قال...

ـ يووه يا نورا، انتِ هاتعملي فيها واعظ، بلاش أحسن نتكلم في الحاجات دي خالص.

من بعد ذاك اليوم، شاب شيءٌ من الفتور صداقة العمر، وصرنا رويدًا كالمعارف والجيران لا الصديقات، لأنني لم أعد أستسيغ كلامها أو أقدر على قبول ما صارت إليه من أفعال وأحوال. استسخفتُ ما انتهتْ إليه، لكنني بقيتُ على صلةٍ بها واجتهدت في اختلاق العذر لها بقدر المستطاع، وربما اقترابي أيامها من «ياسمينة» جعلني أبتعد بعض الشيء عن «أمل».. ثم انشغلت عنها وعن الدنيا بالمرح في براح الحب، حينًا، وبالخوض في خداع الآمال. وحين صُدمتُ، عدتُ إلى كهفي كحيوانٍ جريح فوجدتني أقترب مجددًا من «أمل» خصوصًا بعدما ابتعدتُ عن «ياسمينة» أو باعدت بيننا ظروفي وصروف زماني الشحيح.

* * *

بعد شهورٍ من المكالمات التليفونية شبه اليومية، جاءت «ياسمينة» إلى الإسكندرية لتمضية أيامٍ بين أسرتها، إلى حين عودة زوجها من

رحلة عمل أوربية. ويوم وصولها فوجئت بطلبها زيارتي في بيتي! طبعًا استغربت الطلب، لكنني رحبتُ به ولم أسألها عن سببه الذي عرفتُ في اليوم التالي أنه بسيط. فقد أرادت أن تبوح لي ببعض الأمور بعيدًا عن سمع أمها، ولم تجد من المناسب أن نلتقي بمكانٍ عام، خشية أن تحكي فتبكي في العلن.. طلبتْ عنواني فقلت لها إنني سأقابلها في العاشرة صباحًا أمام بوابة مسجد «القومندان» المفتوح على ميدان الساعة بأول حي كرموز، ومن هناك سوف نمشي خُطى قليلة فنصل إلى بيتي، لأن سائقها لن يستطيع الدخول بالسيارة إلى حدِّ البيت، بسبب ازدحام السوق.

كانت تلك هي المرة الأولى، والأخيرة، التي تزورني فيها «ياسمينة» بمنزلي. وبطبيعة الحال ارتبكتُ أول الأمر، لأنني أعرف أنها لا تعرف الفارق بين حيِّ «كرموز» الشعبي، جدًّا، ومنطقة «لوران» الراقية التي تسكنها أسرتها. لكنني ما توقعت أن تكون صدمتها شديدة على هذا النحو. في الليلة التي أسفر صباحها عن يوم الاثنين، ألطف أيام الأسبوع، مسحتُ أرضية الشقة وأضفتُ عليها بعض الرونق بزهورٍ صناعيةٍ مبهجة الألوان، واستعرت من خالتي «توحة» بعض المفارش، وعلقت على شباك الصالة الستارة التي كانت مطوية داخل كيسٍ مدسوسٍ تحت السرير، وتفنَّنتُ في عمل أطباق الأرز المطبوخ بالحليب، ومزجتُ معه بعد طهيه الزبيبَ وملعقةً من ماء الورد. وفي الصباح الباكر صنعت «كيكة» البرتقال، وجهَّزت شرائح من اللحم المتبَّل بطريقتي الخاصة، كي أقليه في الزُّبد أثناء عمل «مكرونة» الغداء. ياسمينة تسمي المكرونة «باستا».

جاءت في الموعد فوجدتني بانتظارها. حبيبتي. شعرُها المصفرُّ

منسابٌ إلى كتفيها مثلما كان دومًا، وزاد وزنها قليلًا فصارت أجمل وأقرب لهيئة النساء من سمت البنات. عند التأنق والوقوع في الحب، تكون للنساء الناضجات فتنةٌ ساحرةٌ وللبنات سحرٌ فاتن، وتصير للعيون لمعة آسرةٌ كتلك التي رأيتها حين التقيتُ «ياسمينة». أتراها تعيش قصة حب! كنت قلقة من أن ترتدي ما لا يناسب المعتاد في الحي، وكان من حسن حظي أنها ارتدت سُترةً فضفاضة فوق بنطلون الجينز الذي كاد ينفزر، فسترت أعلاه. بدت كالأجنبيات.

أدهشها زحام النسوة والبائعين في ميدان الساعة، فأخذت تتلفت كالأطفال بعينيها الواسعتين الصافيتين، البريئتين، وفي مدخل الزقاق أمسكتْ بذراعي كأنها تحتمي بي من الصخب والازدحام، وتنهدت بفرحةٍ وحيرةٍ لحظة دخولنا من باب البيت.. أخذت «نور» من عند خالتي «توحة» الجالسة بجوارها كالحارس، مثلما أوصيتها قبل خروجي، وصعدنا معًا على الدرج المثير بداخلي للخجل والحرج. فور دخولنا شقتي أعطت «نور» هديتين يُفرحان أي طفلة. دبدوب باندا، وعلبة شوكولاتة مستوردة. فجعلتها من فرط الفرحة خائفة، لدرجة أنها توجَّستْ فاندستْ تحت إبطي ولم تمدّ يدها لأخذ الهديتين حتى ترفَّقت في الكلام معها قائلة:

- خديهم يا نور. دي طنط «ياسمينة» إلِّ كنتِ بتتكلمي معاها في التليفون، وقولي لها شكرًا يا طنط.

- لا يا نور، يا صغيُّور. لو سمحتِ بلاش طنط دي، اسمي «ياسمينة» وبس. وبعدين إيه عينيكِ الحلوة دي، وشعرك الجميل ده. مين إلِّ جاب لك الحلاوة دي كلها؟

ـ ماما.

ـ يا حبيبة قلبي، إنتِ أحلى من العسل.

انشغلت «نور» بما أتاها، فـنحتُ الفرصة لحديثنا المطول بهدوء. وقبل الكلام أهدتني «ياسمينة» مجموعة كتبٍ لامعةِ الأغلفة، جديدة وغير مستعملة، ثم طلبتْ أن تطل على الشارع من شباك الصالة! أفسحت لها متكأ الكنبة وتجاورنا كتفًا بكتف مثل الفتيات الصغيرات الشغوفات بالنوافذ. ضحكتُ حين سألتني إن كان هذا الازدحام بسبب شهور الصيف، وأفهمتها أن الأحياء الداخلية لا تتأثر بصيفٍ أو شتاء، لأن المصطافين لا يسكنونها.

ـ يعني إيه يا نونو أحياء داخلية؟

ـ يعني الأحياء الشعبية زي كرموز ومحرم بيه، وغيط العنب والغيط الصعيدي والحَضَرة.

ـ على فكرة، أنا مفروض أشوف الأماكن دي كلها. بس الناس دول يا نونو، شكلهم غلبانين جدًّا.

ـ لا مُش غلبانين ولا حاجة، همَّ بس فُقرا، وحياتهم صعبة شوية.

ـ وليه كل الستات هنا متحجِّبة كده؟

ـ عايزين يدخلوا الجنة. المهم إنتِ مالك يا ياسمينة؟ أنا حاسة إنك حيرانة وصوتك في التليفون الأيام إلِّ فاتت مكنش عاجبني، بس دلوقتِ شايفاكِ زي القمر، وزي ما تكوني في حالة حب.

ـ حب إيه بس، دا أنا حالتي حالة!

ونحن نحتسي ببطء الشاي المطيَّب بالقرنفل حكتْ، فكان كلامها الرقيق مشوَّشًا ولا تسلسل له، لكنه يدلُّ إجمالًا على أنها غير مستريحة لحياتها الحالية. فهي تتعامل مع أناسٍ لا يشبهونها، وكانت في بداية زواجها مأخوذة بحياة الحفلات والمرح الدائم والأسفار السريعة، والإقامة أحيانًا بالشاليه الذي يملكه زوجها بناحيةٍ ساحرةٍ اسمها الجونة. لكنها مع التكرار ملَّتْ، وتململتْ لما اتضح لها أنها لا تشبه أصدقاء زوجها وأهله والأقارب والأبعدين، فهي لا تتعاطى المسكرات والمخدرات مثلهم، ولا تفرط في التعرِّي مثل معظم نسائهم. وحزَّ الألم نفسها حين بلغها من بعضهن عن بعضهن، أنهن صرن ينظرن إليها على أنها قروية، وخصوصًا لأنها إسكندرانية!

استغربتُ كلامها وطمأنتها بأنها سوف تندمج معهم مع الأيام، لكنها بدت غير مقتنعة بما أقول. ولما رأت في عيني علامات الاستغراب، قصَّتْ عليَّ بعض القصص لأفهم طبيعة المحيطين بها هناك: أخت زوجها تزوَّجت خمس زيجات فاشلة، منها مرة وقع الطلاق صباح ليلة الدخلة لأن زوجها طلب منها دخول المطبخ للإشراف على الخادمتين اللتين تعدان لهما الإفطار، فرأتْ في طلبه إهانةً لها ودليلًا على أنه يريد مشرفةً على الخدم، ولا زوجة! فهجرتْ بيته ولم تعد إليه قط. وطُلقت من زوجها الرابع لرفضه سفرها عدة أيام مع صديق لها إلى رحلة «سفاري» بوسط إفريقيا، فرأت أنه «رجعي» وأصرَّت على السفر وسافرت، وبعد عودتها عادت إلى زوجها بعد إصلاح الحال بينهما، لكنها لم تستطع البقاء معه أكثر من شهرين، لأنها لم تقدر على نسيان إساءته لها يوم اعترض على سفرها. أدهشني الكلام فسألتها

إن كانت متأكدة مما تحكيه، فقالت إنها وقائع معروفة عندهم وإنهم يتندَّرون بذكرها وهم يتضاحكون. قلت لها إن الزوجة لا تستطيع السفر بغير إذن زوجها، قانونًا! فقالت إن القوانين تنطبق فقط على الفقراء وعوام الناس، وأهل زوجها ومعارفهم أغنياء بشكل فاحش وشغوفون بالفواحش لأنها تشعرهم بلذة الحياة، وهم يقولون ذلك صراحة ومن دون خجل ويتباهون فيما بينهم بانفلاتهم من كل عقاب، ابتداءً بتوافه الأمور مثل مخالفة قواعد المرور وتجاوز السرعة على الطرق السريعة، وحتى التحايلات المكشوفة للحصول على الأراضي والتوكيلات والمناصب السياسية.. وسردت عليَّ مزيدًا من عجائب مجتمعها الجديد، ومن فضائحه التي لا يصح لي البوح بها.

أخذتها معي إلى المطبخ لنخرج من هذا الدوار الغريب على مسامعي، وعلى قلبها، لكنها كانت تريد أن تستكمل الكلام فتقول ما كانت تُحجم عن الإفصاح به تليفونيًّا لأنها تعتقد أن التليفونات موضوعة تحت المراقبة! أحسستُ بأنها تبالغ، لكنني عذرتها ولم أعقِّب، وتركتها تحكي على حريتها أثناء إعدادي طعام الغداء. وضعتُ شرائح اللحم في «الطاسة» التي ذابت بقلبها قطعة الزبد، وقلتُ لها مواسيةً إن عليها الابتعاد بقدر المستطاع عن هؤلاء، والانشغال فقط بزوجها. فقالت بأسى إنهم أقرب إلى زوجها منها، وهو يهتم بهم بأكثر من اهتمامه بها. كأنه تزوجها لاستكمال الشكل، وحياته وحياة المحيطين به ليس فيها إلا الشكل الذي بلا مضمون. فليس لديهم إلا السعي المحموم للثراء غير المحدود، واختطاف المتع التي بلا قيود: *يا نورا أنا باتعذِّب كل يوم وحاسة نفسي تايهة، أنا حتى الصلا بطلت أصلّيها.*

ـ وإنتِ يعني من إمتى كنتِ بتصلّي!

ـ لا والله يا نونو، قبل جوازي بفترة كنت مواظبة على الصلا، وكنت مستريحة خالص.

ـ خلاص يا «ياسمينة» ارجعي صلّي تاني.

ـ حاولت، مفيش فايدة. حسّيت إني باضحك على نفسي. قُوليلي يا «نونو»، هوَّ ربنا موجود فعلًا؟ ولو موجود يبقى إزاي سايب الناس دي عايشة كده! قُوليلي يا نورا، علشان أنا بقيت تعبانة من حياتي دي، وموجوعة.. موجوعة جدًّا.

بكت «ياسمينة» فانشغلتُ عن قلي اللحم حتى احترقت حوافه، فأطفأت النار وأخذتها إلى الحمام لتغسل دموعها عن وجهها. لما لمحتني «نور» صاحت: *يا ماما هوَّ الأكل خلص خلاص؟* فضحكت «ياسمينة» من سؤالها. هي مثلها طفلة. علا أذان العصر ونحن حول طعامنا المصفوفة أطباقُه على مائدة «الفورمايكا» وأثناء الأكل امتدحت ياسمينة طريقتي في الطهي، مرتين، ولما قمت بعمل الشاي جاءت خلفي وهمست بأنها ارتاحت للحديث معي، مستعملة عبارة قوية: *عارفة يا نونو، أنا كنت حاسة إني هانفجر من جوايا، وكنت عايزة أموت علشان استريّح*.

ـ سلامتك يا سُكَّرة، وبلاش تقولي الكلام الوحش ده.

ـ بس أنا لسه ما عرفتش هاعمل إيه؟

ـ طوِّلي بالك شوية. الناس مع الوقت بتتغيَّر.

ـ ما أنا خايفة أتغير وأبقى زَيّهم.. المهم، طمنيني عليكِ إنتِ، أنا خدت الوقت كله باتكلِّم عني، وما عرفتش أحوالك.

ـ أنا كويسة، مفيش أكتر من إلِّ حكيته ليكِ في التليفون.

لماذا ظننتُ حين رأيتُ «ياسمينة» في الصباح، أنها في حالة حب! ساعة الغروب نزلنا لنوصل «ياسمينة» إلى حيث ينتظرها السائق، قبالة باب المسجد. قبَّلتني مودِّعة مثلما تفعل الابنة عند وداع أمها، وتواعدنا على اللقاء في «لوران» بمنزلها يوم الجمعة. لم يتم اللقاء لأن زوجها عاد من سفره مساء يوم الخميس، وأخذها معه إلى ضاحيتهم القاهرية.

في طريق عودتي للبيت اشتريتُ بالونةً صفراء كبيرة، كانت «نور» تحدِّق ناحيتها بعين الاندهاش والابتهاج. صار لديها اليوم لعبتان. بعد عودتنا لشقتنا تركتها مع البالونة والدبدوب، وطويت مائدة «الفورمايكا» الخفيفة وأعدتها إلى موضعها بجانب سرير غرفتنا البحرية. كانت «نور» على السرير تحادث الدبدوب، وتلاعب البالونة، فأوحى لي حالها بضرورة شراء المزيد من الألعاب لها، كلما سنحت لي الفرصة وسمحت جُنيهاتي المعدودات، كي يقلّ تعلقها بشاشة التلفزيون. أفلام الكارتون الملونة تفصلها عن واقعنا الشاحب، وقد تجعلها مع مرور الوقت مغتربة عما حولها، مثل «ياسمينة» ومثلي وكثيرين غيرنا.. معظم الناس في بلادنا مغتربون، بالداخل وبالخارج.

«أمل». المغتربة جدًّا. اتصلت بي في المساء لتخبرني بأنها ستأتي إلينا بعد أسبوع في إجازةٍ لمدة شهر، ومعها أخبار مهمة سوف تبوح بها حين تراني. عبثًا حاولت أن أعرف من هذه الأخبار طرفًا، لكنها رفضتْ، وأصرَّتْ على الصبر حتى اللقاء، لأن التليفون غير مناسب

لهذا الكلام! ما الذي جرى للناس، وما هذا التوجُّس. ومتى يزول الإحساس بالالتباس! الانتظارُ مُملّ. ولهذا تناصحوا منذ القدم بالصبر، غير أن صبري استطال حتى صار مقيتًا مثل الانتظار، ومُملًّا مثل التطريز، وسخيفًا مثل الأعمال المنزلية.. إدمان الترقّب والانتظار يأخذنا من اللحظة الحاضرة إلى غموض الآتي الذي لا يأتي، ثم يؤدي إلى الاغتراب. ولذلك، أنا اغترابٌ ملفوف بالاغتراب.

خطر لي أن أبحث عن السلوان في الصلاة وقراءة القرآن، فانهمكتُ في ذلك عدة ليلات حتى جاءت «أمل» من معتقلها الاختياري. فانشغلتُ بها عما كنتُ أحاوله، وأصرف فيه غربتي وفراغي. قالت إنها ستصل في حدود التاسعة مساءً، لكنها تأخّرتْ حتى انتصفت ليلة الجمعة الموافقة للثامن والعشرين من شهر يونيو، وكنتُ لحظة وصولها جالسة مع خالتي «توحة» نحدق كالبُلهاء في نشرة أخبارٍ تقول إن جيش إسرائيل قصف مبنى يتحصَّن فيه أربعة فلسطينيين، وقد لاقوا حتفهم فور اشتداد القصف. وكانت «نور» نائمة إلى جوارنا ورأسها يتوسَّد ساقي، بينما رأسي يدور كالمعتاد بين فوارغ الأفكار وشوارد التوهمات. توهمت أن العام الماضي ٢٠٠١ سيكون سنة الفرج، فكان عام القلق. وظننت في بداية العام الحالي أنه سيكون أنيقًا كأرقامه ومتناسقًا، لكنه انتصف بعدما قصف ستة أشهر أخرى، من عمري الضائع في تيه التمني. أتمنى أن تخبرني «أمل» بما يُبقي الرمق، ويوقد شمعة باطني التي خبا لهبُها الخافت حتى أوشك أن ينطفئ.. تمنيتُ، ثم عرفتُ أنني كنتُ كالمعتاد مخدوعةً لأنني محرومةٌ، والأماني المستحيلات تخدع المحرومين.

بعدما طال انتظارها، دخلت علينا «أمل» صاخبة كالموهومين

بالانتصار، وفي يدها أكياس لامعة منتفخة. وخلفها زوجها «حسن» المنكسر، يجرّ حقيبتَي سفر كبيرتين تكاد كلتاهما أن تنفزر. فور دخولهما انقلب الحال وتلاشى السكون الذي كان سائدًا، وابتدأ حفلُ الفرح بأحضانٍ متلهِّفة وضحكاتٍ متتاليات وعيون تبتسم سرورًا وسط الضجيج. الشقة أُضيئت أنوارها كلها، وتُرك بابها مفتوحًا. مع كل هذا الصخب، ظلت «نور» نائمة فوق التقاء الكنبتين! أصرت «أمل» على إيقاظها لتريها هداياها، وأصرت هي على النعاس بعدما نظرت للعروستين بعين نصف مغلقة، وشبح ابتسامة.. بعد سويعة رأيتُ أن أستأذن في الصعود لشقتنا ليرتاح الواصلون من السفر، فقلتُ لأمل إنني سأراها في الصباح فصاحت: لا *يا حبيبتي، إحنا الليلة سهرانين مع بعض لحدّ الصبح، أنا مش هيجيلي نوم، وأمي هتنام بعد شوية، والأفندي ده هيروح ينام عند أمه. يلّا يا حسن، زمان أمك مستنيّاك على نار، على نار على نار على نار، وحبيبي مولّع نار.. هئ هئ.*

بعد دقائق انصرف المسكين وهو يخفي حرجه بابتسامةٍ بلهاء، مسطّحة، وبعد ذهابه هدأ الهرجُ فاستعاد الليلُ سكونه. برفق الأمهات، أخذت خالتي «توحة» ابنتي لتنام بجوارها، وسحبت «أمل» من الحقيبة التي كانت مغلقة قطعتين من ملابس خفيفة. أغلقت باب الشقة والشباك وأدارت المروحة بسرعتها القصوى، وفي وسط الصالة ألقتْ عنها العباءة السوداء وارتدتْ ما خفَّ من فوق وشفَّ من تحت، وهي تقول مُتبرِّمةً: *يا لهوي إيه الحر ده، أنا هافطس، إحنا لازم نركّب جهاز تكييف في الخرابة دي.*

بلمحةٍ سريعة إليها لاحظت أن «أمل» استدارت رُباها وامتلأت

شجيرات أنوثتها، وأثمرت الفواكه التي يشتهيها الرجال. لا بد أن بضاعتها قد صارت عندهم أكثر رواجًا، لاسيما مع هذه الميوعة المتعمَّدة، المحترفة. قلتُ لها إنها تغيَّرتْ فابتسمت ولم ترد، وبادرتْ إلى إحدى الحقيبتين فسحبتْ منها كيسًا كبيرًا فيه هداياها لي. ثلاثة جلابيب قُطنية للنوم، وعلبة ماكياج من نوعٍ غير معروف، وتليفون محمول قالت إن اسمه «الحرباية» وملابس داخلية منزلية من قطن ناعم مريح. شكرتها، وسألتها عمن عساي أحادثه على تليفونٍ محمول، فقالت إن الناس كلهم صار لديهم هواتف نقَّالة، وهمست بأنها تنوي مشاركة «فهد» في دكان لبيعها هناك، وسوف تبحث عن شريكٍ لافتتاح دكانٍ آخر هنا. أضافت: *أصل الشغلانة دي مكسبها مضمون!*

ـ يا أمل، سيبك دلوقت من الأشغال والمكاسب. الموضوع بتاعي أخباره إيه؟

ـ واللهِ الأشغال والمكاسب هيَّ إلِّ باقية، ياشيخة، بلا حب بلا وجع قلب.

ـ أرجوكِ بأه يا أمل، حرام عليكِ كده.

ـ شوفي يا نورا، موضوعك ده مفيش منه رَجَا.

غاص قلبي فجأةً في ماءٍ يغلي، وتتالت عليَّ موجاتٌ برودةٍ وسخونة فصار رأسي جامدًا، كأن فيه صخرةً بحريةً ملفوفةً بالطحالب. استمعتُ شاردةً إلى كلامها الذي تُفهم مفرداته ولا يُعقل مجمله، فوجدتُ خلاصته أن الموضوع تشابك وتعقَّد حتى أمسى مبهمًا، وتعلّقت به تفصيلاتٌ غريبة غالبًا ما ستكون مخابراتية! ولذلك خشيتْ «أمل» من إخباري تليفونيًّا بما توصّلت إليه.. حبيب

عمري الذي ذهب إلى باكستان لم يعد، ولا يبدو أنه سيعود، فهو مفقود وعلى الأغلب مخطوف ولا أحد يعرف خاطفيه، وربما يكون قد مات... قاطعتها بصوتٍ يرتجف:

ـ لا يا أمل، لأ. الكلام ده لا يمكن يكون صحّ، يعني إيه مات؟ لأ، أنا حاسَّة بيه حي، يمكن تايه أو محجوز في مكان. بس مات، لأ. لأ يا أمل. لأ يا رب، إوعى تكون عملت كده. يموت إزاي، طيب أنا هاعيش ليه؟

ـ تعيشي عشان بنتك يا نورا، وبعدين دا كان متجوز، والواد الجزايري «أبو راسين» سلِّك أموره مع الولية إلِّ راح بسلامته اجوِّزها في بلد بعيدة كده، وجابها معاه الدوحة، وسابها لوحدها هناك. ودلوقت أهو راح في داهية، ومراته وأبو راسين بقوا سمنة على عسل. الدنيا مصالح يا نورا.

ـ كفاية. اسكتي، حرام كده. أنا طالعة بيتي.

تركت خلفي الهدايا، وكل الأمنيات، وبما تبقّى لديَّ من رمقٍ تماسكتُ حتى حملتُ طفلتي النائمة بجهدٍ متقطِّعِ الأنفاس. لم أستطع الصعود بها وهي مسترخية على كتفي، فأنزلتها عند أول درجةٍ وأحطتُ صدرها، بذراعي اليسرى، وباليمنى استندت إلى سور السلم. لا أعرف من فرط ذهولي، كيف استطعتُ صعود الطوابق الثلاثة، وفتح باب الشقة.. أرحت «نور» فوق سريرنا وخرجت إلى الصالة المعتمة، وحدي، تمامًا، لا أعرف لماذا جثوت كالساجدين على الأرضية العارية، ثم استلقيتُ على جانبي الأيسر وذراعاي يحتضنان فراغي بقوةٍ، وبضعفٍ بكيتُ حتى وصلني أذان الفجر الآتي

من فوق السماء. بجهدٍ جهيد تزحفتُ حتى وصلت إلى حافة الكنبة وحاولتُ الوقوف، لكنني لم أقدر على القيام فبقيت على الأرض غارقةً في دموعي وباطني يرتجف مثل جناح حمامةٍ مذبوحة. لن يرحمني من هذا العذاب إلا موتي. الموتُ لونه أحمر. أحدّق فيه الآن وعيناي مغلقتان، وأرى في جوف احمراره أطيافًا وصورًا تتوالى بلا انتهاء. هذا وجه أبي تحوطه وجوهٌ شفّافة لا أعرفها، وهذا نخيلٌ يابسٌ يسدُّ باب جامع «سلطان»، وهذا سريرُ أبي في المستشفى، خاليًا، وعلى مقربة منه امرأة تشبهني. هي أمي. وهذا «شلبي القهوجي» الذي كان يحدّق فيَّ أيام طفولتي كلما مررتُ من أمامه. هؤلاء كلهم موتى منذ زمنٍ بعيد، وأنا مثلهم ميتة. منذ زمن بعيد.

* * *

ـ ماما، إنتِ ليه نايمة ع الأرض؟ وعينيكِ منفوخة كده ليه؟

* * *

يا ربي، أين أنت؟ أتراني، وتسمع. فأعترف لك بأنك أوجعتني جدًّا، وما عاد وجعي يُحتمل. أحيانًا كنتُ أشعر بك بالقرب مني، أحيانًا قليلة. شعرت بك مرات قبل سنوات، وكان اسمك آنذاك الرحمن الرحيم، ثم سرعان ما تبدّل اسمك معي إلى المنتقم. ما الذي فعلته كي تنتقم مني. أتيت بي لدنياي الخاوية هذه دون موافقتي، بل دون أن تسألني، بل دون أن تخبرني بأنني سأصير لعبةً بائسة. خشبةً تعيسة، تتقاذفها بين الصخور القاسية، أمواجٌ عاليةٌ كالجبال. أمواجك الجبارة كالجبال. والصخور لن تحنو. ولن يتفتّت الخشبُ فيرتاح من صدماتك. اليأس راحةٌ، والموت راحةٌ. وأراك تحرمني

من الراحـتين. وتُمعن، فتعلّق بقلبي مصير «نور» ليعصرني مزيدٌ من الألم. ما عدت قادرة على احتمال مزيدٍ من الألم. كيف ستفهمني، وأنت لا تعرف الألم، ولا يقدر عليك قادر. ومع ذلك تسمي نفسك المنتقم. لماذا؟ ولماذا تأخذني مني، ثم لا تأخذني إليك؟ كفى، فقد صرتُ كالهباء الهائم في الهواء بلا معنى. عمري انسرب من بين أصابعي كالماء، وأيامي تنفلت مني وأنا ناظرة إليها، ومتحسِّرة. أتريد أن أعترف لك بعجزي، وحيرتي، وحسرتي؟ حاضر، سأعترف. أنا عاجزةٌ، وحيرى، والحسرة تحوطني. كنتُ يومًا أنا، وأنا الآن لا أنا. أنا لا شيء. محوٌ تام، وانهزامٌ في انهزام. عاني أخطأتُ وهذا عقابك، ولكن «نور» لم تخطئ بعد، ولا تعرف ما هو الخطأ. فلماذا تعذِّبها بهذا اليتم، ومرارة الأقدار، وتتركها بلا أبٍ يحمي أو عائلٍ يحنو؟ أتراك تراني أمًّا وأبًا. فلم جعلتني أنثى موصومةً بالنجاسة حين تحيض، وموسومةً بالنقص في كل حين، وموصوفةً بالاعوجاج على لسان الناس أجمعين. أنت لا شريك لك، ولستُ مشاركة لك، حتى في حياتي وفي أيامي المحكوم عليها من قبل مولدي بفقدان الأم، وبعجز أبي الذي تعذَّب طويلًا وظلّ في الذُّل. ثم مات وانطوى فكأنه ما جاء، وما ظلّ، وما ذهب. أتريد تأكيد أنك المذل؟ طيب، أنت المعز وأنت المذل. ولكن لماذا العز والذل لمن خلقتهم سواسية، لا ما كانوا يومًا سواسية؟

أسماؤك تحيرني، أراها تجمع بين النقيضين اللذَين لا يجتمعان. محسن ومنتقم، رءوف وجبار، رحيمٌ ومعذبٌ بالنار. وكلها مذكّرةٌ، مع أن خلقك نصفه إناثٌ، وكله بالإناث. أليس لنا اسمٌ واحدٌ مؤنث، أو نبيةٌ واحدة تفهمنا ونفهمها وتفصل بالقول الحق بين الحزانى

والحاكم، بين الثكالى والثاقب، بين المهزومات الضعيفات والناصر القوي القاهر شديد المحال؟ آه يا وجعي.

يا رب هل تريدني أن أختار؟ أم تريد أن أتذلّل لك وأترنّح أمامك وأنهار؟ ها أنا منهارة تمامًا وذليلة لك، وللرجال الذين على صورتك خلقتهم وسلّطتهم بالسوط على ظهور النساء، وبالاشتهاء على بطونهنّ وأنحائهنّ. السياط ألهتني. الرجالُ سواء، وللنساء السوءات. أنا النساءُ، وأسوأُ السوءات أنا. وأنا المطيعة، والمربعة، والخليعة إن اقتضت المشيئة. والفريسة أنا. أنا فريسة سواد الناس، المراد سترها بالاسوداد.

الكلُّ في إذلالي سواء. سواء هذا الذي كرهته فاستبدَّ بي ودمَّرني، أو ذاك الذي أحببتُ فذهب عني وحطمني ابتعاده. من أين جاءتني الأماني، منكَ أم مني؟ أكنتَ تمكر بي من حيث لا أدري، وأدري؟ أكنتَ بالآمال المستحيلات تُغويني، وتخايلني، لأستكمل السير حتى آخر السُّبل المسدودة؟ أنا تائهة، فأرشدني ما دمتَ تسمع وترى. متى ينقضي اليومُ السابع وتعود لطبيعتها الطبيعة، يابسةً جرداء أو يانعةً خضراء. سطعتَ بالظهور، كل مرة، في الأرض الجرداء. لكنك عُبدت فقط فوق بساط هذه الخضراء، الطية. الطيّعة. لم ينقضِ قط، ولن ينقضي، قضاؤك الصخريُّ الموجع. أرضي تشققت عطشًا، ودبَّ فيها الخراب. هل ستُعبد في أرضٍ خراب!

أنا الأرضُ الخراب.

.. من دون تدبيرٍ نبتتْ بين الصحراوات شجرةٌ، ولما أورقت واستقامت ساقها، يبستْ واستطال يُبسها فيأستْ من مجيء الماء

وأيقنت باقتراب النهاية وانتهاء المعاناة وعذاب الانتظار. فلما تخلَّصت من ألم الأمل، آل إليها سحابٌ أسقط بالشُّحِّ قطرةً واحدةً من ماء المطر، وعَبر، فعاشت الشجرة من جديد مرغمة على الوقوف في وجه الهجير، وأثمرت. وها هي اليوم تبكي حسرةً، لأن طيرًا لا يرف بين فروعها. وليس هناك ظمآن يستظل بحضنها، أو جوعان يلتقط من ثمرها الذي اختبأ حتى اهترأ. وبعدما أنهكه التعلق بالفروع، سقط على الأرض، وتُرك حتى تعطَّن وعانى الوجع.

أنا الشجرة، والثمرةُ العطنة.. والوجعُ.

* * *

مَرَّ الشهر الذي أمضته «أمل» هنا، كأنه أطيافٌ تعبر سريعًا فلا يبقى شيء منها بالذاكرة. كأنني لم أكن حاضرة. ربما لأنني كنتُ مسلوبة مني، وغير قادرة على الغوص في أي شأنٍ، هان أو عظم. ومع ذلك أُحسب من جملة الأحياء! أسمعُ ما يقال بأذنٍ يملؤها طنين، وأرى ما يجري أمامي كأنه حدث في ماضٍ سحيق. كان العالم كما هو وكنت خارجةً عنه، لا مقطوعة ولا موصولة.

خلال هذا الشهر ذهبنا نحن الأربعة مرةً إلى حديقة الحيوان التي نسميها «النزهة»، نور وأمل وأمها وأنا، فانتبهتُ يومها إلى أننا ثلاثة أجيال مؤنثة، تتوارث البؤس، واستبد بي الخوفُ على مستقبل ابنتي. وجلسنا مرة في الشقة الأرضية ودار الحوار حول رغبة «أمل» في الطلاق من زوجها، فوجدتني أستعيد أيام تعاستي الزوجية، وأنظر بعينٍ شاردة لدموع خالتي «توحة» الحارة، في اللحظة الأخيرة، وبلا سببٍ مُعلن، قررت «أمل» تأجيل طلاقها للسنة القادمة. وفي السنة

التالية تطلقت وانطلقتْ بين أدغالٍ لا أعرفها. كانت تُهاتفني من مدنٍ بعيدة، وتحكي لي بمفرداتها التي صارت مريعة، شوارد أخبارٍ لا رابط بينها:

شوفتِ يابتّ يا نورا، مش قلت لك، ناس أعرفهم بلغوني إن الواد أبو راسين أخد الولية وخلع.. حسن، الواطي، أخد مني ألفين دولار علشان يوافق ع الطلاق، ابن الباردة، ويقولي بكل تناحة: اعتبريه تعويض علشان أعرف ألاقي واحدة تانية أتجوزها.. «فهد» شكله بيلعب بديله من ورايا، بس قشطة.. دبي، دي أحسن مكان في الدنيا، دي جنة.. بقيت ابعت لأمي كل شهر ألف درهم، وبرضه مش عاجبها، وراكبها عفريت اسمه: يا أمل ارجعي كفاية كده.. عارفة يا نورا، أنا لازم اشتري شقة حلوة في إسكندرية، بس تكون ع البحر، أنا خلاص ما عدتش طايقة كرموز خالص، والإجازة بقت عذاب بالنسبة لي.. الصراحة أنا نفسي أخلّف.. الواد فهد خلع.. أنا اشتريت شقة ع الكورنيش في سيدي بشر، شفتها في النت، وناس حبايبي خلّصوا الموضوع بتوكيلات.. أنا جاية إجازة.. أنا هاروح المرة دي البحرين، شهرين بس وبعدين أرجع بقى وكفاية سفر، عايزة أعيش شبابي.. هيء هيء، خدت منه مبلغ وقلت له: ما حدش واخد منها حاجة، آخرتها قطنة.

* * *

مع كرّ الأيام، صارت «أمل» نموذجًا مريعًا للضياع والعدمية، واللامعيارية. أما «ياسمينة» فقد تطوّرت أحوالها مع مرور الأيام من عجيبٍ إلى أعجب، فبعد أيام قليلة من لقائنا بكرموز ثم سفرها

المفاجئ إلى القاهرة مع زوجها، عادت وأخبرتني بأن موعدنا الذي لم يتمّ سنحتِ الفرصة لإتمامه. اندهشتُ، فأوضحتْ أن زوجها ذهب ثانيةً إلى أوروبا لإتمام العمل الذي تركه معلقًا، وسوف تأتي يوم الخميس إلى الإسكندرية ويمكن أن نلتقي يوم الجمعة. سألتها يوم لقائنا إن كان زوجها قد أوصلها بالأمس، فأجابتني بالنفي ثم أضافت إن مدير أعماله «رءوف» هو الذي جاء بها من القاهرة، لأن عنده بعض الأعمال في الجمرك. الطريقة التي نطقتْ بها اسمه كانت مما لاتفوّته المرأةُ! ملتُ إليها برأسي، وسألتها وأنا أحدّق في غور عينيها:

- ومين بأه سي «رءوووف» ده؟

- قلت لك يا نونو، مدير أعمال جوزي.

- بسّ كده. يعني مفيش حاجة تانية؟

- يعني، هوَّ إنسان جميل يا نورا، وراقي جدًّا. أنا باستريّح للكلام معاه. وبسّ. وباحسّ كمان إنه بيفهمني من غير ما أضطر أشرح كتير، ودايمًا بيطمّن عليَّ بالتليفون.

- سمممة. أنا كده قلقت!

- لا واللهِ، مفيش أي حاجة غير كده.

- سمممة...

- الصراحة، فيه شوية مشاعر. أصل هوَّ إلّ مهوّن عليَّ حياتي ف كايرو.

ـ وبعدين معاكِ يا سمسمة، أنا كنت حاسّة بحاجة من يوم مقابلتنا إلّ فاتت.

ـ لأ. إوعي تفهميني غلط، أنا وهوَّ عمرنا ما حصل بينّا أي حاجة، ومُش هيحصل.

ـ بسّ واضح كده إنّك بتحبيه. صحّ؟

ـ مُش عارفة.. أرجوكِ يا نورا غيّري الموضوع.

لم أسألها ثانيةً عن هذا «الرءووف» الذي نطقت اسمه كأنها تُغرِّد به، وهي لم تحدّثني عنه إلا بعد مرور شهور. ففي مكالمةٍ صباحيةٍ كانت مُبكرةً بأكثر من المعتاد، تخلّتْ عن حذرها المعتاد وقالت بصوتٍ يتهدّج، وأظنها كانت تبكي: *شُفتِ يانورا، رءووف حبسوه إمبارح، أنا متأكدة إن حَمَاي وجوزي هُمَّ إلّ عملوا فيه كده. كده ظُلم يا نورا، أنا عارفة إنّه أكيد بريء. «سمير» جوزي فضل يومين ساكت، ولمّا سألته إمبارح بالليل عن «رءووف» ضحك وقال لي: رءوف خلاص، بحّ، قُدّامه عشر سنين سجن ويمكن أكتر كمان، يـاهل الكلب الواطي، علشان يعرف آخرة إلّ يرفع عينه في أسياده.*

* * *

توالت المآسي على «ياسمينة» الرقيقة كالياسمين، إذ اكتشفت بعد زواجها بثلاث سنوات أن زوجها المدلّل لا يُمكنه الإنجاب، فانهارتْ. نصحتها أمها بالصبر حتى يحسم الأطباء الأمر، فلم تقتنع، ونصحها أهل زوجها بشراء كلب، فازداد انهيارُها. ولمّا أرادتْ طرد الخادمتين الجديدتين لأنهما كالسابقتين تتجسّسان عليها، اتهمها

زوجها بالوسواس وهزأ منها أمام جماعة من أهله، فضحكوا. ولمَّا أرادت أن تعمل مدرِّسةً لتملأ فراغ أوقاتها، استعمل أبوها علاقاته وأوجد لها وظيفة بمدرسة فخمة اسمها «الشويفات» لكن زوجها رفض متعلّلًا بأن العمل عيبٌ على الهوانم، وعارٌ على أزواجهن! أبوه، السياسي، نصحها بأن تفتح حضانة في فيلا فاخرة يملكها في وسط القاهرة، كحلٍّ مؤقّتٍ للإشكال. لكنها رفضت لأنها لا تريد التورُّط أكثر، في زيجة تتمنى الخلاص منها. وحين تأزّم الموقف، نصحها أبوها بالتريث حتى يجعل الله لها مخرجًا، فشعرتْ بأن أبيها يخشى عائلة زوجها ويعمل لهم ألف حساب.

بدتْ بوادرُ انفراج أزمة «ياسمينة» مع بدايات العام ٢٠٠٤ حيث جرى ما لم يكن يخطر على بال. أخو زوجها الأكبر تورَّط في جريمة قتل راقصةٍ غدرت به بعد علاقةٍ غير معلنة وهربت منه مع الطبّال، فأرسل وراءهما مَن اغتالهما، واعترف القاتلُ بمن أرسله. وتصادف ذلك مع وقوع مشكلات فضائحية مع «سهام» أخت زوجها، وكان حماها الحامي مريضًا ومسافرًا خارج البلاد للعلاج، فما كان بالمستطاع تسوية الأمر قبل الافتضاح.. انشغل عنها الجميعُ، وما عاد زوجها يسمح لها بالخروج وحدها أو يوافق على زيارتها لأهلها.

عاشتْ أيامًا صعبة، كانت سلوتها الوحيدة خلالها هي المكالمات التليفونية مع أمها، ومعي، حيث تتهامس وهي تشير حينًا وتفصح أحيانًا عما يحوطها في سجنها المخملي، فتبكي برقّةٍ وهي تبثُّ نجواها وشكاواها بمفرداتها المهذّبة ونبراتها الراقية:

يظهر مفيش فايدة يا نونو، مصطفى أخو جوزي اتحبس ويقولوا يمكن ياخد حُكم جامد، وأبوه عيّان خالص ومُش عارف يعمل حاجة. تفتكري يا نونو ده ذنب «رءووف» إلّ ظلموه؟ أنا حاسّة بكده، أصل ربنا مُش ممكن يرضى أبدًا بالظلم.. أنا كده خلاص، خلاص يا نورا، ماعدتش قادرة اتحمّل الحياة دي، عاوزة أموّت نفسي علشان أرتاح.. يا نونو، عندي خبر كويس، أنا قدرت أوصل لأخت «رءووف» وعرفت منها إنهم عملوا حاجة في المحكمة اسمها النقض، واحتمال كبير يخرج من السجن قُريب، أنا فرحانة جدًّا.. تصوري، إمبارح «سلوى» أخت سمير جوزي، قعدت تشتكي لي من جوزها ساعتين لحد ما وجعت قلبي، مع إننا يعني مُش أصحاب، وبعدين قالت لي في الآخر إنها هيَّ كمان بقت تخونه ومفيش حدّ أحسن من حدّ! وكانت يا نورا بتتكلم عادي خالص، وبتشرب الحاجات بتاعتهم دي لحد ما سِكرت خالص، وباتت عندنا.. شعري بيُقع يا نونو، ومُش نافع فيه العلاج.. فيه واحد كده بيعاكسني بالرسايل من نمرة غريبة، وعارف عني حاجات كتير، تفتكري يكون مقلب «سمير» عامله فيّ؟ سمير باع الفيلا وهنُسكن أول الشهر في التجمع، المكان كويس، بس شكله زي ما يكون كده في الخليج.. بابا النهارده قال لي: سمير ده شكله مش نافع خالص، بس برضه اصبري شوية كمان علشان محدش يجيب أي غلط علينا.. ماما عندها برد.. أنا زهقت يا نورا، زهقت خالص.

* * *

أيامي تمرُّ باهتةً ودُنياي خلت من الألوان والبهجة، لكن بعض أموري لا بأس بها. فابنتي صارت تلميذة ترتدي الزّي المدرسي،

فتبدو صباح كل يوم كأميرةٍ تعيش مؤقتًا بعيدًا عن قصر أبيها. ومدام «كاميليا» فتحت فرعًا لأعمالها في القاهرة، وزادت أجرة التطريز خمسة جنيهات عن كل عباءة، من دون أن أطلب منها الزيادة. استرحتُ ومن بعد طول معاناة، حين كففتُ عن الترقُّب والانتظار وعن الأمنيات، إلا أثناء النوم، فالأحلام تؤلمني إذ لا تزال تراودني وتذكرني بذاتي. لكن حالي صار أهدأ وأهمد مما كنتُ عليه سابقًا، لأن اليأس إحدى الراحتين. والاستسلام مريح.. بنايات عالية غير مرخّصة قامت بين الأزقة والحارات المحيطة، والحاج «حودة» عرض مبلغًا على السكان كي يتنازلوا عن عقود الإيجار فيهدم البيت ويبنيه أعلى، فيصير أغلى، لكن خالتي «توحة» نصحتني بالصبر وعدم التسرع في قبول المبلغ المعروض، وأكّدت أنه سوف يزيده.

مدرسة «نور» جعلتني أعتاد النوم مبكرًا لأصحو في موعد توصيلها، وأعود إلى البيت للتطريز، ثم أعود للمدرسة قبيل انتهاء يومها الدراسي. العام الماضي تأخّرت عليها عشر دقائق، فجزعتْ وأخذت تتقيّأ أمام باب المدرسة، وفي طريق رجوعنا اعتذرتُ لها عن تأخُّري بسبب ماسورة المياه هذه التي انفجرت، فبكتْ مجدَّدًا، فاحتضنتها في الشارع، فقطّعتْ أوتار قلبي بقولها البريء: *أصل أنا يا ماما ماليش غيرك.*

صرتُ مثل عقارب ساعة تدور لحظةً وتقف لحظة، من دون إحساس بدورانها وبمكان وقوفها المؤقت. حتى الفارغون والتوافه من الشبان والرجال الذين يعاكسون النساء والبنات في الشوارع، ما عدتُ ألفتُ نظرهم. والصغار من الباعة في سوق «باب عُمر» صاروا

ينادونني بصفةٍ صدمتني أول الأمر، ثم اعتدتُ عليها على الرغم من سماجتها وفقدانها المعنى: يا حاجّة!

في سن الخامسة والثلاثين، وبسبب ملابسي الفضفاضة وإهمالي لمنظري وازدياد وزني من فرط الملل، صرتُ فجأة «حاجّة»، وأنا التي كنت قبل سنواتٍ أبهر الناظرين، ويغازلني معظم العابرين بي ساكبين عليَّ صفات: القمر، الحلوة، الغزال، الجميل. وأداعَب بعبارات لطيفة أو سخيفة: *والله أنا قصدي شريف.. تعالي بس نتكلم كلمتين.. مصر من ورا عالية أوي.. آه ياني، باموت في النُّص التحتاني.*

كأنني لم أعد أنا! كيف كنت قبل عشر سنواتٍ أرى العالم من حولي ورديًا مُبهجًا، مفعمًا بما لا حصر له من الأماني. ومن أين كنت واثقة بأن أحلامي سوف تتحقق! هل لأنها كانت بسيطة: الارتباطُ الأبدي بمن أُحب والسُّكنى معه والسكن إليه، العملُ في الصحافة والنجاح فيها دون أن أخسر احترامي لنفسي، إنجابُ بنتٍ وولدٍ والاكتفاء بهما لأستطيع العناية بأسرتي الصغيرة على أفضل صورة. أنا لم أفرط يومًا في التمني، فأحلم مثلًا بامتلاك سيارةٍ أو السكن بحيٍّ راقٍ أو السفر للخارج. لكن تواضُع أحلامي لم يكن مجديًا، ولا نفعني خفضي لسقف الأمنيات، وانتهى بي المآل إلى ما لم يخطر لي على بالٍ، فصرتُ شبحًا يتحرك بين الناس من دون أن يلحظوه.

في الخامسة والثلاثين من عمري، أنا عجوزٌ سُرقت أيامها، أو بئر عاطلة مدفونٍ في قَعْر قاعها جثمانُ أُنثى. أنا الأنثى الدفينة. أنا بعضُ الذكريات وكُلُّ الاغتراب المسيَّج بالاغتراب. كأن الزمان توقف أو تباطأ أو انشغل بغيري ونسيني. ليس في حياتي إلا المعتاد

من الأعمال المنزلية المملة، والإصغاء لشجو «ياسمينة» وشكاواها التليفونية، الطفولية. والحديث عن «أمل» مع أمها المتألّمة من عقوقها ومن بعض العِلل. ما عادتْ لحظاتي مفعمةً بأشياء تُشعرني بطعم الأوقات.. حتى فرحتي بأمان «نور» وانتظامها المدرسي، يشوبها قلقٌ غامضٌ وتوجُّسٌ من مقبل الأيام. اشتدي أزمةُ تنفرجي. هذا خداعٌ صريح، ومواساةٌ تناسب الناس التي تنسى فلا تأسى، عساهم يستكملون مسيرة الحياة.

الحياة، ما معنى هذه الكلمة!

* * *

في بدايات العام ٢٠٠٥ وبعد طول تعذيبٍ وتسويف، استطاعتْ «ياسمينة» انتزاع حقها في الوجود، بالطلاق البائن من زوجها العاقر. كان مدرس اللغة العربية في مدرسة «الرمل» الثانوية يقول لنا إن الرجل لا يجوز وصفه بالعاقر، لأنها صفةٌ للنساء! سألته عما يُوصف به الذي لا يُنجب من الرجال فقال: يُقال له «الأبتر»؛ لأنه يكون مبتور الذكرى، وليس له ذريةٌ تحمل اسمه بعد وفاته. قلتُ له: *يعني النساء في كل الأحوال مبتورات، وفي بعض الأحوال عاقرات! قال بعدما سَرَح بخياله برهةً، وانتبه: بلاش قِلة حَيَا، روحي على حصّتك.*

أين هي، يارب، حصّتي!

بعدما تحررت ياسمينة من طليقها العقور الذي زجَّ بصديقها الرءوف في جوف زنزانةٍ ظالمة، تديَّنتْ. لكنها لم تحتجب عن الناس وعن ذاتها كالمطلقات، ولم تتحجَّب كالمتدينات بطرحةٍ أو سِتر رأس. لأنها تؤمن بأن العفَّة فكرةٌ في الرأس وليست سترًا

ينـدل ليخفي الشَّعر، وشعر المرأة غير مثيرٍ بأكثر من بقية أسلحتها كنظرتها ونبرتها وطريقتها في المشي. «ياسمينة» تقول هذا الكلام الذي تؤمن به، فتجد الاستحسان والموافقة من أمها وأبيها ومعظم الذين حولها. محظوظة. لو كانت تعيش مثلي في منطقةٍ كانت شعبية وصارت عشوائية، لما تجرأتْ على التصريح بما تؤمن به ولما قدرتْ بعد طلاقها على الكلام، ولكانت قد رضختْ مثلي وفعلتْ ما أفعله، وأطاعتْ. فنحن هنا طائعاتٌ، أو منحرفات! والتي تتمرَّد إما أن تتبدَّد، أو تُسرع بالابتعاد مثلما فعلت «أمل». ولمن تعصي العصا، أو الفرار إلى غير رجعة.

بعد استرداد ذاتها بأيامٍ قليلةٍ التقينا خلالها مرةً واحدة، أخبرتني «ياسمينة» بأنها سوف تهاجِر. غير أنها مضطرة أن تنتظر بمصر شهرًا، حتى ترى نتيجة «النقض» في الحكم الجائر الذي وضع «رءوف» في السجن ظلمًا، فإن حصل على براءته وخرج من محبسه، فسوف يهاجران معًا. حلمتُ بذلك، فلما تأجلت الجلسة أجلًا مديدًا، تضايقت وضاقت عليها أوقاتها هنا، فقررت السفر إلى لندن للبقاء فترةً مع خالتها «نيفين» الساكنة هناك منذ عشرين سنة. قالت إن أمها هي التي نصحتها بالذهاب لتقضي «فترة نقاهة» بعد معاناتها من سخف السنوات الكئيبة التي ضاعت عليها هدرًا مع طليقها، وسوف تُتابع من هناك مع أخت «رءوف» قضيته: *أنا متأكدة يانونو إنه هيطلع براءة، أصل الظلم ده مُش ممكن يدوم!* حبيبتي الرقيقة «ياسمينة» عليها فعلًا أن تحمد ربها على حظها الأفضل، وعلى حياتها هناك. فما كانت تستطيع العيش هنا. حيث الله والرجال الذين على صورته لا يحبون استعلان الأنوثة، فأُخفيها عن عيونهم بقدر المستطاع

وأنساها مرغمةً، مستسلمةً لمرادهم. ليقول رجالُ الحيِّ وتردِّد خلفهم نساؤهم المستسلمات، إنني سيدة فاضلة! ويحسنون معاملتي. ولو ضايقني بعضُهم، يمكنني الاستعانة ببعضهم على بعض، حتى يمر الزمان وتكبر ابنتي وترث عني العبودية للمجتمع، وللمعتقدات البالية السمجة، ولقوة اللغة التي تصف المرأة بصفات مذكَّرة. عاقر. ولود. عانس. ناشز. عجوز. نؤوم! عمومًا، هذا اختيارُ الله ولن يجدي التمرُّد عليه لأن «نور» معلقة بعنقي، ولا معنى لشكوى الشاعر من أن الاختيار العلوي موجع. طيب، لا بأس. سأبقى كما أنا في سلامٍ مع الناس ومع الله، ولن أطلب أي شيء ولن أنتظر الفرج المفاجئَ أو المتمهِّل. لن أصبو لشيءٍ، فقد عاش أبي المسكين حياته العَسِرة يصبو بلا طائل، ويتمتم كل حينٍ بقوله: يا فرج الله! وظل طيلة عمره محافظًا على إيمانه الفضفاض، منتظرًا ذلك الفرج الذي لم يأتِ قط. كان كذلك وهو الرجل، فما بال الأمر مع امرأةٍ مثلي.. أنا لستُ امرأةً ولا رجلًا، ولستُ ملحدةً ولا مؤمنة، أنا أمٌّ وأبٌ لطفلةٍ أشعل بقلبي الحريق قولها: *أصل أنا ماليش غيرك يا ماما.*

صباح اليوم، بعد عودتي من توصيل «نور» لمدرستها، وعقب الإفطار الصامت مع خالتي «توحة». صعدتُ ومعي فتىً يافع يحمل المرآة الكبيرة التي اشتريتها من عمِّ «مرسي النجار» بسعرٍ لا يُصدَّق. وضعتها في غرفة نومنا ولمّا انصرف الفتى عدتُ إليها، وقفت قليلًا قبالتها. وليتني ما فعلت. فقد رأيتُ مسحةً ذكورية تكسو ملامحي، وحين حدَّقتُ فيَّ اعتراني الوجلُ فسألتُ نفسي: مالي قد صرتُ قبيحةً هكذا، وأين توارتْ أنوثتي! الجمالُ أنثوي، وللذكورة الضدُّ. حين تميل ملامحُ الرجل إلى رقة الأنوثة يعدونه جميلًا وسيمًا،

وبالعكس إذا يست المرأة أو طعنت في العمر فاقتربت هيئتُها من شكل الرجل، فهي الشمطاء القبيحة.. أنا لم أكن قبيحةً، ولا يجب أن أكون.

أضأتُ الغرفة المغلقة وألقيتُ عني كل ملابسي سعيًا لاستعادة إحساسي القديم، ومشاعري المبكرة أيام كنت أتعرَّى خلف باب الحمَّام المغلق، وأطيلُ مبتهجةً تأمُّل أنحائي. كانت كتفاي انسيابًا للسِّحر والليونة، ونهداي عنوانًا للعنفوان والبراكين المكتومة، وكُلُّ ما فيَّ جميلًا. ما لي؟ ما الذي جرى لي؟ لا، لن أستسلم لهذا الأسى. أسرعتُ عاريةً إلى الحمام لأستعيد بعضًا من إحساسي القديم بجمال جسمي، ولما انهمر الماءُ الفاترُ من فوقي لتحتي، داعبتُ نفسي فانتعشتُ قليلًا. ثم زلزلتِ المكامنُ زلزالها، ورجفتني فاسترحتُ إلى حين. وحين انتهيتُ انتبهتُ إلى أنني أحتاج استحمامًا أجمل من هذا، ومداعبة أرقى وأعمق، فاغتسالُ الجسم واستحمامُ الأنحاء الظاهرة يكفيه الماء، أما الروح الباطنة فتحتاج الاغتسال كل حينٍ برحيق الحرية وبأنوار الحب ونيران العشق.

صدمني صوتُ أذان الظهر وأخرجني من هيماني مع الآمال، فأسرعتُ إلى ملابسي استعدادًا للنزول إلى المدرسة. في الطريق إلى ابنتي، كنتُ أفكر مليًّا في حيل الواعظ التلفزيوني الذي تحبه خالتي «توحة» وترتاح لكلامه المبهم، المخادع. يقول إن الإنسان اسمه مشتقٌّ من النسيان، وإذا نسي اللهَ فسوف يُنسيه نفسه، ولذلك فالأذانُ من النِّعم العلوية التي لا يعرف كثيرٌ منا قيمتها، وكيف أنها

تنقذ الإنسان من النسيان، بتذكيره بموعد اللقاء المتجدِّد مع الخالق!
يا سلام على الكلام الهوائي، الفضائي، المتغاضي عن أن أكثر بلاد العالم لا يرتفع فيها الأذان.. هه.. كلام الدعاة كألعاب الحواة، يصحُّ تصديقه فقط عند الغفلة ولا يجوز عند الانتباه. خالتي «توحة» طيبة جدًّا، وبسيطة، ليتني كنتُ مثلها. أو مثل أبي، أو مثل معظم الجيران الساكنين في هذه الحواري والأزقة الضيقة المؤدية إلى مدرسة «نور».

ياسمينة

بقدر ما مرَّت السنة السابقة سخيفةً متكاسلة، ابتدأ العام ٢٠٠٦ سريعًا متلاحق الأحداث، ومدهشًا. كانت خالتي «توحة» قد فقدت في الشهور الأخيرة كثيرًا من وزنها بسبب المرض السُّكَّري الذي استهانتْ به فاستأسد، لكنها استراحت في معاناة ارتفاع الضغط بعد دواءٍ وصفه لها صيدلانيٌّ شابٌّ يعمل في «أجزخانة» تشبه البوتيكات، تقع قبالة «جامع سلطان». ومع الدواء، صارت مؤخرًا تحتاط في الأكل وتقتات بالخضراوات بديلًا عن بعض الوجبات. وأظنها استراحت حين يئست تمامًا من عودة «أمل» إلى حضنها، بعدما عانت طويلًا من ألم الأمل ووجع الانتظار. اليأسُ راحةٌ إجبارية. اللقاءُ الأخيرُ بينهما، كان بعد انتهاء الإجازة الصيفية وعودة «نور» للمدرسة بيومين أو ثلاثة، وانتهى بشكلٍ عاصفٍ. ومن ليلتها لم تأتِ «أمل» لزيارة أمها ولم تسمح لها بزيارتها، بل لم تعرِّفها عنوان الشقة التي اشترتها قرب البحر واستقرت بها منذ بداية الصيف، من بعد جولانها منفردةً في دول الخليج لمدة ثلاث سنواتٍ سِمَان. هي التي كانت تصف حياتها هناك بذلك الوصف، فتقول: *عارفة يا نورا،*

العيشة في مصر ناشفة وملهاش أي لازمة. النعيم كله في الخليج، والفلوس، والعيشة الطرية السـمـنة!

حاولتُ التهرُّب من حضور لقائهما الأخير، العاصف، لكن خالتي «توحة» ألحَّت عليَّ على غير عادتها، وطفرت من عينيها دمعةٌ وهي تقول لي متوسِّلة: *احضرينا يا نورا وحياة بنتك، أكيد «أمل» هتكسف منِّك، وتعمل لك خاطر.*

قلتُ: حاضر! وحضرتُ. لكن «أمل» لم تنكسف ولم تتخمف ولم ترع لي أي خاطرٍ. أصرَّت على العيش بعيدًا عن أمها، منفردة، وأكَّدتْ بقـوةٍ أنها لن تعود أبدًا لزيارة هذه المزبلة، تقصد هذا البيت الذي نعيش فيه. أو الحيَّ كله. وبعدما تعالى الزعيق بينهما، همَّتْ «أمل» إلى غرفة نوم أمها، وأخذت أوراقها الرسمية التي كانت مدسوسة في علبة صفيح تحت السرير، وبانفعالٍ شديد طوت الأوراق وحشرتها في شنطة يدها متهيئةً للمغادرة، غاضبةً.. نظرتْ أمها إليَّ نظرة توسُّلٍ فاستوقفت «أمل» قرب الباب وهمـسـتُ لها بأن حياتها وحدها خطرة، فقالت زاعقةً إن الحياة هنا أخطر. قلتُ لها إن بإمكانها أن تأخذ أمها للعيش معها، فرفضت بحزمٍ قائلةً إنها شبعت من النكد، وليس لأمها عندها أي حقوق إلا المصروف الذي ترسله كل شهر. بكت خالتي «توحة» بحرقةٍ حين سمعت منها ذلك، وقالت لها متحشرجة النبرات:

ـ خلاص يا أمل، ما تتعبيش نفـسـك تاني. الله الغني عن فلوسك. بس يوم القيامة لمّا يتنادى عليكِ باسم أمك، هتحاسبي على كل حاجة.

ـ لما يبقى يـجي يوم القيامة.. أشوفك بعدين يا نورا.

بقيتُ واقفةً بمكاني على قدم الذهول، بعد اندفاعة «أمل» المغادرة بغير نيةٍ في رجوع. لم أقدر على التحرُّك، كأنني غبتُ عما حولي وقد عصرتني الخواطرُ العاصفة، والأفكار الحارة الفوارة: هل أرادتْ «أمل» إتمام الانتقام من أمها، مع أنها تدرك جيدًا أن خالتي «توحة» حين أعطت مفتاحها لجعفر الفرَّان، لم تكن تقصد الإيذاء. لا، «أمل» تتصرف بجنونٍ مدفونٍ وغضبٍ مكتوم بقلبها منذ عشرين عامًا، ويريد اليوم أن ينفجر. لا، هي استسلمتْ للأسى واستعذبتْ عذابها المبرِّر للجموح، أو جمحتْ تحت وطأة التخريب كي يتسع الخرابُ ويغدو مدمرًا، فتستريح حين تتحطم. مسكينةٌ «أمل» وأمها مسكينة، وأنا، وابنتي التي تركتُها تعاني من واجبها المدرسي ولا بد أن أُسرع بالصعود إليها، كيلا تقلق فتنزل إلينا وتُغلق الباب وفيه المفتاح.

أريد أن أرتاح من كل شيء. لو أملك ترف الانهيار ولو لبرهةٍ، أو تقوم القيامة فتنتهي بالمأساة كُلُّ المآسي. الآن لابد لي من مواساة خالتي «توحة» المحطَّمة أمامي، فهي الأمُّ التي عرفتها حين لم أعرف أمي. ولا بدّ لي من الإسراع بالصعود إلى ابنتي التي التصقتُ بها، حتى صارتْ تخاف الانفراد. ولا بدّ من الاتصال بأمل التي اندفعت كقاطرةٍ تركت القضبان، لعل فيها بقيةً من عقلٍ تسمعني بها. ولا بدّ من حَدٍّ لهذا الوجع، ولتلك الفوضى العارمة التي عمت العالم.. أين الله!

واسيتُ خالتي «توحة» حتى بكتْ ووافقتْ بعد إصراري على الصعود معي، وعلى السلم سحَّتْ عيناها وهي تستندُ عليَّ. باتت معنا تلك الليلة. نامت على سرير طفولتي أو تظاهرت بالنوم، ولما

هدأت دنيانا اتصلتُ من فوق سريري بأمل، وخفَّضت من صوتي حتى لا تقلق نور:

ـ ليه بس كده يا أمل! إنتِ يعني بتقسي على أمّك الغلبانة، ولّا بتقسي على نفسك.

ـ بقولَك إيه يا نورا، بلاش الكلام ده علشان أنا مُش ناقصة يا ناس أنا عايزة أعيش حياتي، كفاية بأه.

ـ كفاية إيه يا أمل؟ شوفي، إحنا مُش عايزين نرجع للموضوع القديم، بس لازم تعرفي إن أمّك ملهاش ذنب فيه.

ـ الموضوع القديم ده يا نورا أنا نسيته، بس لازم تعرفي انتِ، إن هيَّ إلِّ كانت السبب فيه. هيَّ كانت بتشوف البغل بتاعها هايج على طول، وعينه مايلة ناحيتي، بس عملت نفسها مُش واخدة بالها.

ـ إيه الكلام ده يا أمل، عيب عليكِ كده يا بتْ.

ـ عيب ولّا مُش عيب، هُوَّ ده إلِّ حصل.

ـ طيب، خلاص يا أمل، نتكلم بعدين لمَّا تِهْدِي.

ـ أَهْدا بأه، ولَّا اتهدَّ، ولّا اروح في داهية وربنا ياخدني. يلّا، تصبحي على خير.

من يومها قلَّت بيننا المكالمات التليفونية، وتباعدنا رويدًا. حتى كان لقاؤنا القاصم لظهري، الفاصم بيننا نهائيًا، أيام المطر الشديد الذي انهمر خلال «نوَّة الفيضة».. كنت قبلها قد عرفت منها أنها

«مبسوطة» لأن محل الملابس النسائية الداخلية (البوتيك) يعمل بصورة جيدة، ولأنها استراحتْ من المحل الآخر بالبيع. قالت: *أصل شغلانة الموبايلات لَمّتْ، والدكان كان بيصرف كتير من غير فايدة. بعته، وكسبتْ فيه. والبوتيك شغّال حلو، قلت اركّز فيه أحسن، عندي دلوقتِ خمس بنات شغالين، وهاجيب اتنين كمان. المكسب حلو يا نورا، بس الواحدة لازم تبقى مصحصحة كده وتفهمها وهيَّ طايرة.*

لم أفهم مرادها من هذا الكلام حتى كثُرتْ منها التلميحاتُ، فصارت كالافتضاح البادية شواهده. في يوم الثلاثاء المطير تواعدنا على اللقاء بمقهى «تريانون» الراقي، ولأنني وصلتُ مبكرةً عقب توصيل «نور» وجاءت هي متأخرة عن موعدها، فقد سنحتْ لي فرصة الخلوة بنفسي.. جلست في الركن القصي من الصالة الداخلية أقرأ حينًا صفحات من كتاب «جيمس فريزر» العويص «الغصن الذهبي» وحينًا أتامل السماء من خلف الزجاج وهي تغسل الأنحاء بزخّات المطر، وتزيل عني بعض الأوجاع. في محطة الرمل هذه، عندي وقائع وذكرياتٌ لا تزول مع مرور الزمان، ولن تعود. اعتذرتْ «أمل» عن تأخُّرها بأنها لم تنم منذ أمس إلا ساعتين! وابتسمت وهي تقول إنها سهرت في «الحفرة» حتى الخامسة فجرًا: *كانت السهرة حلوة، أصل امبارح كان يوم مسابقة الرقص!*

ـ رقص إيه يا أمل، وحفرة إيه؟

ـ الحفرة، الديسكو بتاع الشيراتون يابت. وكل يوم اتنين بيعملوا مسابقة رقص، وإلّ تكسب بتاخد موبايل نوكيا آخر موديل.

ـ آه، فهمت.

ـ شوفي يا نورا، أنا عايزة مصلحتك، وهاكلمك بصراحة.

ليتها ما تكلمت. فقد أسهبتْ أولًا من دون داعٍ في الكلام عن بؤس النساء وتيه البنات في هذا الزمان الصعب! وبدت متعاطفةً مع المرأة كأنها من عضوات الجمعيات النسائية، مع اختلافها عنهنَّ طبعًا في ركاكة مفرداتها وكثرة التعبير بملامح الوجه. طيب يا «أمل» عرفنا أن النساء مسكينات، وبعدين؟ قالت بطريقتها المضحكة ما معناه إنها أدركت سبب مشكلة المرأة، وعرفت الطريق نحو الحل الوحيد. فالنساء تعاني بسبب الاحتياج المالي، فترضخ للرجل لأنها لا تستطيع تسيير أمورها إلا بالاعتماد عليه للإنفاق عليها. والرجال يحرصون على إبقاء النساء محتاجاتٍ إليهم، ليضمنوا طاعتهنَّ. أما لو كان للمرأة مالٌ كافٍ وحسابٌ بنكي، فإن كل مشكلاتها ستختفي. طيب يا «أمل» هذا اسمه تمكين المرأة، وبعدين؟ قالت بصوتٍ كالهمس: *أنا دلوقتِ تمام، ومُش محتاجة حد، علشان عندي فلوس كفاية. ومعايا سبع بنات أو تمانية بيشتغلوا في البوتيك، وبنسهر كل يومين مرة في الديسكو، وعايشين حياتنا مبسوطين ع الآخر، وبنحوِّش فلوس كمان.*

ـ وهُوَّ البوتيك بيكسب كتير كده؟

ـ بوتيك إيه بس، لا طبعًا، بس أنا خايفة أصارحك تزعلي مني. أصل أنا عارفاكِ محبّكة الدنيا، وخانقة نفسك ع الفاضي.

ـ يا أمل خلَّصيني وقولي إلّ عندك، فاضل ساعة على خروج «نور» م المدرسة، ولازم أقوم بعد شوية.

- إنتِ يا نورا عايشة إزاي كده من غير راجل؟

- نعم! راجل إيه وزفت إيه دلوقت. إنتِ عايزة تقولي إيه يا أمل؟

- شوفي بأه. أنا عندي ليكِ واحد كويس، هُوَّ عاوز واحدة بيتوتي، وممكن كمان يكتب ورقة عرفي. هُوَّ يعني كبير شوية، بس مقتدر، وانتِ ممكن تتبسطي معاه، وتحوِّشي من وراه شوية فلوس، وانا ممكن...

- اسكتِي يا كلبة.. يا سافلة، أنا غلطانة إن جيت أقابلك. كنت فاكراكِ لسَّة بني آدمة.

* * *

فور خروجي من باب «تريانون» لفحني الهواءُ المطير فاختلط على خدَّيَّ مطرٌ ودموع، وخشية التأخُّر على «نور» أشرتُ لتاكسي يقوده رجل يابس الوجه بائس الملامح، عمره بين الستين والسبعين. لم أر وجهه أول الأمر، لكنني في الطريق لم أتمالك نفسي وبكيت بلا صوتٍ، فقال السائق من مقعده الأمامي ونحن نعبر من أمام سينما مترو: *اصبري يا بنتي، هانت، متخليش حد يشوف دموعك*.. صوته قريب النبرة من صوت أبي، نظرتُ إليه فوجدتُ ملامح مشتركة بينهما. تحيَّرت لحظة. هل هي روح أبي حلَّت في هذا الرجل هذه اللحظة، أم أن البؤس يمسح ملامح الناس فيتشابهون! مسحتُ عن وجهي دموعي وبقيت صامتةً حتى وصلنا قبالة باب المدرسة، فسألتُ السائق الأب إن كان من الممكن أن يبقى دقيقةً حتى آتي بابنتي فيوصلنا عند جامع سلطان القريب، فأومأ موافقًا وهو يبتسم.

ابتسامته مواسية. قرب البيت مددت له الأجرة فأبى أن يأخذ الجنيهين قائلًا: لا *يا بنتي، التوصيلة دي على حساب ربنا، ويمكن هوَّ إلِّ بعتني ليكِ، هاتي بالفلوس حاجة حلوة لبنتك.*

لم ينتظر ردي. مرق مفارقًا بسيارته العجوز تاركًا في يدي النقود، وفي قلبي وروحي الحيرة والسؤال: أتراها حقًا روح أبي، في جسم آخر! انهمار المطر لم يتوقف منذ الصباح وبسبب انسداد البالوعات، خُضنا بصعوبة في نقائع الماء الطيني المختلط ببقايا سويقة الخضراوات المحيطة بالبيت، ولما دخلناه وجدتُ باب خالتي «توحة» مغلقًا على غير العادة، فغمرني قلق. أيام الثلاثاء هذه، مُقلقة. طرقت الباب مرارًا حتى فتحَته وهي نصف نائمة، فاعتذرتُ منها عن إزعاجي لها وهممتُ بالصعود. أخبرتني أنها متوعكة قليلًا، أو بحسب قولها «همدانة» وسوف تصعد إلينا «ساعة المغربية» لأنها تريد إخباري بموضوع. وفعلًا أتتْ عقب أذان المغرب متهدِّجة الأنفاس بسبب صعودها السلم، وساعتها كنتُ أُعد الوجبة المفضلة في أيام الشتاء. العدس. وأفكِّر في طيبة سائق التاكسي، وفي سفالة أمل.

مجيء خالتي «توحة» جلب إلينا شيئًا من البهجة، وفور رؤيتها قالت نور: *أنا خلَّصت كتابة الواجب، فاضل سطر واحد بس!* فتركتهما معًا حتى انتهيت من إعداد العدس، وصببت منه ثلاثة أكوابٍ لتشيع فينا الدفء. بلمحةٍ واحدة، عرفتْ خالتي «توحة» أنني لست على ما يرام، فأعطت نور «ريموت» التلفزيون لتنشغل به، وسألتني هامسة عما بي. حكيتُ لها ما كان من سائق التاكسي فابتسمت وهي تقول: *الدنيا مليانة ناس طيبين، إنما انتِ كنتِ ليه زعلانة وانتِ راكبة معاه؟*

ـ يعني، كُنت في مشوار كده.

ـ مخبيّة عليَّ إيه يا نورا؟

ـ أبدًا يا خالتو، ولا حاجة.

طبعًا، لن أخبرها بما صارت إليه «أمل» وكيف أهانني اليوم كلامها، فهي في غنى عن مزيدٍ من المعاناة. تشاغلتُ عن مواصلة الكلام بأخذ الأكواب الفارغة إلى حوض المطبخ، وعند عودتي أمسكتْ خالتي «توحة» بكفي وهي جالسة على طرف الكنبة، وسألتني: مالك يا نورا؟

وقفت قبالتها لحظةً، متحيرةً، ثم اجتاحني الاضطراب وطفرت من عيني دموع لم أستطع منعها، وعبثًا حاولت التماسك والسكون فلم أستطع. هبطتُ على ركبتيَّ وألقيتُ نفسي في حضنها، فأحاطني ذراعها بحضنٍ عميمٍ فبكيت بصمتٍ حتى ابتلَّ جيب جلبابها «الكستور» الدافئ. في لحظة حانية، أحسستُ بقرب «نور» ومداعبتها لشعري ثم احتضانها لي من خلف ظهري، ضمَّتني إليها بقوةٍ من دون أن تنطق بكلمة، فصرنا نحن الثلاثة في حضنٍ واحد. نحن روح واحدة، تسري في ثلاثة أجيال مؤنثة، تتوارث الأسى وتصبو للمواساة. ثلاث إناث يفتقدن الشقَّ المذكَّر من الجوهر الإنساني: الأب والأخ والزوج. ويرضخن صاغراتٍ لقَدَرٍ مريرٍ لا فكاك منه، قَدَر تريد «أمل» أن تدفعه عنها بالجموح ومال الدعارة. فجأة، فككتُ الحضن الثلاثي الجامع بيننا وقلت بعينٍ دامعة:

ـ شوفي بأه يا خالتو، البنت الغلبانة دي مالهاش غيري، وأنا

غلبانة زيّها وماليش غيرك. ومن دلوقتِ ورايح هاقول لِك يا ماما، وإوعديني إنك ما تبعديش عننا، وتعتبريني بنتك.

ـ ربنا عالم يا نورا إني بحبك زي بنتي، وأكتر. بس...

ـ لأ، مافيش بس.

كأن قلبي كان يحدثني ويحرِّك لساني، فقد كان «الموضوع» الذي تُريد إخباري به، هو أن «الحاج حودة» صاحب البيت عَرَض عليها مبلغًا من المال أكبر، عشرين ألف جنيه، مقابل تنازلها له عن شقتها وإلغاء عقد الإيجار. قال لها ذلك صباح اليوم، فاحتارت ودار رأسها حتى أخذها النوم في غير الموعد، وحين أفاقت قررتْ أن تأخذ المبلغ وتترك خلفها الإسكندرية كلها، وتذهب للعيش مع أخيها وأسرته المقيمة في قرية «أبو المطامير» التي تبعد عن هنا ساعة مواصلات، وألف سنة حضارة. علا خفقان قلبي، خوفًا من الفراق، ثم استعدتُ سكينتي بسرعةٍ وقلتُ لها إنها لم ترَ أخاها هذا منذ زمن، لكنها ترانا كل يوم. ونحن أولى بها منه، لأننا أشد احتياجًا إليها. فتفكرتْ. أضفتُ أن صاحب البيت لابد له من أن يعرض عليَّ العرض ذاته، وساعتها نقبل ونستأجر معًا شقة بنظام الإيجار الجديد في «عمارة» جديدة، فندفع مثلًا ثلاثمائة جنيه كل شهر. وهو ما يضمن لنا الإقامة عدة سنوات، في مكان أفضل من هذا فوافقت. أضفتُ أننا سنكون سعداءَ حين نسكن معًا، وسوف نخرج في الإجازات إلى الحدائق وشواطئ البحر، لنرى الجانب المشرق من الحياة. ففرحت.

يوم الأربعاء، يعني في اليوم التالي، انتقلت «ماما» لتعيش معنا ونصبنا معًا سريرها في الغرفة القبلية، ودسسنا تحته ألواح وجوانب

سريري القديم، الصغير. تخلَّصتُ من معظم «الكراكيب» التي كانت بشقتها وجاءت معها بالتليفزيون الجديد، فصارت «نور» تحب هذه الغرفة وتنام فيها في بعض الليلات.. وبعد أسبوع اتصلت بي «ياسمينة» لتخبرني بأنها في الإسكندرية، وتودُّ رؤيتي، وأن أمها تدعوني مع «نور» للغداء في بيتهم يوم الجمعة، فكان اللقاء الذي غيَّر مسار حياتي تمامًا. ويوم الأربعاء السابق على دعوة الغداء، طلب «الحاج حودة» الجلوس معي وصعد إلينا في المساء، فدخلت نور وماما إلى الغرفة وتركانا في الصالة ليقدِّم لي العرض الذي كنا نتوقع أن يكون أكثر سخاءً من ذي قبل، نظرًا لأن عم «فوزي» الساكن في الطابق العلوي الثاني، حصل على ثلاثين ألف جنيه مقابل شقته.

لم يضيِّع الحاج «حودة» لحظة. فور مجيئي إليه بكوب الشاي بدأ كلامه بأن الحياة صارت صعبة، وأن هذا البيت لا سعر له ما دام فيه سكانه والإيجارات القديمة عديمة النفع، فإذا وافقتُ، صار بمستطاعه أن يعطي البيت لمقاول يهدمه ويبني مكانه «عمارة» من سبعة أدوار، تحتها دكانان. طبعًا سيكون البناء مخالفًا لأن الزقاق ضيق، لكن المقاول سوف يتصرف في الأمر وسيدفع في خاتمة المطاف الغرامة المقرَّرة. كنتُ أعرف كل ذلك، والكل يعرفه. أضاف: *بصراحة كده، أنا بعت البيت خلاص، ونصيبي أنا وعيالي ٢٠٠ ألف، قلت آخد نصُّهم شقة في العمارة الجديدة، والنص التاني فلوس علشان ادفع للسكان. خالتك «توحة» خدت عشرين علشان مطرحها صُغير، وفوزي أخد تلاتين، وانتِ هتاخدي برضه تلاتين، ويبقى الكل مَرْضي.*

ـ وهتروح فين بعيالك يا عم حودة؟

ـ المقاول هيوفر لنا مطرح، لحد ما يهدّ ويبني. ونصيبي في الشغلانة داخل فيه دكان من الاتنين، هاجيب فيه بضاعة بالعشرين ألف إلّ هتفضل معاي.

ـ طيب يا عم حودة، ممكن أقبل المبلغ وأتنازلك، بس تديني فرصة شهرين لحد ما أشوف مكان تاني للسكن.

ـ معلش يا نورا، شهر واحد بس. أصل الراجل المقاول مستعجل وعايز يلحق يخلّص الشغلانة دي قبل الصيف، علشان مشاكله كتير.

ـ طيب، ربنا يسهّل.

ـ خلاص، بكرة الصبح نروح البنك مع المقاول والمحامي، تاخدي الفلوس، وتمضي قدامهم ورق التنازل.

* * *

يوم الخميس، في الساعة التاسعة صباحًا أخذَنا المقاول بسيارته إلى شارع «سيزوستريس» حيث البنك المزدحم، المحاط بالبنوك الكثيرة.. في طريقي من البيت إلى سيارة المقاول القديمة، شعرتُ بأن الجيران كلهم يحدِّقون نحوي بعيون تتكلم بغير نطق. وفي الطريق إلى البنك جال بخاطري أنهم لم يحدِّقوا فيَّ، ولم يروني أصلًا، وإنما كانوا ينظرون إلى ما بداخلهم.. إلى «بنت المرحوم عبد السلام» الذاهبة لبيع البيت الذي فيه وُلدت وعاشت خمسًا وثلاثين من السنين العجاف.. إلى البنت «نورا» السنيورة التي كانت في منتصف عمرها زهرةً تخطر بينهم بقوام غزالةٍ، وصارت اليوم معزاةً

ملفوفة بأرديةٍ فضفاضةٍ مترهلة.. إلى السِّت «أم نور» المتهيئة لمفارقة جيرة الحيّ وعِشرة العمر، نظير مبلغ كبير هبط إليها من فوق السماء.. أو نبع فجأة من تحت الأرض! لا شيء يهبط من هناك أو ينبع من هنا، إلا مياهُ المطر وفورانُ العيون والآبار. ولستُ سوى غريقةٍ في هذا الغمر، يتلاطم حولها موجٌ كالجبال.

في بهو البنك الكبير استلمت منهم المبلغ ووقَّعتُ لهم على الأوراق، فذهبوا بها وتركوني خلفهم لأفتح حسابًا باسمي أودعُ فيه المال الذي أودِّع به حياتي السابقة، وداعًا غير حارٍّ. إذ ليس فيها ما يستحق الأسف على فواته.. استبقيتُ معي ألفي جنيه، لزوم استئجار شقة ونقل الأثاث إليها. قد ندفع شهريًّا للشقة المستأجرة بالنظام الجديد ثلاثمائة جنيه، بدلًا من الجنيهات الثلاثة التي كنتُ أدفعها وفقًا لنظام الإيجار القديم، لكننا بالتأكيد سوف نعيش في مكانٍ أفضل ومبنى أحدث، وسوف يكون لنا جيرانٌ جُدد وحياةٌ جديدة. يجب أن أستبشر بالآتي. من أمام البنك ركبتُ سيارة أجرة، فدخلتُ الشقة لحظة أذان الظهر، ووقفتُ وحدي أتأمل الجدران القديمة والأثاث المتهالك والذكريات الكثيرة. تحررتُ من حجابي وبدَّلتُ ملابسي وتمنيتُ أن أستسلم للنعاس، ولو ساعة، لكن ماما «توحة» عادت بابنتي من مدرستها فامتلأ المكان صخبًا طرد عني النعاس.

أخبراني بأنهما اتفقا في الطريق على أن «نور» سوف تناديها باسم «تيته توحة» فابتسمتُ، وجلسنا على سريري نحن الثلاث وانهمكنا في وضع الخطط المستقبلية. غدًا سأذهب مع «نور» لزيارة «ياسمينة» والغداء معها، وبعد عودتنا ستقوم «نور» بكتابة واجبها المدرسي ونقوم نحن بتجهيز أغراضنا تمهيدًا للرحيل عن هنا. ويوم السبت

سآخذ «نور» إلى مدرستها وأنطلق في رحلة البحث عن شقة للإيجار اعتمادًا على المعروض في جريدة «الوسيط» وعلى ما سيعرضه عليَّ السماسرة. سيكون عقد الإيجار باسم «توحة» باعتبارها الأم والجدة، لأن المُلاك لن يرحُبوا بتأجير أماكنهم لامرأةٍ في منتصف العمر، تفاديًا لإثارة الشكوك. سوف أبحث في منطقتي «محرم بك» و«غيط العنب» القريبتين من المدرسة. سأبحثُ أولًا في «محرم بك» لأنها أرقى نسبيًّا وأوسع شوارعَ وأنظف أزقة. شقق الإيجار بالنظام الجديد بعضها يكون خاليًا من الأثاث، ولابد من نقل كل ما يوجد هنا إلى هناك. وبعضها الآخر يُستأجر مفروشًا، وفي تلك الحالة لن نأخذ من هنا إلا القليل، والباقي نبيعه. من المتوقع أن يستمر البحث أسبوعًا أو اثنين، وخلال ذلك سوف تتولى «تيته توحة» إحضار «نور» من مدرستها كل يوم. وبعد استقرارنا في السكن الجديد سوف أطلب من مدام «كاميليا» كمية عمل أكبر، وتساعدني «توحة» في التطريز، فنضمن دخلًا إضافيًّا نستعين به على تكاليف الحياة، ولا نُضطر إلى السحب من المبلغ المحفوظ بالبنك: *أيوه يا نورا لازم نشتغل إحنا الاتنين وننسى الفلوس دي، ما حدش عارف الدنيا مخبية إيه*، وقال على رأي المثل: *خُد من التَّل، يختلّ.*

كانت «نور» تشاركنا في وضع الخطط، بعينيها الواسعتين وإحساسها بأنها كبرت! عرفتُ ذلك حين نظرتُ باسمةً إليها. فقالت حبيبة قلبي: *أنا يا ماما لما كنت صغيرة، ماكنتش بفهم الكلام إلّ زي ده، بس دلوقتِ أنا فاهمة كل حاجة*. سألتها:

ـ فاهمة إيه يا نور؟

ـ كل حاجة.. إحنا خلاص هنعزِّل من الحتة الوحشة دي، وهنروح حتة أحسن، وحياتنا هناك هتبقى حلوة.

ـ شفتِ يا نورا، البنت بتتكلم زيك لمَّا كنتِ صُغيرة. هاتي بوسة يا نور لتيته توحة.

وهكذا انتهى اجتماعنا المطول بحضنٍ كبير، جامع، وبخططٍ محكمةٍ كثيرة.. لكن الغد كان يخفي لنا خططًا أخرى، مغايرة.

* * *

يوم الجمعة ارتدينا أفضل ما لدينا، وذهبنا إلى منطقة «لوران» في تاكسي، كانت «نور» مبتهجة جدًّا، ربما بالملابس الجديدة التي جعلتها كالأميرات، وربما لأن قلبها الطاهر كان يشعر بما سيجري. ساعة جلوسنا على مائدة الغداء الأنيقة، التزمت «نور» بكل ما اتفقنا عليه من عدم الانطلاق في الشقة الفسيحة والإقلال من الكلام بقدر المستطاع، والتمهل عند الأكل بالشوكة والسكين.

جلسنا في البداية ساعةً في غرفة «ياسمينة» الأوسع من شقتنا، فأخبرتني خلالها بالكثير: موضوع «رءوف» يبدو أنه لا أمل فيه، لأن القضايا تبقى في محكمة النقض سنوات وقد يقضي العقوبة الظالمة قبل أن تبت المحكمة في الأمر. الأسبوع الماضي قامت بزيارته في السجن مع أخته، فوجدت شخصًا آخر غير الذي عرفته، وتأكَّدت من أنه صار حطامًا ولن يعود مثلما كان. الحياة في مصر لا تطاق، وهي الآن تسعى للحصول على الجنسية البريطانية كي تشعر بآدميتها، ومن حسن حظها أن أباها درس سابقًا في «كامبردج» واجتهد حتى صار مزدوج الجنسية. زوج خالتها أوجد لها وظيفة جيدة في مكتب

محاماة بريطاني، يعمل في مجال التحكيم الدولي وفض المنازعات التجارية، وكانوا يبحثون عن شخص يجيد العربية لأن عندهم أعمالًا عديدة في منطقة «الميدل إيست».. اتصلتْ بها أمها تليفونيًّا من غرفة مجاورة، لتخبرها بأن سفرة الطعام جاهزة، فختمت كلامها معي بقولها: وفيه موضوع كده يا نونو، بابا هيقولك عليه بعد الغدا.

خرجنا من غرفة «ياسمينة» إلى سُفرة الطعام الفاخرة، كأننا ننتقل من بيتٍ إلى بيتٍ آخر. شقتهم فسيحةٌ ومتأنّقة الأنحاء. من حسن حظي أن «نور» لم تُظهر الانبهار لانشغالها بجهاز «الفيديو جيم» الذي أُهديَ إليها، فاستحوذ على اهتمامها الطفولي كله.. خلال جلوسنا على مائدة الطعام، كان أبو «ياسمينة» الذي سأناديه في السنوات التالية بلقب الدكتور، يرمقني بعينٍ طيبةٍ ومتفحِّصة. ملامحه الواضحة تدل فعلًا على أنه دكتور مهندس يحمل الجنسيتين المصرية والبريطانية، وتؤكِّد أنه لم يعرف في حياته شظف العيش ومحن الحياة الطاحنة. ونحن نحتسي الشاي في ناحيةٍ فخمة من منزلهم، سألني إن كنتُ أجيد الإنجليزية، فأجبته بالإيجاب، وتطوَّعت «ياسمينة» بإضافة أنني أقرأ كثيرًا بالإنجليزية، وأنني أُعد رسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا ومعظم مراجعي بالإنجليزية. ابتسم أبوها وهو يقول لي إن سكرتيرة مكتبه الهندسي الذي في الدور الأول من عمارتهم هذه، سوف تترك العمل معهم منتصف الشهر القادم وقد رشحتني «سمسمة»، يقصد ياسمينة، للعمل في مكانها.

ألجمتني المفاجأة، وأسعدتني، فابتسمتُ متردِّدةً قبل أن أردَّ عليه بأن العمل معه شرفٌ كبير لي. قال إن مواعيد العمل بالنسبة لي ستكون من التاسعة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، خمسة أيام في

الأسبوع، لأن الجمعة والسبت إجازة أسبوعية. وسأكون مسؤولة عن أمور كثيرة تحتاج اجتهادًا وتركيزًا كبيرًا، وراتبي الشهري سيكون في البداية ألفيْن وخمسمائة جنيه.. قامت «ياسمينة» كفراشةٍ وجلستْ في حجر أبيها كطفلةٍ وهمست بشيءٍ في أذنه، فضحك وهو يحوطها بذراعه اليسرى ويقول لي: خلاص يا نورا، صدرتْ الأوامر، *المرتب هيكون ٣٠٠٠ جنيه ويزيد سنويًّا بنسبة من عشرة لعشرين في المية، حسب شطارتك وكمية الشغل المطلوب منك، وياريت نبدأ بسرعة على طول علشان تلحقي تفهمي طبيعة الشغل من «نانسي» قبل ما تسيب الشغل وتسافر.*

ـ حاضر يا دكتور، من يوم الحد الجاي، هاكون تحت أمر حضرتك الساعة تسعة الصبح.

ـ أيوه، هُوَّ ده الكلام. أنا أحب الناس المتحمسين، بس مش لازم بعد بكرة، ممكن نبدأ أول الشهر، يعني يوم الأربع. علشان «نانسي» يكون عندها فرصة يومين تجهِّز ملفات المشاريع والأوراق قبل ما تسلِّمها لك. وربنا يوفَّقك، أشوفك على خير في المكتب.

في طريق العودة من لوران إلى كرموز أشبعتُ «نور» احتضانًا وتقبيلًا، كنتُ مستبشرةً وفَرِحة ففرحتْ لفرحي، لكنها لم تنشغل عن اللعب بالجهاز الذي بين يديها الصغيرتين. معذورة، لو كان لي في مثل سنها لعبة كهذه، لانشغلت بها عن الدنيا وما فيها. سأتركها تتهنَّى بها يومين، ثم أُنظِّم لها أوقات اللعب كيلا تهمل واجباتها المدرسية. فور عودتي حكيتُ لأحلى «توحة» أحلى الأخبار، وعقدنا اجتماعًا

ثنائيًا فوق سريري لتعديل الخطط التي رسمناها بالأمس، لتناسب الحال الجديد. فكان من أهم نتائج الاجتماع المبهج، أننا لابد أن نسكن قرب مقر عملي الجديد، ثم نبحث عن أقرب مدرسة ابتدائية وننقل «نور» إليها.. كانت «نور» مشغولة عنا بلعبتها.

* * *

صباح السبت ذهبتُ بابنتي إلى مدرستها وجريدة «الوسيط» بيدي، وبقلبي خفقانٌ يتعالى.. بدأتُ رحلة البحث من حيٍّ لوران ثم نواحي «جليم» وانتهى بي التطواف عصرًا عند هذه الشقة الجميلة بشارع «الهداية» الواصل بين البحر وشريط الترام. هي الأنسب لنا. في مدخل البيت ذي الطوابق الأربعة مساحةٌ صغيرة كانت سابقًا حديقةً تبقّى منها شجرتان، والشقة في الطابق الأول المرتفع عن الأرض بخمس درجات، فيها صالة وثلاث غرف، اثنتان منها ذواتا شرفةٍ مشتركةٍ تطلّ على الشجرتين، والمطبخ واسع وله بابٌ يُغلق عند اللزوم، وفيها حمَّامان، أحدهما كبير وفيه «بانيو» يمكن أن تلهو فيه «نور» أيام الصيف. في الشقة فرشٌ مناسبٌ، ليس متواضعًا وليس فاخرًا، وستائرها تنسدل برقةٍ آسرةٍ وبساطةٍ تخطف العين، وطلاءُ الحوائط جديد. أخبرني البوابُ بأن إيجارها الشهري خمسمائة جنيه، وصاحبتها «مدام سامية» تسكن في الطابق الأعلى، والطابقيْن الثالث والأخير تسكنهما أسرتان لا يُسمع لهما حِسٌّ. هكذا قال وهو يصعد بي لمقابلة مدام «سامية» الطيبة البدينة التي سألتني عمَّن سوف يُقيم بالشقة معي، فقلتُ: خالتي وابنتي فقط، واستفسرت عن عمر ابنتي فقلتُ: ثماني سنوات، وعن أبيها، فسكتُّ محرجةً ثم قلتُ: إننا نعيش وحدنا وليس لنا أقارب تقريبًا ولا يزورنا أحدٌ إلا نادرًا جدًّا. وأخيرًا

سألتني عن عملي، فقلت بفخرٍ هادئ: إنني سكرتيرة بمكتب هندسي في «الوران» وأقوم بعمل رسالة ماجستير في كلية الآداب، فطلبتُ من خادمتها إحضار الشاي، وبدا الرضا على ملامحها.

الساعة الثامنة مساءً، بحسب الموعد، عدتُ إليها ومعي ابنتي وخالتي التي وقَّعت معها عقد الإيجار لمدة عامين قابلين للتجديد بموافقة الطرفين، وبزيادة عشرة بالمائة من قيمة الإيجار. ودفعتُ لها ألف جنيه قيمة إيجار شهرين برسم التأمين، وخمسمائة جنيه إيجار الشهر الذي سوف يبدأ بعد ثلاثة أيام قالت «مدام سامية» إنها هديةٌ فلا إيجار لها، وأعطتنا المفتاح ونصحتني بتغيير المغلاق المسمى «الطبلة» ففعلتُ ذلك في الصباح التالي. حين دخلنا الشقة حوالي الساعة التاسعة ونصف مساءً، أخذَنا شيء من الوجوم لدقيقةٍ، ثم ابتسمنا نحن الثلاث كمن ورث كنزًا، ثم ضحكنا ونحن نتنقل بين أنحاء الشقة المضاءة أنوارها كلها. لا أعرف كيف أصف هذا الشعور الغريب المفرح! كنتُ أريد أن أبكي وأن أضحك، وأريد أن أفيق من الإحساس بأنني أحلم.. أخيرًا، ستكون لي وظيفةٌ راتبها كافٍ، وشقةٌ أنيقةٌ رحبةُ الأنحاء، وأسرةٌ.

أنا سعيدة.

* * *

الليلة الأخيرة لنا في كرموز، كانت كلها قلقٌ وليس فيها نومٌ متصل. تشبه ليل المسافرين بالقطار من الإسكندرية إلى أسوان. طبعًا «نور» نامت فور وصولنا، على سريري، أما أنا و«توحة» التي وصفتها في طريق رجوعنا بأنها «وِش الخير» فقد جلسنا في الصالة

الضيقة تحدِّق كل واحدةٍ منا في الأخرى حينًا، وتضحك، حتى قمتُ وطرحت عني طرحة رأسي ورُحت أدور في الصالة مثل فراشةٍ مبتهجة، ثم أخذت «توحة» من يدها ورقصت بها رقصة الفراشات. حين تحتدم من حولي الحرائق أصير كالسمندل الذي لا تحرقه النار، فإذا امتلأتْ أرضي ورودًا رُحتُ أحلِّق كالفراشات. في داخلي السمندل والفراشة.

«توحة» أفلتت مني يدها وانفلتت إلى الغرفة القبلية، وهي تريح عن رأسها حجابها. جاءت إليَّ بكيسٍ أسود فيه العشرون ألف جنيه التي تملكها، وطلبت مني أن أضعها في حسابي بالبنك فقلت لها إن الأصوب أن نفتح لها حسابًا باسمها. قطبت حاجبيها وهي تقول عاتبةً: *ليه يا نورا ما احنا قلنا إننا بنت وأمها، ليه بأه بتعملي فَرْق؟*

ـ يا حبيبة قلبي مُش فَرْق ولا حاجة، بس افرضي إن حصَلي أي حاجة، هتصرَّفي إزاي؟

ـ بعد الشر عليكِ يا نورا، فداكِ الدنيا كلها. وعمومًا، خلِّي نصهم معاكِ ونحط في البنك النص التاني، ويبقى كده مسكنا العصايا من نصها.

ـ حاضر يا أحلى ماما، بس برضه انتِ إلِّ هتمسكي مصروف البيت، يعني الفلوس كده كده هتبقى معاكِ. كفاية نخلي معانا منهم ألفين جنيه، وبكرة نروح البنك ونعملك حساب نحط فيه الباقي.

ـ هُوَّ إحنا بكرة هنعمل إيه ولا إيه.

يوم الأحد كان بالفعل حافلًا، في الصباح الباكر حزمنا ملابسنا وكتبي والمواعين، وجمعناها في الصالة ومعها التلفزيون الجديد. وفي التاسعة صباحًا كنا في البنك، وبعد ساعة كنا في شارع العطارين لنصطحب الرجل الذي سيشتري أثاثنا القديم كله، وكانت «نور» معنا. لم تذهب إلى المدرسة. فور خروجنا من البنك قالت «توحة» لي: حاجة عجيبة يعني إحنا نديهم ١٨ ألف وناخد حتة ورقة مكتوب فيها نمرة! قلت لها إنه رقم حسابها ونقودها محفوظة فيه، فقالت: *طيب افرضي جه يوم وقالوا للناس مفيش فلوس ومالكمش عندنا أي حاجة!*

ـ آه، ده يبقى يوم القيامة.

تاجر «الروبابكيا» اشترى الحطام الذي كان بالشقتين كله، بألف وخمسمائة جنيه، وجاء بعمالٍ ليأخذوا ما اشتراه في الوقت الذي جاءت فيه السيارة المسماة «ربع نقل» لتأخذ أغراضنا إلى دنيانا الجديدة. لم يستغرق وداعنا جيرة كرموز إلا دقائق. وصلنا الساعة الثالثة ظهرًا فأدخلنا ما معنا وبدأنا تنظيف الشقة الجميلة وترتيب الغرف، فاستغرق ذلك خمس ساعات. بعدما انتهينا قلت لنور أن تبقى مع «تيته توحة» إلى أن أحضر لنا طعامًا شهيًا. اشتريت مشويات من «الكبابجي» الذي بآخر شارع الهداية، وبقالةً من المحل الذي قبالته.. ونحن نلتهم طعامنا بنهم لا حدود له، خَطَرت على بال «توحة» ملاحظةٌ عجيبة فسألتني: *إنتِ مُش ملاحظة يا نورا إننا من ساعة ما جينا هنا، ما سمعناش صوت أدان! هِيَّ الحتت النضيفة دي سكانها كلهم كُفَّار ولَّا إيه؟*

ـ لا ياروح قلبي، معظمهم مسلمين بس بيفهموا وما بيحبُّوش الدوشة الفاضية، وفيه جامع كبير في آخر الشارع، إنما صوته واطي مايوصلش لحد هنا.

ـ يعني ماحدِّش بيفكرهُم بربنا، علشان كده مفيش هنا عيال بجلاليب ودقون. طيب، ما علينا، قولي لي يا نورا إحنا هنا قريبين م البحر، صح؟

ـ طبعًا، كام خطوة. بكرة الصبح نروح نتمشى ع البحر، الجو شكله هيبقى حلو.

ـ كل حاجة هنا يا ماما شكلها حلو.

ضحكنا من عبارة «نور» كأننا لم نفرح من قبل، ونحن فعلًا لم نفرح مثل هذه الفرحة من قبل. ولم ننعم بهدوءٍ، ولم ننم بعمق، ولم نشعر بآدميتنا. كانت أحلامي في تلك الليلة الأولى هانئة، لكنني لم أذكر منها أيَّ شيء في الصباح. كانت «نور» سعيدة لأنها لم تذهب للمدرسة لليوم الثاني على التوالي، ولأنها تسمع زقزقة عصافير، ولأننا سنخرج إلى البحر.

شمسُ الشتاء ناعمةُ اللمسات ومبهجة، ولسعةُ البرد الخفيفة في الهواء تزيد القلب فرحةً. البحرُ ناصع الزُّرقة، والكورنيش نظيف. سرنا معًا بخطى غزلانية الإيقاع، سعيداتٍ وصامتاتٍ، وحولنا فضاءٌ فسيح. لا أدري ما الذي يدور بعقل «نور» الصغيرة ولا برأس «توحة» التي كانت قد نسيت السعادة، ولم أسألهما عما فيه تفكران، فقد كنتُ مأخوذةً بالجمال المحيط بي. وبالسؤال: هل بدأ البدائيون

من البشر تفكيرهم في «الإله» حين لاحظوا جمال الطبيعة، أم حين هزمهم ضعفهم!

لابد لي من استكمال قراءة «الغصن الذهبي» ولابد أن أتصل بـ د. أبو اليزيد لأعيد عملي في الرسالة، ولابد لي أن أستعيد ذاتي.. سرنا على الكورنيش من عند كوبري «ستانلي» إلى شاطئ «جليم» حيث الحديقة التي أراها لأول مرة، وبالأحرى أكون فيها للمرة الأولى. أخذتني خضرةُ النجيل مع الشجر مع زرقة البحر مع طزاجة الهواء، إلى أنحاء بعيدة وزوايا داخلية دقيقة. لا أدري ما الذي دهاني، فدعاني في لحظةٍ مفاجئةٍ وحاسمة إلى الوقوف قبالة البحر عند طرف اللسان الصخري لحديقة «جليم» البحرية. وبعد هنيهةٍ من ذهول رفعتُ يديَّ وخلعتُ عني حجابي.. دستُ الطرحة في شنطة يدي، وسط ذهولهما الباسم. أنا لستُ هذا القماش الرخو. غُصتُ بأطراف أناملي في جوف شعري الذي كان معصوبًا كله، وبطريقة الكاهنات القديمات نثرته حول رأسي، مثلما كنتُ أفعل أيام إيماني بي. دخل الهواءُ البحري بين منابت شعري ولمس رأسي، فأحسست بسريان الحياة في أنحائي. لا حياةَ، إلا بحُرية الرءوس مما بداخلها، ومما يغطِّيها ويحجب عنها ضوء الشمس. أنا الآن حية لأنني حرة، من حجابي ومن بؤس ما سبق ومن خوف الأيام المقبلة. حتى لو واجهت الفشل في وظيفتي التي سأبدؤها بعد غدٍ، فسوف أبحث عن وظيفة غيرها فأنجح فيها. سأظل أحاول حتى أنجح، ولسوف أحصل على درجة الدكتوراه، وسأكون أنا.

قالت نور: *شكلك كده أحلى يا ماما*. وقالت توحة: ربنا يستر *يا نورا يا* بتي. وقلت لنفسي: مهما جرى فسأبقى دومًا كما أريد، لن

أتواري، ولن يخجلني كوني امرأة، ولن أطمر عليَّ الهلاهيل. لستُ عورةً كما يزعم بعضُ الجهلة المشوَّهين، الذين وجدوا لأنفسهم أتباعًا من الجهلة والمشوهين. أنوثتي أغلى من أن تُبتذل، وأعلى من أن تحتقر، وأقوى من أن يستهان بها. سأحتضن آلامي السابقة وذكرياتي، وأتجاوزها كلها، وأطير بأجنحة الحرية نحو غدي.

أنا حُرة.

* * *

يومِ الاثنين أيضًا كان حافلًا، فقد كان أمامي مهام أربعةٌ متغايرة، متصلةٌ منفصلة مثل فصول السنة. في الصباح أخذتُ «نور» معي إلى المدرسة القريبة لأرى إمكان نقلها إليها، فقابلتُ هناك بالصدفة إحدى زميلاتي في الجامعة. كنتُ قد نسيتُ لوهلةٍ اسمها فذكَّرتني به قائلة: أنا نيِّرة! فقلت لها من فوري ما معناه: *طبعًا*، نيِّرة حسن مرسي، *كان اسمك يكتب بعد اسمي مباشرة في كشوف الامتحانات والنتيجة*.

هي تعمل مُدرسة «تاريخ» بالمرحلة الإعدادية، فالمدرسة تضمُّ المراحل كلها حتى الثانوية، وليس فيها إلا البنات اليانعات كالزهرات. يبدأن فيها من مرحلة الحضانة، حتى يخرجن منها إلى الجامعة. المدرسةُ رحبةٌ فسيحةُ الأنحاء، ومبانيها أنيقةٌ معتنى بها، وبجوارها بيتٌ لراهبات أجنبيات الملامح يرتدين زيًّا رماديًّا، يسمونهنَّ هنا «سيرات» أي الأخوات بالفرنسية. أخذتني «نيِّرة» إلى مكتب المديرة فعرضتُ عليها طلب النقل، فكانت لطيفة وهي تقول إن ذلك الآن غير ممكن لأن السنة الدراسية توشك على الانتهاء،

وبالإمكان أن نفعل ذلك في إجازة الصيف بحيث تبدأ «نور» مع بداية العام القادم صفَّها الثالث الابتدائي. أضافت أن عليها في الإجازة الصيفية القادمة أن تتعلم بعضًا من مبادئ وكلمات اللغة الفرنسية، كيلا تتخلف عن مستوى بقية التلميذات، فأعلنت «نيِّرة» متحمسةً أنها سوف تساعدني بحيث تعوِّض «نور» ما فاتها في العامين الأول والثاني الابتدائي، وهو قَدْرٌ قليل يمكن ملاحقته خلال أشهر الصيف الثلاثة.. خرجتُ من المدرسة راضية، وكانت «نور» مبتهجة لأنها ستلتحق بهذه المدرسة الفخمة. اسمها: جيرار.

شكرتُ «نيِّرة» وتبادلنا أرقام الهواتف، ومن أمام الباب الكبير للمدرسة ذات البوابات الثلاث، ركبتُ مع نور «تاكسي» أخذنا إلى مدرسة راغب التجريبية للغات، لمقابلة المدير، وبعد أقل من نصف ساعة كنا هناك. خلال الطريق عاودت «نور» انشغالها بلعبتها وكنتُ مشغولة عنها وعني بالغرق في بحار الأفكار: التغيرات المتلاحقة هذه تحتاج مني الحرص والانتباه التام لكل التفصيلات، ولابد لي من العناية بنفسي وشراء ملابس جديدة تناسب حياتي الجديدة وخروجي متحرِّرة من الحجاب. «نيِّرة» بدت أصغر مني بعدة سنوات لأنها أنحفُ قوامًا مني وأكثرُ أناقة، ولا تجد حرجًا في ارتداء ملابس الشابات. فما لي ألتحفُ بأردية الأمهات! نعم أنا أمٌّ، لكنني شابةٌ أيضًا. هه، وداعًا للعباءات وأهلًا بارتداء البنطلونات والتيشرتات وأحدث الموديلات، الوقورة، مناسبة الأسعار، اللائقة بمدام «نورا» السنيورة.. أخرجتُ من شنطتي المرآة الصغيرة وتأملتُ وجهي لحظةً، راضيةً، حتى خطر على بالي السؤال: ماذا لو رآني الآن أحدُ الجيران السابقين، بلا حجاب؟ ماذا؟ لا شيء إطلاقًا. ليراني مَنْ

يرى، فليس لأحدٍ حقٌّ في محاسبتي على مظهري أو أفكاري، أنا لا أتعدَّى فأتخطَّى الحدود مع الآخرين، ولن أسمح لهم بالتعدِّي على حدودي. أراحتني هذه الفكرة المفاجئة. لما مَرَّ بنا التاكسي عبر شارع «إيزيس» سألتني «نور» بنبرة قلق: *ماما إحنا رايحين البيت القديم؟* بعد يومين فقط على فراقه، اعتبرته قديمًا! قلت لها: *لا يا حبيبتي، رايحين مدرستك علشان نشوف موضوع التحويل.*

ناظر المدرسة، الخمسيني، بعدما استمع لي بإنصاتٍ قال إن المسألة في غاية البساطة، فابتسمتُ، فارتاحتْ ملامحه. أضاف أن العام الدراسي سينتهي بعد أقل من شهرين، ويمكنه التغاضي عن حضور «نور» خلالهما، لكنها بالطبع لابد أن تحضر امتحان آخر العام لاستكمال الشكل، ثم نسحب ملفًّها من هنا ونقدِّمه إلى المدرسة الأخرى. تجاهلتُ نظراته المفصحة عن أحواله وأهوائه النمطية، ولم أتجاوب مع حديثه عنا بصيغة الجمع كأننا على صلةٍ وثيقة، مع أنني لم أره قبل اليوم قط. ولن أراه أبدًا. لأنني سأرسل «نور» إلى الامتحان مع «توحة» وبعد ذلك أطلب من مدام «بدرية» جارتنا القديمة، سَحْبَ الملف.

سَحَبَ الناظرُ الضئيلُ من أمامه، بطريقةٍ مسرحية، بطاقةً صغيرةً مدَّها نحوي وملامحه تفيض بما يخفيه، وقال: *الكارت بتاعي، كلميني في أي وقت، تلاقيني تحت أمر حضرتك في أي حاجة، وياريت رقم تليفونك علشان أسجِّله عندي، أصلي ما بردش على الأرقام الغريبة.*

الرجال لا يتطوَّرون. أعطيته رقم «توحة» قائلة إنه تليفون أمي،

لأنني لا أميل إلى استعمال التليفون المحمول لأنه يسبب لي الصداع. ارتبك. قلتُ له إنني سأتصل به بعد شهر لمتابعة الحال، فقال إن هذا ضروري جدًّا، ولو اتصلتُ به قبل شهرٍ فيكون أفضل! شكرته على لطفه، وخرجت من مكتبه بيدي «نور» وعندي شعورٌ أكيد بأنه يحدِّق فيَّ من الخلف ، فيريح عينيه حيث ترتاح أنظار أمثاله. الرجالُ هم الرجال، مهما تقدَّمت بهم الأعمارُ وفقدوا الرونق.

أعدتُ «نور» إلى بيتنا الجديد، وتناولتُ على عجل الغداء الشهي الذي أعدته «توحة» وخرجتُ إلى المهمة الثالثة: مقابلة أستاذي الدكتور «أبو اليزيد» كي أستأذنه في معاودة العمل برسالتي للماجستير. كنتُ قد اتصلتُ به تليفونيًّا في الليلة السابقة، وعرفتُ منه أنه تعرَّض لكسرٍ بسيط في ساقه المحفوظة الآن في جبيرة الجبس وسيبقى شهرًا آخر لا يفارق البيت، ويمكنني زيارته غدًا في تمام الخامسة عصرًا. هو دقيق في المواعيد لأنه درس في إنجلترا على يد عالم إنجليزي شهير. في بيته الواسع البسيط المختبئ مبناه خلف الكتلة الخرسانية الخرساء، الجاثمة، المسماة «مول سان إستيفانو» فتحتْ لي الباب حفيدته «سلمى» الطالبة بكلية الطب، وأخذتني إلى حجرة مكتبه. كان جالسًا وبين يديه كتابٌ صغيرٌ وضعه إلى جواره حين دخلتُ عليه ومددت يدي للسلام، فسلَّم وهو يضحك ضحكته اللطيفة ويقول: *أخيرًا، كنت فاكر إني هموت قبل ما أشوفك تاني.*

ـ بعد الشر عليك يا فندم، ربنا يدِّيك طولة العمر.

ـ هه، دي دعوة ليَّ ولَّا دعوة عليَّ!

ـ ليك طبعًا يا دكتور، ولينا كمان. إلّ زي حضرتك، هُمَّ بيخلّوا للحياة معنى.

ـ طيب يا ستي، اقعدي. تشربي إيه؟

لمحتُ قبل جلوسي على الكرسي المقابل لأريكته الصغيرة، عنوان الكتاب الذي كان يقرأ فيه، فابتسمتُ. الكتاب بالإنجليزية وترجمة عنوانه «من كافر إلى كُفَّار» وغلافه أنيق. قال إنها طبعة تذكارية من كتاب زميلٍ قديم له، بريطاني، توفيَ العام الماضي فأراد تلامذته هناك إحياء ذكراه بإصدار هذه الطبعة. سألته إن كان الكتاب مفيدًا، فأجاب بأنه لم يجد فيه جديدًا إلا بعض اجتهادات في تفسير آراء الفيلسوف القديم «أجريبا» وما عدا ذلك معتاد. سَكَتَ لحظةً ثم أضاف أن مشكلة هؤلاء المجاهرين بالإلحاد، أنهم زاعقون بشكل مزعج، لدرجة تجعلهم أحيانًا مُنفرين من كثرة صخبهم وإصرارهم على إثبات وجهة نظرهم. سألته عن السبب في تلك الظاهرة فقال وهو يضحك: *يمكن علشان متغاظين إنهم كانوا قبل كده مضحوك عليهم، مع أن المؤلف ده كان ملحدًا من أيام ما كُنّا بندرس هناك في الخمسينيات، ياه، يعني أكتر من نصف قرن.*

دخلت خادمته العجوز علينا بصينيةٍ فهممتُ إليها وأخذتُ الفنجانين، ووضعتهما أمامه وأمامي. قال لها: شكرًا يا أمَّ صابر. وقال لي إنه لابد من دراسةٍ أكاديميةٍ لتحليل مضمون الأسماء المصرية، فهذا التحليل مهم في استكشاف رؤى العالم غير المعبَّر عنها، فمثلًا اسم «صابر» يدل على إدراك أهله أن الأمور لن تنصلح في المدى المنظور، ونظرًا لاعتقادهم هذا سمّوا المولود «صابر». وكانوا قبل

ذلك بجيلٍ أو جيلَيْن، يستعملون للمواليد أسماء أكثر دلالة على الواقع الأصعب، مثل: مستجير، مظلوم، عبد المغيث، محجوب.

ـ بس يا دكتور فيه كمان أسماء زي: سلطان، أمير، والي، أميرة..

ـ دي يمكن تكون تعبير عن الأحلام المستحيلة.

ـ طيب يا دكتور، واسم نورا؟

ـ أظن الأصل فيه بالتاء المربوطة، يعني النورة أو زهرة الثمرة. يمكن، بس اسمك ده موجود في لغات كتير.

سألني عما أقرأ حاليًا، فقلت إنني أعيد قراءة «الغصن الذهبي» عساي أفهمه بالكامل هذه المرة، فضحك وهو يقول إن هذا التفاؤل شيء إيجابي! وأخبرني بأنه قرأ الأسبوع الماضي كتابًا مهمًا، ومن الممكن أن يُعيرني إياه إذا أحببت، هو تحليل لنتائج برنامج الشفرة الوراثية وتسلسل الحمض النووي، بناءً على نظرية التزاوج بين إنسان «نياندرتال» والإنسان المعاصر. قلت له إنني كنت قبل أيام قليلة أفكر في حقيقة «آدم» فعاد بظهره إلى الوراء وهو يقول: *اتَّضح إنه كان هناك أوادم كتير. المهم، إنتِ كنتِ فين طول المدة إلّ فاتت دي؟*

حكيتُ له طرفًا مما جرى معي خلال السنوات الثماني، وأخبرته بأنني نزعت عني «الحجاب» منذ يومين فقط، فقال إنه لم يلحظ ذلك لأنه لم يرني منذ سنوات. ومن الطبيعي أن ينسى التفصيلات غير المهمة، لكنه يتذكر جيدًا حزني الشديد في آخر لقاءٍ جرى بيننا في الكلية. سكت قليلًا ثم طلب مني تذكيره بعنوان رسالتي

للماجستير، فقلت: مفهوم الحقيقة الاجتماعية عند دوركايم ومفهوم الخبر عند ابن خلدون، دراسة تحليلية مقارنة.. قال: يعني، هُوَّ الموضوع نمطي شوية، إنما بشكل عام مقبول. قلتُ إنني أود تغيير الموضوع إلى «الارتباط بين وسائل الضبط الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي في المجتمع المصري القديم» فنصحني باستكمال موضوعي الأول وتأجيل ذلك المقترح للدكتوراه، لأنه سيحتاج إجراءاتٍ كثيرة ومشرفًا مشاركًا من المتخصصين في المصريات: *المهم دلوقتِ تعوَّضي فترة التوقف، علشان تلحقي تاخدي الدكتوراه قبل ما سنك يوصل تلاتين!*

- يا دكتور، أنا عندي خمسة وتلاتين سنة.

- العدد شيء مجرَّد. المهم شعورك بعمرك، والأهم إنجازك فيه. يلَّا كده شدِّي حيلك، علشان بنتك الصغيرة تبقى فخورة بأمها، وأنا كمان عاوز أبقى فخور بانتصارك على كل الظروف. مهما كانت صعبة.

- حاضر يا دكتور.

كنتُ أظن أن جلستنا لن تستمر أكثر من ساعة واحدة، فامتدت لثلاثٍ وأزف موعدي مع «ياسمينة» فاستأذنتُ منه وأسرعت إلى «كافيه لاتينو» حيث كانت تنتظرني. جلسنا معًا سويعةً رائقةً تتأمل البحر من خلف الزجاج، ونتكلم ونحن هادئات، كالأميرات. كنتُ مشفقة من ذهابها للعيش بعيدًا عن هنا، لكنها كانت مستبشرة بالذهاب ومتحسِّرة على سنواتٍ ضاعت سُدى في زيجةٍ فاشلة، وحبٌّ محكومٍ عليه بالحرمان. بدت لي أكثر حكمةً مما كانت عليه قبل مرورها

بالمآسي، وأخبرتها بذلك فضحكت برقةٍ وهي تقول بالإنجليزية ما ترجمته إن كل إنسان سجينُ خبراته، والحكمة هي الجانب الإيجابي الوحيد للمأساة. وأظنها أرادت تغيير سياق الكلام، فامتدحتْ هِمَّتي للعمل الجديد وانتقالي لمنزل جديد وعودتي لرسالة الماجستير. وبلطفٍ بالغ، أشارتْ إلى أنني يجب أن أعتني بنفسي في الفترة المقبلة، وأشارتْ بيدها إلى مبنى قريب وهي تقول: *عارفة عمارة «قاصد كريم» دي، بعدها على طول في الشارع الجانبي «بيوتي سنتر» كويس جدًّا، وأسعاره معقولة. أنا جرَّبته كذا مرة، كان ممتاز، لازم تروحي هناك بانتظام، وصدقيني عمرك ما هتندمي. وهترجعي زي القمر، انتِ زي القمر دلوقتِ، بس هتبقي أجمل.* في تمام العاشرة مساءً ودَّعتها قبل عودتها مساء الغد إلى مقر هجرتها اللندني، الذي سوف تعود منه لزيارة أسرتها مع نهاية الصيف القادم.

كان يومي طويلًا، ومرهقًا، ولذيذًا.

* * *

يوم الثلاثاء فعلتُ شيئًا واحدًا. ذهبتُ إلى الكوافير.



المعماري

خلال الأسابيع التالية، وبشكلٍ أبسط كثيرًا مما توقعتُ، انتظمت أموري الحياتية واستقامت من بعد طول اعوجاج. وكان الفضل في ذلك لثلاثة أشخاص، أستاذي الدكتور «أبو اليزيد» الذي دعمني علميًّا وعمليًّا كأنني ابنته المُتبنَّاة، والدكتور «حاتم» أبو ياسمينة الذي أحاطني برعايته حتى أتقنتُ العمل، وحبيبتي «توحة» التي صارت لي الأم والأخت والصديقة المخلصة، وأعطتْ لنور كل الحنان الأمومي المختزن بقلبها. وبالطبع، كان لسُكناي مكانًا مناسبًا وقريبًا من مقر العمل، ومن مدرسة ابنتي وبيت المشرف على رسالتي، أثرٌ كبيرٌ في استقرار أموري واستعادة شعوري بالآدمية.

وصرتُ أجمل.

لم تقع معي خلال شهور العام ٢٠٠٦ وبدايات العام التالي إلا وقائعُ قليلة، وفيما عداها كانت الأيامُ تمضي على نحوٍ واحدٍ، مريح. في الصباح تخرج «توحة» لتوصيل «نور» إلى المدرسة بعدما تلبسها الزيَّ المميز: الحذاء الأسود والجورب الأبيض وبنطلون

«الجينز» الواسع والقميص المزخرف بالمربعات الحمراء والبيضاء المتجاورة. تقول نور: *القميص شكله حلو يا ماما، بس بيزغلل عينيًّا!* بعد خروجهما إلى المدرسة بساعةٍ، أخرج لأكون على مكتبي قبل الساعة التاسعة بدقائق قليلة، فأبقى حتى الساعة الرابعة.

مكاني في العمل مريح، متسع، فشركة الهندسة والمقاولات عبارة عن شقتين متصلتين، قرب بابهما حجرة السكرتارية المليئة بالدواليب المعدنية المليئة بالدوسيهات والرسومات والملفات. يسمونها هنا «شانون». حجرتي هذه، تؤدي إلى باب المكتب الخاص بالدكتور «حاتم» المحاطة جوانبه بعدة «شانونات» وهناك صالاتٌ أخرى وغرفٌ بينها فواصل زجاجية، منها غرفة واسعة خالية قالوا إنها كانت سابقًا، مكتب شخص يسمونه «البشمهندس» مع أن معظمهم هنا مهندسون! والدكتور «حاتم» أستاذ في كلية الهندسة. اقترحتُ عليه بعد استقراري في العمل بأسبوعين، أن أجمع «الشانونات» في الغرفة الخالية، بتنسيق يسهِّل الوصول إلى ما يطلبه ويضفي الرونق على المكان. فكَّر قليلًا وبدا متردِّدًا، ثم وافق. استغرق هذا الأمر شهرًا، لكن أثره كان جيدًا خصوصًا حين جدَّد الدكتور أثاث مكتبه وحجرتي وأعاد تنظيم أنحاء الشركة وزوَّد «البوفيه» بأجهزة حديثة لإعداد العصائر والمشروبات الساخنة.. انعكس الرضا على ملامح العاملين بالشركة، والزائرين، وكان الأكثر سعادةً وحماسةً للتجديدات هو عم «ويصا» عامل البوفيه الذي يقطر طيبة.

انتظمتْ مع مرور الأيام أوقاتي. بعد انتهاء العمل أعود عادة إلى البيت مباشرةً، لأمرح مع «نور» و«توحة» حينًا ثم أعكف على كتبي وأوراق رسالتي. وأحيانًا أصعد بعد العمل للجلوس سويعة مع طنط

«نهلة» الحزينة على ابتعاد وحيدتها «ياسمينة» عنها. تشكو بكبرياءٍ حالها، فأواسيها، فتبتسم بأسًى. وفي بعض الأيام أحصل على توقيعها على بعض الأوراق الرسمية التي يرسلها مكتب المحاسبة المتولّي أعمال الشركة، لأن كل شيء مكتوب باسمها. هي توقّع الأوراق دون أن تقرأها.

وفي بعض الأيام بعد انتهاء عملي، أمرُّ على الدكتور «أبو اليزيد» لأراجع معه ما أكتبه أو أفكر فيه. فإن وصلتُ بيته قبل صحوه من نوم الظهيرة، المقدس عنده، أجالس حفيدته «سلمى» اللطيفة، أو أقرأ من مكتبته الزاخرة، حتى يأتي متوكئًا على عصاه المحلاة بالنقوش.

... ومساء يوم الخميس أتفرغ لمسامرة «نور» و«توحة» اللتين صارتا صديقتين، ونخطط لعُطلة نهاية الأسبوع حيث نخرج كل مرة إلى مكانٍ مختلف: المنتزه، المعمورة، أبو قير، حديقة الحيوان، حدائق أنطونيادس، قلعة قايت باي، المطاعم المبثوثة في منطقة بحري. وفي قلب الصيف قضينا أسبوعًا كاملًا في قرية سياحية بالساحل الشمالي، ورأيت في الطريق بعض المشروعات التي تنفّذها الشركة، أو انتهت منها سابقًا ولا تزال ملفاتُها محفوظة في غرفة «الشانونات» المجاورة لمكتبي.. يعني بشكلٍ عام صارت حياتي رتيبةً بعض الشيء، لكنها ليست مملة ولا يوجد فيها ما يُشتكى منه.

من الوقائع القليلة التي كسرت انتظام أيامي، ما جرى بيني وبين «المقدّم ولاء» الذي ظننته أول الأمر مهندسًا زراعيًّا. كنتُ صباح يوم جمعة، بعد انتقالنا إلى هذا البيت بشهرين أو ثلاثة، أغرسُ بعض النباتات في المساحة الخالية التي فيها الشجرتان، لنحظى بمنظر

أجمل حين نجلس في الشرفة المنخفضة. وأثناء انهماكي بما أقوم به، مَرَّ من خلف القضبان الحديدية رجلٌ متماسك البنيان، كان في طريقه إلى مدخل المنزل، عبر الممر المارّ بجانب المساحة الخالية التي كانت يومًا حديقة. وقف لحظةً ينظر برضا إلى ما أفعله، ثم سألني بأدبٍ إن كنا السكان الجدد! فلم أجد داعيًا للإجابة «توحة» كانت بالشرفة تشاهد ما أفعله وبجوارها «نور» فأجابته بالإيجاب. قال إن هذه التربة تملَّحت من طول ما تُركت جرداء، والبحر قريب، فلا بد من كشط الطبقة السطحية منها، ثم خلط التربة بطينٍ يصلح للزراعة. رأيتُ كلامه منطقيًا فقلتُ له إنها مهمة صعبة ولابد أن يقوم بها خبير، فقال إنه يعرف «جنايني» وسوف يتصرَّف في الأمر، فلم أفهم مراده بدقةٍ فألقيتُ إليه بابتسامةٍ تناسب العابرين، وعدت إلى ما كنتُ أزرعه.

بعد يومين، رجعتُ من المكتب في الموعد المعتاد فوجدت عند دخولي من الباب الخارجي للمنزل، شابين يغرسان شجيراتٍ مزهرة. نور وتوحة كانتا في شرفتنا تراقبان ما يجري أمامهما باهتمام كبير، والبواب يقف مبتهجًا بجوار كومة ترابٍ مختلطٍ بأغصانٍ جافة وأوراق شجر، سألته عما يجري فقال إن «ولاء بيه» أرسلهما صباحًا، فقاما بتشذيب الشجرتين وكشطا التراب وحفرا للطين الذي جلبوه معهم، تلك المواضع التي يغرسان فيها الآن هذه الشجيرات. أشرتُ للبواب فتبعني إلى ناحية الباب الداخلي للمنزل، وهناك سألته عمن هو «ولاء بيه» فقال بسرعة إنه الضابط، قريب المدام صاحبة البيت. طيب. في الصباح التالي خرجتُ مبكرًا إلى الشرفة وبيدي فنجان قهوتي، فوجدتُ المنظر أمامي بديعًا وباعثًا على الراحة، ومع أن المكان عرضه لا يزيد على ثلاثة أمتار وطوله لا يتعدى

العشرة، إلا أنه صار كالحديقة المبهجة.. وفي المساء اتصلت مدام «سامية» صاحبة البيت لتسألني عن رأيي فيما فعله قريبها، فامتدحته. ضحكت وهي تقول إنني سأصير من الآن مسؤولة عن سقاية الحديقة ورعايتها، لكنني لو احتجتُ أي شيء فبإمكاني الاتصال بولاء! دون أن توضِّح كيف سأتصل به. وبعد قليل دقَّ البوابُ بابنا، وأعطاني بطاقة فيها فوق رقم التليفون: المقدِّم ولاء عبد الحميد الضالع، أمن الموانئ.

فاحتفظتُ بالبطاقة وكدتُ أنسى صاحبها، لولا شعوري اليومي كل صباح بالامتنان له. وبعد أيامٍ رأيتُ أنه من اللائق أن أتصل به شاكرةً إياه، فكلَّمته من المكتب وشكرته بألفاظٍ متحفِّظة. فوجئتُ به يقول إنه يتمنى لو يزرع الشارع كله زهورًا، من أجلي، فتعجلتُ في إنهاء المكالمة. لامتني «توحة» على صَدِّي له، فقلتُ لها إنني لم أصدُّه ولم أشجِّعه وعلينا نسيان الموضوع كله، لأنه سيكون في الغالب رجلًا يبحث عن علاقة.

ـ طب، ولو كان قصده شريف. إيه رأيك؟

ـ مُش عارفة. ياريت نأجِّل الكلام في الموضوع ده.

ـ ليه يا نورا بس، ده شكله كده ابن حلال. النهارده وانتِ في الشغل المدام «سامية» نادتني وكلِّمتني في الموضوع، وهُوَّ حابب يقعد معاكِ.

ـ ما كانش يصح تطلعي لها.

ـ لا والله دي قابلتني كويس، وقالت لي إنها لولا العجز

والتُّخن، كانت نزلت لي مخصوص. المهم، هُوَّ هيتصل بيكِ بكرة علشان ياخد ميعاد. يعني، اسمعيه وشوفي كلامه وبعدين اعملي إلّ تشوفيه.

في اليوم التالي تواعدنا تليفونيًّا على اللقاء، بعد انتهائي من العمل. كنتُ أريد أن يكون اللقاء بكافيه «لاتينو» لكنه أصرَّ على مطعم فندق «سان جيوفاني» لأن المكان هناك أهدأ، ومديره صديق له. فوافقت.. في اللقاء الأول كان لطيفًا، ولم يتعمَّق بيننا الحديث أو يغوص في الدقائق، واكتفينا بالكلام العمومي عن تقلبات الطقس الخريفي ومشكلة الزحام المتزايد حتى بعد انتهاء الصيف، والعشوائيات التي أحاطت بحواف المدينة وانعدام الخدمات فيها. بدا محايدًا، فلم أستطع الوصول إلى أي رأيٍ بصدده، وشعرتُ بأنني أراه من خلف حجاب، ومع ذلك وافقتُ على اللقاء التالي. الأخير. ولم أوافق على توصيله لي إلى البيت بسيارته، متعللة بأن المسافة قصيرة وبأنني أحب المشي ساعة الغروب.. عند دخولي من الباب الخارجي للبيت، حائرةً، رأيت «نيِّرة» خارجةً بعد انتهاء حصة اللغة الفرنسية مع «نور» وحين رأتني قالت مندهشة: *مالك يا نورا كده شايله طاجن سِتِّك!*

في اليوم الثاني من شهر سبتمبر، قبل احتفالنا بعيد ميلاد «نور» بيوم واحد، التقيتُ به في المكان ذاته لكن الكلام بيننا انسرب هذه المرة إلى دهاليز وسراديب مسدودة. بدأ حديثه بسؤالي إن كنت مرتاحة في عملي؟ فأكَّدتُ له ذلك فامتعض قليلًا، وقال إنه يفضِّل أن تبقى المرأة في بيتها. خرجتُ من هذا المأزق الأول، بأن أخبرته بعملي في الماجستير وبأنني سوف أناقش رسالتي، تقريبًا، في شهر

مارس القادم، ثم أبدأ في رسالة الدكتوراه. امتعض كثيرًا، وقال إنني بذلك لن أجد وقتًا لرعاية البيت والزوج.. استغربتُ قفزه إلى تلك الأمور، كأنه من المفروغ منه موافقتي على الاقتران به.

سألته عن عمره وعما إذا كان قد سبق له الزواج، فردَّ بأنه في السادسة والأربعين وسوف يحصل على رتبة عقيد في أول حركة ترقيات. وقال إن الترقية قد تنقله إلى خارج الإسكندرية، فيعمل عدة سنوات في دمياط أو سفاجا أو أي مكان آخر، سيأتي في نشرة الترقيات. وقد تزوَّج سابقًا مرتين لكنه لم يوفَّق، وأنجب زواجه الأول ولدًا صار الآن بحسب وصفه «رجلًا» في الثانية عشرة من عمره، وهو يعيش معه وتتولى جدته تربيته.

- تقصد والدتك.. طيب وأم ابنك؟

- لا، أنا رفضت يكون معاها، علشان شفت إنها غير صالحة لتربيته.

- غير صالحة!

- أيوه، أصل هيَّ من الستات إلِّ شايفة نفسها، وبعدين هيَّ اتجوزت خلاص.

بدأ قلبي ينقبض. خصوصًا حين سمعته بعد ذلك يسرف في مدح أمه كالأطفال، ويطيل في وصف طريقتها الصارمة التي تضمن له أن ابنه سيكون «رجلًا» مثل أبيه، مؤكِّدًا ببلاهةٍ مفاجئةٍ أن أمه التي يدعوها «الحاجة» هي: مصنع رجال! وكانت الطامة الكبرى حين أخبرني بطريقة تقريرية بأنه يريد أن تبقى ابنتي في البيت المستأجر،

ويمكنني زيارتها كل أسبوع وقضاء وقتٍ معها! استغربتُ طريقته في إملاء الأمور التي يراها واجبة الاتباع. اعترضتُ على كلامه بأن ابنتي صغيرة، ولا يمكنها الاستغناء عني، فقال واثقًا:

ـ أنا شايف إن «تحية» واخدة بالها من البنت كويس.

ـ تحية مين؟

ـ توحة إلّ ساكنة معاكِ، وبتقولي إنها خالتك وزي مامتك.

ـ آه، واضح إنك عملت تحريات!

ـ يعني. هيَّ اسمها «تحية السيد مصباح» وكانت متجوزة واحد حرامي بحر، بس اتقتل زمان في عركة. إلّ قتله عند مساكن الطوبجية كان اسمه «أشرف الرماح» اتسجن تأبيدة بعد كده في قضية جلب مخدرات، ومات في السجن من كام سنة.

ـ وعرفت إيه كمان؟

ـ شوية حاجات بسيطة كده عن والدك، وجيرانك في كرموز، والراجل الليبي أبو بنتك. اسمه «مفتاح رافع المبروك». وعلى فكرة، الراجل ده اختفى خالص من سنتين، وتقريبًا اتصفى، أصل القذافي غضب عليه.

ـ كفاية كده أرجوك، ومتهيأ لي إننا غير مناسبين لبعض.

ـ ليه، إنتِ شايفة فيَّ عيوب معينة؟

ـ لا أبدًا، عيوب إزاي. بس أنا بني آدمة، ومُش هينفع أتجوِّز إله.. أنا آسفة إني ضيعت وقتك.

ـ يعني إيه؟ ممكن توضَّحي.

ـ يعني للأسف طلب حضرتك مرفوض. اسمحلي أستأذن، لازم أرجع البيت حالًا لبنتي.

لم يتصل من بعدها، ولم أره قط أو أسمع عنه. مَرَّ مثل رياح خماسين مغبِّرة، عصفت، ثم أزاحها عن الناس في اليوم التالي هواءُ البحر. طبعًا، اعترضت «توحة» بقلبها الطيب على رفضي له، مع أنني حكيتُ لها كل شيء جرى بيننا. لكنها كانت تترقَّب ما تتمناه: أن يحصل «الوفق» فأدعوه بعد يومين للغداء معنا في البيت، حتى يتولَّد الودادُ ويتم المراد على خير، خصوصًا إذا طبختُ له «ملوخية» وتلوتُ لحظة صبِّها على مدقوق الثوم المقلي مع الكزبرة، الترنيمة التي لا تخيب أبدًا إذا قيلت بعد شهقة «الطشة» همسًا: حلاوة «الأس» *فيك، وإلّ يدوقك ما يسليك!*

هي تعتقد في ذلك وتؤمن به إيمانًا لا محدودًا. حاولتُ أن أفهمها أن المسألة أعمق وأدق من ذلك، لكنها أصرَّت على أن «الستات» لابد لهنَّ من التحلِّي بالصبر، وقبول حلم الرجل في الزواج بامرأة نادرة مثل أمه. قلت لها إن الواحد من هؤلاء لو سأل أباه عن أمه، كزوجةٍ، لما عاش في هذا الحلم الوهمي. قالت:

ـ معلش يا نورا، هُمَّ الرجالة كده عندهم حِتَّة عبط.

ـ لا يا روح قلبي، هُمَّ ضحايا ستات ربُّوا عيالهم غلط.

ـ خلاص يا نورا، شوفي لك واحد أجنبي. ودول كمان بيبقى شكلهم حلو، شعر أصفر وعيون زرقا، وبياض.

ـ هَهْ هَا، لا يمكن. دول عاملين زي بيض شمّ النسيم.

* * *

يااااه.. هل صار «الحب» أملًا مستحيلًا، أم هو من الأصل كان وَهْمًا أهيم فيه أيام الصبا، وبه أفرُّ من ضيق الواقع إلى رحابة الخيال. من الأرض إلى السماء. السماءُ ليس فيها إلا السحاب الآتي ماؤه حتمًا إلى الأرض، وليس فوقه إلا فضاءٌ شاسعٌ لا نهائي، فيه كواكبُ متباعدة ونجومٌ وأجرامٌ مجهولةٌ لنا، في الفراغ سابحةً. هي سماؤنا، ونحن سماؤها.

تأخذني هذه الخواطر ومثيلاتها في رحلةٍ يومية، بعيدةٍ وممتعة، لا تبدأ من موضوعٍ بعينه ولا تنتهي عند موضعٍ معينٍ. أصحو مبكرًا وأعد فنجان قهوتي وأخرج به إلى الشرفة وقد امتد تحتها البساط الأخضر المزركش بألوان الأزهار، محجوبةً عن العمائر المقابلة بغصون وأوراق الشجرتين اللتين ازدهرتا من بعد طول الذبول واليبس. وبقلب الكرسي الوثير أرتشف رحيق قهوتي، فتحلّق بي أجنحةُ الأفكار بين الأزمنة ومواطن الخيال الخلاق والأمنيات. حياتي تبدَّلت في أشهر معدودات، وبدا العالم مختلفًا عما كان، وعما كنته. كيف احتملت الحبس في بيت أبي طيلة السنوات الماضية؟ لابد أنهم الآن قد هدموا هذا السجن القديم، وبنوا بموضعه سجنًا جديدًا يتسع لمزيدٍ من المحبوسين، وسيكون كسابقه على هيئة منزل وهو في واقع الأمر معتقلٌ قضبانه القوية غير مرئية. هل أصابت «أمل» حين خرجت من الأزقة العتيقة إلى العالم الواسع؟ ربما، لكنها أخذتْ معها هزائمها القديمة وأثقالها الفادحة، فراحت تتاجر في الأجساد والمتع العابرة. مسكينة. لم أشعر بأي اشتياقٍ إليها بعد آخر لقاء، ولم أتكلم عنها مع أمها بعد انتقالنا من هناك، كأننا نسيناها لأنها نسيتنا. النسيان يستدعي النسيان، وكذلك الذكرى.

لم نعد نتحدث في البيت عن ذكرياتنا بكرموز، كأننا لم نكن هناك. لكن «كرموز» فيها بعض المميزات، مثلًا الأسعار أرخص! ما هذا القياس؟ الناس هناك أرخص، والأسعار، وبالتالي فإن المحصلة لا شيء. ولا شيء هناك يستحق حنيني إليه، إلا الذكريات القديمة جدًّا، الباهتة. الناسُ تسمِّي الانتقال من بيتٍ إلى آخر «عِزَال» لأنه يعني الانعزال عن مرحلةٍ ودخول أخرى. سأخبر «د. أبو اليزيد» غدًا بفكرتي هذه وأناقشها معه، لكنني بالطبع لن أبوح أمامه بأنني ما عدت أشتاق إلى عالمي الأول الذي «عزَّلتُ» منه وانعزلت عنه فما عدتُ أحن إليه، بل يزعجني تذكُّره وذكر أحواله الحالية. حتى دفء الجيرة والشعور بالألفة مع الآخرين، أخذ يتناقص تدريجيًّا ثم تبدَّد مع تفرُّق الجيران ونزوح كثيرين من الريفيين، ومع الزحام وسطوة الملتحين. كيف انقلبت الأحوال بهذه السرعة، وما هذه الكآبة التي صارت تسكن هناك الأنحاء، وتزيح المرح والبهجة التي كانت سائدة قبل سنوات قليلة. لماذا لا يهتم أساتذة علم الاجتماع عندنا بدراسة هذه التحولات.. سألتُ د. أبو اليزيد، فقال بأسى إن سؤالي هذا يجب أن يسبقه سؤال: هل الذين عندنا علماءُ اجتماع، أم هم موظفون حصلوا على درجة الدكتوراه فصاروا مدرسين جامعيين؟

منذ انتقالنا إلى هنا، لا شيء يضايقني. الحياة أسهل، لأن المكان أفضل وسكانه لا ينشغلون كثيرًا ببعضهم البعض، مثلما كان الحال هناك. حين لا يعيش الشخص حياته، ينشغل بحياة الآخرين ثم يكتشف أنه لا هو ولا الآخرون يعيشون الحياة، وإنما يعانون منها.. هنا الحال يختلف، حتى مدام «سامية» صاحبة الشقة لم أعد أراها، مع أنها أقرب الجيران! أُرسلُ لها كل شهر الإيجار مع البواب، فينزل

من عندها بإيصال الاستلام.. أين ذهب قريبها الضابط الذي كان يود اعتقالي في منزله بإذن المأذون؟ لابد أنه وجد أسيرةً أخرى يطفئ فيها شهوته ونشوته بالتأله، وقد تكون أسيرته سعيدةً بانسحاقها. ماذا كان اسمه؟ كيف نسيته بسرعة هكذا؟ آه، ولاء. ههه. ولاء، بلاء، شقاء، خواء. الأسماء لا تهم كثيرًا، المهم هو المسمَّى.

لا، المهم هو المعنى في الاسم وفي المسمى. ما اسم المعماري الذي يصعدون إليه كل بضعة أيام؟ ولماذا لا ينادونه باسمه ويدعونه «الباشمهندس»، ولِمَ يتسم الدكتور «حاتم» حين يأتي ذكره؟ لمَّا سألته عنه الأسبوع الماضي، اكتفى بأن قال عنه: عبقري.

الدكتور «حاتم» رجلٌ طيبٌ حقًا، وبسيط، مع أنه ذكيٌّ جدًا وقويُّ الشخصية. وثري. لماذا كانوا يُلمحون لنا ونحن صغار بأن الأغنياء أشرار، ولن يدخل معظمهم الجنة؟ هل هي مواساةٌ للفقراء، وفرارٌ من قسوة الحال بأوهام الخيال؟ كان خطيب المسجد يقول إن الفقراء هم أحباب الله، والعيال الصغار أيضًا أحباب الله. سألت نفسي: وهل الأغنياء وكبار السن أعداء الله؟ طبعًا لم أجد إجابة، واهتاجت هواجسي. في المدرسة الثانوية صارحت زميلتي «مريهان» بتلك الهواجس، فقالت إن القسيس يقول لهم في دروس الأحد ما يقوله خطيب الجمعة. اندهشت. حكيت ذلك مؤخرًا للدكتور أبو اليزيد فضحك ضحكته الرقيقة المعتادة وهو يقول متعجبًا: *إنتِ كنتِ فاكرة إنّ فيه فرق!*

الصباحُ هنا جميل في الشتاء، وفي الصيف أيضًا. كيف عشتُ سابقًا بلا إدراكٍ لمعنى هذه اللحظات الطفلية المبكرة، وبلا إحساسٍ

بعمق هذا الانتعاش مع رشفات القهوة. هل في الجنة قهوة؟ ربما، فما دام فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، يعني ما لا نعرفه، فمن اليسير أن يكون فيها ما نعرفه. ما الجنةُ، إلا حنينٌ سحري لمرحلة الجنين. ولكن، ماذا عن النار والسعير وسَقر وهاوِيةٍ والجحيم والعذاب الأليم؟ ولماذا كل ذلك؟ لا أدري، ولا أعرف السبب في معاناة الإنسان في الدنيا وخَلْقِهِ في كَبَد، ثم جَعْله يكابد الأفظع بعد الموت. لعل هناك حكمة. ومن الحكمة الآن أن أُسرع بارتداء ملابسي، فالساعة تجاوزت الثامنة بدقائق وقد يكون الطريق مزدحمًا، فاليوم بداية الأسبوع.

صرتُ أشعر بالألفة حين أدخل مكتبي بالشركة، كأنه بيتي الآخر. فهو لي وحدي، وكذلك سريري الذي أنام عليه في البيت وأحتضنُ الوسائد، لي وحدي. «نور» صارت تنام في الغرفة الأخرى مع «توحة» وصارت بينهما قصصٌ تشبه الأسرار! تتكلمان معًا كأنهما صديقتان، وتقول «نور» إنها حين تكبر قليلًا ستكون صديقتي.. حبيبتي، أتراها ترى «توحة» أصغر مني! سألتها عن ذلك فأجابتني بعبارتها البريئة: *إنتِ يا ماما أكبر واحدة في الدنيا*.

أستاذي د. أبو اليزيد ينبِّهني دومًا إلى أهمية إظهار التوازن وإخفاء ضعفي أمام «نور» لأنني أقوم بدور مزدوج في التنشئة الاجتماعية. يقصد دور الأم ودور الأب. فالابنة السوية تحب أمها في كل الأحوال، وتهاب الأب، وليس من السهل تحقيق هذا المزيج بين الحب والهيبة. ومما يساعدني على ذلك نجاحي في عملي، وفي دراستي، وفي تأكيد اهتمامي بها حتى لا تقع فريسةً للرعب من

المجتمع. عنده حق طبعًا. ولذلك أجتهد في تلك المجالات الثلاثة، دون أن أسمح لأيٍّ منها أن يطغى على الآخر.

بعد أشهر معدودات صرتُ أهم شخصية بالشركة بعد الدكتور، وصار يدعوني أحيانًا بمديرة مكتبه وأحيانًا بمساعِدته الأولى وأحيانًا بذراعه اليمنى! وكان لتنظيمي أرشيف الشركة دورٌ كبيرٌ في نجاحي، وفي معرفتي بأمور كثيرة سبقت التحاقي بالعمل، منها أن هذه الشركة تأسست في مطلع التسعينيات كمكتب هندسة ومقاولات، وأصحابها في الأوراق اثنان: نهلة زوجة الدكتور «حاتم» الذي يمنعه عمله الجامعي من مباشرة الأنشطة التجارية، والبشمهندس «المعماري» المختفي الآن عن الأنظار. اسمه «أشرف إبراهيم الحجَّار» وظل شريكًا في المكتب الهندسي حتي نهاية العام ٢٠٠٤ وكان يحصل على ستين بالمائة من صافي الأرباح، ثم انفضَّت الشركة وبقيت بعض الأعمال تجمع بينه وبين الدكتور «حاتم» الذي لاحظتُ أنه يحب شريكه السابق ولا يذكره إلا بالخير. لماذا انفضت الشركة بينهما؟ لا شأن لي بذلك، ولن أدسَّ أنفي فيما لا يعنيني. يكفيني ما عندي من الشواغل والمهام.

* * *

يوم الأربعاء السابع من شهر مارس سنة ٢٠٠٧ من أيامي التي لا تُنسى، ففيه حصلتُ على درجة الماجستير وتحققتْ واحدةٌ من أجمل أمنياتي، وبالطبع، كان يومًا مزدحمًا بالأحداث مفعمًا بالبهجة وفوائح المحبة. حبيبة قلبي الرقيقة «ياسمينة» جاءت من لندن خصيصًا لتحضر المناقشة، وتكون معي يوم عُرسي الحقيقي. أمها المشتاقة

إليها دعتها إلى الحضور مؤكِّدة أنه لا يصحّ منها تركي في يوم كهذا وحدي، وأبكاها الحنينُ، فاستجابتْ ياسمينة. أمها حَضرتْ معنا المناقشة، وأبوها وأكثر من عشرة مهندسين يعملون بالمكتب. وحضر كثيرٌ من زميلاتي القدامى والزملاء الذين استكملوا الدراسات العليا، وبعض أساتذة الكلية والأشخاص الآخرين الذين لا أعرفهم، لكنني أعرف أنهم جاءوا لرؤية أستاذي العظيم «أبو اليزيد» الذي لم يعد يخرج من بيته، إلا لمناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه.

طيلة اليوم كانت عين «توحة» تدمع من شدة الفرحة، ونور تضحك، وقلبي يتقلَّب كل حين بين القلق والتوق.. استمرت المناقشة ثلاث ساعاتٍ بمدرج «العبادي» أكبر مدرج بكلية الآداب، بعدها أعلنت اللجنةُ حصولي على درجة الماجستير بتقدير: ممتاز. توحة زغردت. بعد إعلان النتيجة، أخذتنا «ياسمينة» إلى الغداء الاحتفالي بمطعم «فيش ماركت» القريب من الكلية. الدكاترة أعضاء لجنة المناقشة حضروا معنا، لكن أستاذي المشرف «أبو اليزيد» اعتذر لنا عن عدم الذهاب باسمًا، ومتمنيًا لنا غداءً شهيًّا لم يعد هو قادرًا على تناول مثله. وأنا أودِّعه ملتُ علي يده مسلِّمةً، وقبَّلتها قبل أن يسحبها، فقال وهو يضحك: *هُوَّ لسه حدّ بيعمل كده؟ دا إنتِ موضة قديمة قوي يا دكتورة نورا.*

خفق قلبي بشدة حين ناداني باللقب العلمي، مبشِّرًا به.. بعد عودتي للبيت في المساء استلقيتُ على سريري باسمةً، ومستمتعة بتلك النشوة النادرة التي لم أشعر بمثلها إلا يومها، ويوم ضمَّني «المعماري» إليه أول مرة. العمرُ، ليس فيه على الحقيقة إلا هذه اللحظات النادرات، وما عداها خواءٌ وهواءٌ في الهواء.

لم أذهب لعملي بالشركة صباح اليوم التالي للمناقشة، لا سيما أن الدكتور «حاتم» لم يكن موجودًا. فقد أخذ ياسمينة وأمها إلى منزلهم الفخم بالساحل الشمالي، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك قبل عودة «ياسمينة» لموطن مهجرها مساء يوم السبت.. صباح الأحد احتفل بي زملاءُ العمل، فكان إفطارنا بالمكتب بدلًا من المعتاد «تورتة» وعجائن دنماركية. وبطبيعة الحال كانت المهندسة «سالي» هي مايسترو الاحتفاء الاحتفالي، وعقله المدبر والمنفذ. لأنها الصديقة الأقرب لي من بين مهندسي الشركة الذين زاد عددهم بعد التعيينات التي تمت قبل شهرين استعدادًا للتوسعات المرتقبة، بعد عقد القرية السياحية الذي حصل عليه الدكتور «حاتم» بشكل مبدئي، لكن إبرامه التوقيع عليه لم يحدث بعد.

الآن، يعمل معي بالشركة عشرون مهندسًا، سبعة منهم معماريون والبقية مدنيون. وهناك أيضًا ثلاثة من مشرفي العمال، وعم «ويصا» المسئول عن البوفيه وعن توزيع الابتسامات الطيبة على الجميع.

الأكثر وجودًا بالشركة في مواعيد العمل: أنا، ثم مسئول البوفيه، ثم الدكتور الذي يقضي تقريبًا نصف وقته بمكتبه، ونصفه الآخر في المرور على المشروعات. ثم المهندسون المعماريون الذين ينكفئون على طاولة الرسم الهندسي، أو يحدِّقون في شاشات الكمبيوتر، وهم يشتكون دومًا من الإجهاد. ثم المدنيون من المهندسين، الذين يقضون معظم وقت عملهم بالمواقع. وأخيرًا مشرفو العمال الذين لا يأتون للمكتب إلا مرة في الأسبوع أو مرتين، وهم في الغالب متحفِّظون وذوو خبرة لا مكان لها إلا بمواقع التشييد وسط عمالهم.. المهندسون المدنيون هم

الألطف والأخف حركةً، وظلًا، من زملائهم المعماريين الأكثر تأنقًا واعتزازًا بأنفسهم. وبين الفريقين نوعٌ من الغيرة والتنافس الخفي على المكانة، فالمعماريون يرون أنهم الأهم. لأن كل بناءٍ يبدأ مرسومًا من عندهم على اللوحات، وينتهي باستلامهم المبنى وفقًا لرسومهم واللوحات. وما بين البداية والنهاية يقوم المدنيون من المهندسين بالأعمال التنفيذية، فيكونون حسبما يرى المعماريون أقرب إلى مشرفي العمال! وفي المقابل من ذلك، يرى المهندسون المدنيون أن المعماريين ليسوا أصلًا مهندسين، وإنما أناس يتخيَّلون. وأما على أرض الواقع فهم لا يستطيعون بناء «كشك سجائر» لانعدام خبرتهم واقتصارهم على الجانب «الطري» من العمل، أي اللوحات وأقلام الرسم وبرامج الكمبيوتر.. المهندسة «سالي» تسخر من كلامهم هذا، وتصفهم بصبيان الميكانيكي!

* * *

تعرَّفت إلى المهندسة «سالي» في اليوم الأول من استلامي العمل سكرتيرةً، أو عرَّفتني هي بنفسها حين جاءتني ضاحكةً وهي تندفع في كلامها مثل شلالٍ تدفق: *صباح الخير، اسمك «نورا» صح؟ أنا اسمي «سالي» يعني بحب التسالي، معمارية، بشتغل هنا من أربع سنين ونفسي أهاجر، ونفسي أتجوِّز، ونفسي يبقى عندي شركة، ونفسي ف حاجات تانية كتير، بس شكلي كده مُش هاعمل أي* حاجة منهم، هه هه.

ـ أهلًا بيكِ يا حبيبتي، إتشرَّفنا.

ـ لا والنبي بلاش الكلام الرسمي ده، أنا بحب البساطة. ههه.

ـ وبتحبي إيه تاني؟

ـ بحب شغلي، وبحب بابا، وبحب الضحك.

ـ عمومًا الضحك حاجة كويسة وبيقولوا إنه بيطوِّل العمر.

ـ بجد. ده أنا كده هابقى من الخالدين، ههه. وعلى فكرة كلمة «كويسة» دي مشتقة أصلًا من الكوسة. هه هه.

في لقائنا الأول هذا ظننتها ساذجة، لكنني عرفت مع مرور الوقت ومع التعامل اليومي، أنها إنسانة طيبة تحاول بالمرح أن تنتصر على كمٍّ كبير من الألم والإحباط الدفين. فقد فشلت زيجتها المبكرة ولم تستطع حسب قولها أن تظفر منها بولدٍ أو بنت، فعادت إلى بيت أبيها لتتولى رعايته عقب وفاة أمها المفاجئة، وبلوغ أبيها سن السبعين مثقلًا بالمشكلات الصحية. أخبرتني بأنها مثلي في السادسة والثلاثين من عمرها، ثم ضحكت وهي تضيف أن بالإمكان إضافة سنة أخرى! وأخيرًا اعترفتْ بأنها عبرت الأربعين.. بعدما توثَّقت بيننا المعرفة، صارت في بعض الأيام تمرُّ عليَّ في الصباح بسيارتها الصغيرة فنأتي معًا إلى العمل، وأحيانًا تتأخر في المكتب حتى الساعة الرابعة فتأخذني معها في طريق العودة. هي تسكن قريبة مني، في شارعٍ موازٍ لشارع «سوريا» الشهير بأناقة محلاته. الأيامُ التي تتأخر فيها، هي أيام اجتماعهم مع «المعماري» في الطابق الأخير، تصعد إليه مع زميلاتها والزملاء بين الأيام ومعهم الرسومات الهندسية، فيبقون عنده من الصباح حتى يقترب موعد الانصراف. بعد مرور شهورٍ، ومع استغرابي من أنني لم ألتقِ بهذا المعماري الكبير، ولم أره، دفعني الفضولُ فسألتها عنه بشكل اجتهدتُ أن يبدو عرضيًّا.

قلتُ لها إنني كثيرًا ما أسمع «الدكتور» يكلِّم رئيسهم المعماري هذا، لكنني لا أعرف شكله. قالت: شكله حلو! سألتها عن سبب صعودهم إليه، وعدم نزوله، فقالت إنه حبيس منزله كعصفور في قفص ذهبي! أدهشني وصفها خصوصًا أن لغتها المعتادة تخلو من مثل هذا التشبيه، فواصلتُ الكلام معها مستفسرةً عن سبب حبسه لنفسه، فقالت باستهانةٍ وهي تدير سيارتها من بعد كوبري «ستانلي» لتصل بي إلى منزلي، وكأن كلامها إجابةٌ عن سؤالي: يعني، أصل هُوَّ الصراحة عبقري، والجماعة العباقرة دول عندهم لسعة في مُخُّهم، هتنزلي عند البيت ولَّا آخر الشارع؟

ـ آخر الشارع، هاشتري حاجات للبيت.

بعد فترةٍ سنحت أمامي الفرصة لأعرف عنه المزيد، فقد كان المكتب يومها خاليًا إلا من مهندستين تعملان بصمتٍ في الناحية المخصصة للمعماريين، وفي هذه الهدأة جاءت «سالي» إلى غرفة السكرتارية وخلفها «ويصا» يحمل فنجانيْ شايٍ. وكالمعتاد، روتْ لي آخر النكات التي سمعتها، وضحكتْ أكثر مني! وتنقَّلتْ بسرعة من موضوعٍ لآخر، حتى حكت عن حركات «العيال» التي كان طليقها يقوم بها. وأثناء حديثها هذا، أشارتْ إلى أن «الباشمهندس» كان قد سبق وحذَّرها من هذه الزيجة، فلم تستمع إلى نُصحه، وندمتْ.. سألتها إن كانت تستشيره عادةً في مثل هذه الأمور الشخصية، فقالت إن ذلك جرى من فترة طويلة أيام كان «الباشمهندس» ينزل يوميًّا للمكتب، يعني قبل ما جرى معه. وما الذي جرى معه يا سالي؟ أجابتْ بكلامٍ مشوَّش خلاصته أنه لا أحد يعرف، فقد ذهب مع زوجته إلى أوربا فوقع بينهما هناك اختلاف،

فطلقها وعاش من يومها وحده، ولم يعدّ مثلما كان، وأصبح لا يتحدث معنا إلا فيما يتعلق بالعمل.

ـ يعني إيه، اتعقّد مثلًا؟

ـ هه هه. حاجة زي كده، المهم إيه أخبار المكافأة بتاعت مشروع القرية السياحية، هتتأخر؟

ـ لا، احتمال تنزل مع المرتب، بعد توقيع العقد النهائي.

ـ حلو، عايزين نبعزق شوية فلوس. هه هه.

* * *

في اليوم الذي أخبرتني فيه «مدام كريمة» موظفة الدراسات العليا بالكلية، تليفونيًّا، بأن مجلس الجامعة اعتمد تسجيلي لدرجة الدكتوراه، اتصل بي الدكتور «حاتم» من الساحل الشمالي لمتابعة سير العمل، فزففتُ إليه الخبر. فرح ودعا لي بالتوفيق، ثم طلب مني بلطفه المعتاد عدة أمورٍ من بينها إرسال اللوحات الهندسية الموجودة على مكتبه، إلى «أشرف».. يقصد البشمهندس، المعماري.

كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة عصرًا، ولم يكن بالمكتب أي مهندسٍ من المعماريين لأبعث معه اللوحات، أو من غيرهم. رأيتُ أنه لا يليق إرسالها مع عم «ويصا». اتصلت بالمعماري تليفونيًّا لأخبره بأنني سأصعد إليه لتسليم لوحات الفيلات: *مساء الخير يا فندم، أنا «نورا» سكرتيرة الدكتور حاتم، وسيادته طلب مني توصيل الرسومات بتاعت فيلات المشروع الجديد لحضرتك، ومفيش حاليًّا حد من المهندسين، ممكن أطلع بيهم لحضرتك؟ قال: أهلًا وسهلًا.*

صوته هادئٌ، وعميق.

صعودي إليه كان سهلًا، على الرغم من شدة اضطرابي وحيرتي من سبب هذا الاضطراب. خرجت من المصعد في الطابق الأخير وسرتُ يمينًا في الممر الممتد بين أبواب الشقق، حتى أوقفني البابُ الحديدي المزخرفة قضبانه بقطعٍ معدنيةٍ على هيئة أوراق الشجر. لون الباب الأبيض، وزخارفه الأنيقة، لا يستران قوته واستحكام قضبانه ومتانتها. من خلال فُرَجِ الباب يظهر درجٌ عريضٌ يصعد بالتفاف لا يسمح للواقفة مكاني برؤية منتهاه، وبأعلاه «كاميرا» مثل تلك التي نراها في الأفلام الأجنبية، ومن غير المعتاد أن يضعها الناس في بلادنا على أبواب بيوتهم. لابد أنه رآني من عليائه، فما كدتُ أرفع إصبعي لأضغط زر «الإنتركم» القريب من الباب، حتى سمعت صريرًا خفيفًا وانفتحت أمامي ضلفة الباب اليمنى.

من أين جاءوا برخام هذا الدرج المائلة صفرته الخفيفة إلى احمرارٍ خفيف؟ غدًا أسأل «سالي» وبالتالي أعرِّفها أنني صعدتُ إلى هنا، وتتكلم، فأعرف عنه المزيد. لماذا أهتم؟ لا أعرف. ارتقيتُ الدرج العارج بي بميلٍ إلى اليمين، حتى رأيته واقفًا على بسطةٍ عريضةٍ خلفها بابٌ مفتوح، وإلى يمينه بابٌ سأعرف لاحقًا أنه باب المطبخ الواسع المتصل بالشقة الفسيحة عبر كوةٍ كبيرةٍ بالجدار. على يمين الداخل إلى باب الشقة، بابُ الغرفة الواسعة التي يجتمع فيها مع المعماريين العاملين تحت إشرافه حين يصعدون إليه.. قال: *أهلًا يا نورا، اتفضَّلي*.

هو نحيلٌ كخيط بخور، وأطولُ مني بشبرٍ على الأقل. مع أنني

لست من القصيرات. يرتدي قميصًا رماديَّ اللون واسع المقاس، مريحًا، تحته بنطلون أسود يدل نوع قماشه على غلو ثمنه، وفي قدميه حذاء رياضي لطيف الشكل.. أخيرًا، رأيت الباشمهندس! ابتسمتُ وأنا أمدُّ إليه اللوحات المطوية، فاجتهد يبتسم وهو يأخذها من دون أن ينظر ناحيتي. تعجَّل النظر في اللوحات الثلاث الكبيرة، ودون أن يدعوني للدخول أو يترك لي الفرصة للنزول. نظر إليَّ وهو يقول بحاجبين ينعقدان إن هناك لوحة صغيرة ناقصة، فقلت إنني أتيت بكل ما كان موجودًا على مكتب الدكتور! قال: *لا، أكيد فيه لوحة كمان.*

استأذنته في النزول إلى المكتب للتأكُّد، فهزَّ رأسه موافقًا وهو يفحص بعينيه اللوحات قائلًا إنه سينتظرني. استدار ليدخل إلى دنياه من بابه المفتوح خلفه، وهبطتُ الدرج مسرعةً كمن تهرب مما تود أن تقترب منه.. هو في حدود الخمسين من عمره، هادئ النظرة، واضح الملامح. وفي جوف عينيه أشجارُ شجرٍ قديم، وشجونٌ وآلام. مالي أنا بجوف عينيه! يا نورا، اهدئي قليلًا وتمالكي حالك فإن خفقان قلبك يُنذر بالافتضاح، وهذا لا يصح. قلتُ ذلك لنفسي وأنا في انتظار وصول المصعد، وتعجَّبتُ من نسياني إحدى اللوحات. كيف؟ أنا متأكِّدة من أنني أخذت ما كان فوق مكتب الدكتور، أو، لستُ متأكدة كنتُ متعجلة.

عند باب الشركة وجدت عم «ويصا» واقفًا ينتظر رجوعي، حتى يطمئن إلى إغلاق الباب الخارجي للشركة قبل ذهابه أخبرته بأن الباشمهندس يحتاج أوراقًا أخرى، وعندي بالمكتب بعض الأعمال، وبإمكانه هو الذهاب بسلام وسوف أغلق خلفي الأبواب. شكرني ومضى راضيًا. تحت القائم الداخلي لمكتب الدكتور، رأيت المطوية

نائمة بدلال على الأرض! تعالي. لم أتعجل الصعود، ولم أتأخر، فقط مشَّطت بسرعة شعري ومسحت على شفتيَّ بإصبع «زبدة الكاكاو» ذي الاحمرار الخفيف وهندمتُ ملابسي وأخذت شنطة يدي، وأغلقتُ خلفي كل الأبواب كأنني أحرق خلفي كل المراكب! كما قال الشاعر.

بأعلى، كان الباب الحديدي مفتوحًا وباب شقته، رأيته واقفًا ينظر في اللوحات المفتوحة على طاولة السفرة، بغير رضا، فنقرتُ الباب برقَّةٍ. استدار باسمًا وهو ينظر إلى اللوحة التي بيدي. اعتذرتُ، فضحك بلطفٍ ودعاني للدخول. المكان فسيح، جدًّا، وبالغ الأناقة خصوصًا مع منظر البحر البديع. أردتُ أن أبقى قليلًا! وتحرَّجتُ من اقتحام عالمه. وحاولتُ الفرار. أخرجني من اضطرابي حين سألني عن الفترة التي قضيتها سكرتيرةً بالشركة، فقلتُ إنها سنةٌ وسبعة أشهر. اندهش وهو يقول إنه كان يعرف أنني أعمل بالشركة لكنه لم يتخيَّل أنني هنا من مدةٍ طويلة كهذه، خصوصًا أنه لم يرني قبل اليوم. قلتُ إنه لا ينزل من بيته، فكيف سيراني أو يرى غيري! وشعرتُ أنني تسرعتُ في الكلام. لم يظهر عليه الضيق، بالعكس، ردَّ عليَّ بهدوءٍ قائلًا إنه لم يعد يحتمل زحام الشوارع وبؤس المناظر. واستدرك موضِّحًا أنه يقصد منظر البيوت والعمائر المشوهة، وأنه يرتاح لجيرة البحر والنظر إليه من هنا.

دعا خادمته «أم مؤمن» فجاءت من المطبخ بوجهها الممتلئ بطيبة الملامح، وسألتني بعطفٍ عما أريد أن أشربه فتحرَّجتُ وحاولتُ الاعتذار، لكنه اقترح أن نشرب عصير «الأفوكاتو» وطلب من «أم مؤمن» أن تأتينا به في الشرفة الفسيحة.. لم أسمع من قبل كلمة «أفوكاتو» ولا أعرف ما هو!

البحُر. أدهشني الاتساعُ الخلابُ والمدى المفتوح، وتناغم درجات اللون الأزرق وطزاجة الهواء. ما هذا الجمال؟ لم أقف في محراب البحر والسماء من قبل، من مثل هذا الارتفاع ومن شرفة فسيحة كهذه. راودني حلم الطيران. غمرتني رغبةٌ مفاجئة في البكاء، أو الضحك. أحسست بأنني أمسُّ جوهر الوجود.. قلعة «قايت باي» تبدو صغيرة وجميلة من الناحية اليسرى، ومن اليمنى تبدو أشجار المنتزه، وما بينها خلجان متتالية تمدُّ ألسنتها في البحر فتلعقها من جانبيها الأمواج.

كأنه أدرك قداسة استغراقي وغوصي، فصمت تمامًا حتى سألته إن كان انبهاري بهذا المشهد البديع نابعًا من عدم اعتيادي عليه، أم هو دومًا مدهش؟ هزَّ رأسه قبل أن يخبرني بأنه من المستحيل الاعتياد على هذا المشهد، لأن البحر والسماء يختلف شكلهما كل حين وكلما تغيَّر الطقس وتعاقبت الفصول. ثم قال إن أجمل المشاهد، ما سيكون بعد ساعةٍ، حين تميل الشمسُ إلى الغروب، فترسم بالسحب ما لا حصر له من لوحات.. قلت له إنه شاعرٌ، فنفى وأدهشني قوله إنه لا يحب الشعر كثيرًا لأنه يثير عنده الإحساس بالفوضى، وهو يميلُ بطبعه إلى النظام والاتساق.

- اسمحلي يا بشمهندس، أنا مُش موافقة على كلامك.

- يعني، من حقك طبعًا. وعمومًا، لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع. صح؟

- لأ يا فندم، مُش صح.

أين «نورا» المتحفظة الملتزمة بالحدود! وما الذي جرى لي

فدفعني بحماسةٍ لا حدَّ لها، شارحةً له أن للشعر معماره الخاص الذي يحكم فيضان وفوضى المشاعر، سواءً كانت القصيدة عمودية أو من الشعر الحديث المعتمد على التفعيلة الواحدة التي تتكرَّر بنظام هندسي مخصوص.. إنصاته ونظرته شجَّعاني على الإفاضة، فأكملتُ كلامي مؤكِّدة له أن الشعر والهندسة المعمارية وجهان لعملة واحدة هي الموسيقى، فكلاهما نغماتٌ تجسَّدت. ابتسم وهو يسألني إن كنتُ مهندسة، فأخبرته بأنني حاصلة على درجة الماجستير في علم الاجتماع، وأعدُّ حاليًّا رسالة الدكتوراه. دخلتْ خادمته بالكوبين الطويلين المملوئين بالعصير الأخضر، اللذيذ، ذي القوام المتماسك. دعاني للجلوس، وناولني الكوب وهو يستغرب اهتمامي بالهندسة مع أن تخصُّصي بعيدٌ عنها. كدتُ أجاوبه لو لا أنه استدرك وقال بصوتٍ خفيض وهو ينظر برفق إلى آخر البحر: عمومًا *الهندسة أساس العلوم*.

وددتُ لو صححتُ له بإخباره أن الفلسفة هي أساس العلوم، ولكنها لا يمكن دراستها إلا بعد معرفة الهندسة. وعلم الاجتماع متفرعٌ من الفلسفة، وفيه فرعٌ اسمه الهندسة البشرية.. وددتُ ذلك لكنني لم أشأ أن أزعجه بالمزيد من الكلام النظري، فحسوتُ العصير على مهلٍ وأنا صامتة. عاد للكلام عن الشعر مستدركًا على كلامه السابق، بأنه يحب الغنائي منه. وسألني عن شاعري المفضل، فأجبته بأنه لا أحد على وجه التحديد، فأنا أحب قصائد معينة لشعراء عديدين. أعاد صياغة السؤال، وجعله عن قصيدتي المفضلة فقلتُ إن ذلك مرهونٌ بحالتي النفسية، فمثلًا المشهد البديع الذي أراه الآن يذكرني على الفور بقصيدة «أمل دنقل» التي يقول فيها إنه يعشق الإسكندرية: تحب تسمعها؟

ـ يا ريت، لو سمحتِ.

ألقيتُ على مسامعه القصيدة من دون أن أنظر إلى وجهه، لأتيح له فرصة النظر نحوي، وحين انتهيتُ نظرتُ إليه فرأيتُ في عينيه تعلّقًا وشغفًا، ورغبةً في احتضاني، فقمتُ متعللةً بأن ساعةً مرتْ وقد تأخر الوقت ولابد لي من الانصراف فورًا. ارتبك لحظة، ثم قال متلعثمًا إنه يود لو أبقى معه ساعةً أخرى لأرى مشهد الغروب، فقلت إن ذلك لا يمكن اليوم. سأل، فمتى؟ قلت: لا أعرف. أصرَّ على أن أعطيه موعدًا، وخيَّرني بين الغد أو بعد غدٍ، فضحكتُ بطفولية وأنا أقول إنها أيامُ عمل ولدينا هذا الأسبوع بعض الضغط، وسأكون مجهدة بعد انتهاء عمل اليوم.. اقترح بلطفٍ أن نلتقي يوم الجمعة، وبلطفٍ وافقتُ مع الاحتياط بأننا سنؤكِّد الموعد تليفونيًّا يوم الخميس. سألني إن كان رقمه عندي فقلت: طبعًا. وسألني عن رقم تليفوني المحمول فأعطيته له.. وبلا عنفوانٍ معلنٍ توادعنا على أملِ بلقاءٍ بعد أربعة أيام.

لم أنظر خلفي خلال نزولي السلم، مع علمي بأنه واقف بأعلاه. طبعًا أحببتُ أن ألتفت إليه وأن تُرفع نحوه عيناي مودِّعةً ومؤكِّدة أن افتراقنا مؤقت، لكنني تماسكتُ. في المصعد الهابط بي من عليائه، كان قلبي يتقافز داخل صدري ويعلو به ويهبط، وفي الشارع شعرتُ بأنني لا أسيرُ وإنما أطيرُ فوق الرصيف، وفوق العابرين من حولي، وفوق البنايات العالية، وفوق ذكرياتي كلها.. فوقي، وفوق السماوات.

عند تقاطع خط الترام مع شارع «الإقبال» أوقفتُ التاكسي الذي أخذني لبيتي عن طريق الكورنيش، لأُحاذي البحر. ما أحببتُ أن أعود

بالترام، مع أنها قريبةٌ وقريبةُ المحطة من البيت، لكنها بطيئة الحركة وأنا متسارعة النبض، ومتأخرة عن موعد عودتي، ومحتاجة جدًّا إلى النظر في الأفق المفتوح. لم يكن الكورنيش مزدحمًا، وكان هواؤه الخريفي مبهجًا، وكانت تتردَّد بداخلي أصداء القصيدة.

* * *

أعشق اسكندرية،

واسكندرية تعشق رائحةَ البحر،

والبحر يعشق فاتنة

في الضفاف البعيدة،

كل أمسية تتسلل من جانبي

تتجرَّد من أثوابها

تحلُّ غدائرها

ثم تخرج عاريةً في الشوارع،

تحت المطر.

* * *

في اليوم التالي ذهبت إلى الشركة قبل موعدي بساعة، بلا سبب. ولما وصل عم «ويصا» تعجَّله في إحضار قهوتي، وجلست أفكر بعمق. لا أدري فيمَ أفكر. وبعد انتهائي من فنجان القهوة طلبتُ آخر، وصارت عندي رغبة في الضحك. لا أدري لماذا.. وسألت نفسي سؤالًا لن أعرف الإجابة عنه: تُرى، ما الذي يفعله الآن في مستقره العلوي؟

مثل «نوَّة المكنسة» دخلت عليَّ «سالي» وهي مضطربة الهيئة والصوت لتسألني عن صحة ما وصلها من أخبارٍ عن وجود مشكلات في عقد القرية السياحية، فقلت لها إنني لا أعرف أيَّ شيء عن ذلك. بنظرة لومٍ وميل رأسٍ، أخبرتني بأنها سمعت عن خلاف بين الدكتور والبشمهندس بخصوص هذه العملية، وتأكدت من ذلك حين أتاها بالأمس اتصالٌ من زميلها «عمر» ليؤكِّد عليها الحضور مبكرًا للاجتماع مع البشمهندس.. أكَّدتُ لها أنني لم أعرف بعد أي شيء، لكن الأمر سيظهر سريعًا فلا داعي للقلق. تركتني وصعدت مع بقية المعماريين إليه، وهدأت الأنحاء.

جاء الدكتور يحمل بيسراه حقيبته الجلدية الكبيرة، وبرأسه شواغل كثيرة تعكسها ملامحه. بعدما شرب قهوته دخلت إليه بأوراقٍ كان بينها استمارة صرف مكافأة العقد الجديد، لجميع العاملين بالشركة. فأبعد الاستمارة وقال إن الصرف سيتأخر، لأن العقد مطلوب تعديله وقد يستغرق ذلك وقتًا. قلت له إن المعماريين صعدوا إلى «البشمهندس» منذ نصف ساعة، فردَّ عليَّ بما لم أفهمه: لمَّا نشوف، ربنا يهدي.

تمنيتُ أن يكمل كلامه، لكنه اكتفى وغرق بناظريه في ملف الموردين ومستحقاتهم المالية، فلم يكن من اللائق أن أشغله بأي استفسار. عدتُ إلى مكتبي وبقيتُ قلقةً، منتظرةً نزول «سالي» لأعرف منها ما يجري، لكنها تأخرت ولم ينزل أي معماري حتى الساعة الرابعة عصرًا، فانصرفتُ. في المساء اتصلت بتليفون «سالي» فوجدتها مجهدة النبرة وتستعد للنوم. استغربتُ أن الساعة لم تتعد الثامنة إلا بدقائق معدودة، وما يزال الوقت مبكرًا على النوم، فقالت إنها عادت

للبيت من نصف ساعة فقط، وغدًا ستذهب مبكرًا إلى موقع القرية السياحية المثار حول عقدها المشكلة، لأن «البشمهندس» طلب منهم المزيد مما يسميه المعماريون: تحليل الموقع.. قالت الكلمة بالإنجليزية، ولم أفهم معناها لكنني استحيتُ أن أطيل المكالمة بسؤالها، وهي مجهدة.

في اليوم التالي، كان الدكتور يجلس ظهرًا بمكتبه وعلى وجهه سمات الملل، فتلطفتُ في الكلام معه حتى لانت ملامحه وحينها سألته ببراءةٍ عن مشكلة عقد القرية السياحية، فقال إن شركتنا قدمت «العطاء» الخاص ببناء القرية السياحية إلى المستثمرين الذين اشتروا الأرض، وكان «العطاء» مرفقًا به التصميمات المعمارية التي أعدَّها «البشمهندس أشرف» وتمت الممارسة على هذا الأساس، وحصلت شركتنا على العقد الابتدائي، وتمَّ توقيعه فعلًا، تمهيدًا لتسجيله رسميًّا ثم البدء في التنفيذ.

بعد توقيع العقد بأيام، اندمج المستثمرون برأسمالهم كمساهمين صغار في «جروب» يملك قرى سياحية وفنادق، وله عدة أنشطة أخرى. المالك الأساسي والمساهم الأكبر لهذا «الجروب» طلب زيادة الوحدات السكنية والخدمية بالقرية المراد بناؤها، بحيث تزيد المباني بنسبة ستين بالمائة عما جاء في التصميمات. وهذا يحتاج إعادة للعقد وزيادة حجمه المالي، بقدر الزيادة المطلوبة في الإنشاءات، والاختلافات اللازمة في عملية إعداد وتسوية السطح.. عاد بظهره إلى ظهر كرسيه، وتنهَّد مجهدًا وهو يقول: *اللاند سكيب شغلتي الأساسية وممكن أحلّ مشكلته، بس المشكلة في الديزاين نفسه، أشرف مش عاجبه موضوع زيادة الوحدات، وانا عارفه عنيد.*

هُوَّ عبقري، بس عنيد جدًّا. ولازم نلاقي حلّ معاه، علشان الراجل صاحب «الجروب» هُوَّ كمان عنيد جدًّا.

ـ أكيد حضرتك هتلاقي حل.

ـ أما نشوف يا نورا، ربنا يسهّل.

* * *

في المساء اتصل بي «البشمهندس» ليؤكّد موعدنا يوم الجمعة، ويطلب مني المجيء مبكرًا قدر المستطاع، وأن أرتّب نفسي على الغداء معه. هكذا قال. لم أشأ أن أستجيب بيسرٍ إلى ما يطلبه، فيظن أني سهلة المنال. لكنني أيضًا لم أرد أن أماطله، فيملَّ، مع علمي بأن باله مشغول بمشكلة القرية السياحية. قلت له بوقارٍ إنني لا بد أن أخرج صباحًا بابنتي لأنها بدأت عامها الدراسي، ولا يصح حرمانها من الخروج يوم إجازتها، لكنني سأكون عنده في الثانية ظهرًا. ولا داعي لمسألة الغداء، لأنني وعدت «نور» بأن نتغدّى معًا في النادي اليوناني، لأنها تحب سمك «القاروص» المدفون في الملح، الذي يقدِّمونه هناك.

في تمام الساعة الثانية صعدتُ إليه فاستقبلني مبتسمًا، ومبتهجًا بالقَدْر الذي يسمح الحال بإظهاره. كان يرتدي قميصًا حريريًّا مريحًا، ناصع الاسوداد، لا هو بالرسمي ولا المنزلي. سألني إن كنت أود الجلوس في الصالة الفسيحة أم بالشرفة، فتحاشيت دوار منظر البحر برأسي وفضَّلت الجلوس بعيدًا عن أشعة الشمس التي تفترش أرضية الشرفة. سألته عن الفنان الذي رسم اللوحات الكبار المعلقة على الجدار، فأخبرني باسمه وأضاف أنه صديق قديم له. وسألته عن

سرِّ الإحساس بالفراغ في هذه الدوامات اللونية، فقال إنني ذوّاقة للفن التشكيلي! وسألني عما أريد أن أشربه فتحرَّجت لحظة ثم قلت «قهوة، قليلة السكر» فذهب بنفسه لإعدادها. ما كنت أعرف أن الجمعة هو يوم إجازة خادمه. ولما جاء يحمل الصينية الأنيقة والفنجانين، أظهرت له امتناني واعتذاري عن «التعب» الذي سببته له، فابتسم وهو يخبرني بأنه يحبُّ إعداد القهوة بنفسه.

البنُّ فواحٌ، وكنتُ خلال ذلك أسأل نفسي سرًّا، سؤالَ مراهقاتٍ: هل أعجبه لونُ عيوني؟ وحديثه كان مهذبًا ولطيفًا، وكذلك جلسته والموضوعات التي طرحها للحوار بيننا. ولاحظتُ أنه يتحاشى التحديق إلى جسمي، وحين يحادثني ينظر إلى عينيَّ بأدبٍ، فعرفتُ أنه لا يريد أن يفزعني منه، وقدَّرتُ ذلك غاليًا.

عرفتُ منه أن شقته الرحبة هذه أصلها شقتان منفصلتان، وكانتا مقسَّمتان على نحوٍ آخر حتى أعاد قبل سنوات رسمها لتكون على هذا النحو. مساحتها حوالي أربعمائة متر مربع، بالإضافة إلى الشرفة الواسعة التي قصد أن تكون أعلى من مستوى الأرضية الخشبية للصالة بدرجة واحدة، لتوحي بالارتقاء عند الخروج إليها لرؤية البحر والسماء. قلتُ إنهما يظهران أيضًا من هنا، فقال إن هناك فرقًا بين رؤية الشيء والوجود في حضرته. أعجبني تعبيره، وعبَّرت له عن إعجابي بأناقة الشقة ومحتوياتها الفخمة، التي تؤكِّد بتباعدها عن بعضها البعض، ذلك الشعور بالفراغ الذي يظهر في اللوحات الزيتية المعلَّقة. فقال إن ذلك لم يلحظه أحد من قبلي، أو على الأقل لم يخبره به أحد.

أردت أن ينتقل كلامنا إلى مستوى أعمق قليلًا من تلك العموميات، فقلتُ له إنني أعتقد بأن «العمارة» هي جوهر الهندسة، ولا يليق اسم «المهندس» إلا بالمعماري فقط، أما الإنشائي فالأصح أن نسميه «البنَّاء» مثلما كانوا قديمًا يسمونه. أعجبه بطبيعة الحال كلامي، وكذلك سؤالي الذي أعقبه: ما أقصى ما يمكن أن تفعله العمارة الداخلية والخارجية؟

قال بعد نظرة تركيز، إنها تفعل كل شيء. فالعمارة من حيث التصميم الخارجي تعكس رؤيتنا للعالم، وتعكس طريقة تعاملنا مع الطبيعة المحيطة بالمبنى، والعلاقة الدقيقة بين الوظيفة والقيمة الجمالية. ومن حيث التصميم الداخلي، تراعي العمارة وظيفة المكان بشكل كبير، لكنها تُضفي عليه بالفن والإبداع، ما يجعله أعمق تأثيرًا في النفس. فمن الممكن عمل تصميم داخلي لمنزل زوجية على نحوٍ معين، يجعل الزوجين يشعران بمحبةٍ أكثر لبعضهما، وبالعكس، يمكن عمل تصميم داخلي آخر يجعلهما يكرهان بعضهما بعضًا حتى لو كانا من قبل متحابين. بل ويكره الواحد منهما ذاته، من فرط الشعور بالضيق النفسي، حتى وإن كان المنزل واسع المساحة ورحب الأنحاء.. طريقته في الكلام راقية، وممتعة.

أحببتُ أن أدخل به إلى عالمي، فذكرتُ له أننا في علم الاجتماع نهتم بشكل المساكن ودلالتها على الواقع الاجتماعي، وهناك تخصُّص قائم بذاته نسميه «علم اجتماع السكان» لكنه بعيدٌ بعض الشيء عن تخصُّصي في الإنثروبولوجيا ودراسة المجتمعات البدائية والجماعات المحلية في العالم المعاصر.. وأفضتُ، فقالت عيناه إن كلامي ممتعٌ وإنه مستمتعٌ به.

بعد أكثر من ثلاث ساعات، وفي الحقيقة بعد أربع، استأذنت منه في الانصراف لأن موعد الغروب اقترب، فقال مازحًا إنه لن يسمح لي بالمغادرة إلا بعد أن نرى معًا منظر الغروب من شرفته، فابتسمتُ، فخرجنا إلى الشرفة التي تدير الرءوس، وجلسنا على أريكته المريحة مستسلمين لتحديق الشمس الحمراء فينا، قبل نزولها البحر كعروسٍ تذهب ببطء ودلال، إلى حمَّامها اليومي المعطَّر برحيقٍ سماوي.

آه.

عقب الغروب اضطررت للاستئذان في الرحيل، فاضطر للموافقة بعد أن طلب أن نلتقي في الغد بعد انتهاء وقت العمل، فقلتُ له إن ذلك لا يناسبني لأن السبت يومٌ دراسيٌّ بالنسبة لابنتي، فإجازتها الأسبوعية يوما الجمعة والأحد. واتفقنا على اللقاء عصر يوم الأحد. عند الباب مدَّ يده اليمنى لمصافحة الوداع، وعندما تركتُ يدي ليديه مسَّ بكفِّه اليسرى ظاهر كفي اليمنى، بلطفٍ، فكانت هذه اللمسة السريعة العميقة شبيهةً بتلامس شمعتين تشتعلان.. لو كنا نعيش في مجتمع غربي، غير معقَّدٍ، لكنتُ قد ألقيت بنفسي في حضنه.

فور هبوطي من عنده، جاءتني منه رسالة نصية على تليفوني المحمول، تقول إنني كنتُ جميلة جدًّا عندما انعكس على وجهي شعاع الشمس الغاربة. فابتسمتُ وابتسمتِ الأرضُ والسماء. في هدأة المساء، استعدتُ وأنا مستلقية على سريري كحوريات البحر، كلَّ ما جرى بيننا من كلماتٍ ونظراتٍ متحفِّظة. مُفصحةٍ متكتمة. وكيف كنت طيلة لقائنا متحرِّجة، ومتحرقة لسؤاله عن أمرين: زواجه السابق، ومشكلته مع الدكتور بخصوص تصميمات

القرية السياحية.. وطبعًا، كان الموضوع الأول هو الأهمَّ عندي، والأوْلى بالمعرفة.

* * *

حياتنا، حكايات.. كان لقاؤنا الثالث هو ابتداءُ الحكاية، بعد تجاوز المقدمات، ومن يومه هذا النهر المتدفق في أرضي العطشى، يشقُّ مجراه فتزهو ضِفّتاه بزهورٍ وأشجارٍ خضراء غير تلك التي نعرفها في دُنيانا. كنتُ قد أخبرتُ «توحة» في الصباح بأنني سوف أتأخَّر قليلًا في المساء، فضحكتْ وهي تقول: *وماله يانورا!* كأنها تشجعني على ما نويته من دون تصريح أو إفصاح، أو لعل قلبها الطيب أخبرها بما لم أحدِّثها عنه. بعد انتهاء يوم العمل، بدأ يومي المفعم بالأمل، بصعودي إليه، لم أعلِّق حين أخبرني بأنه صرف الخادمة مبكرًا، ثم استأذن لإعداد القهوة لنا، فكان من الواجب أن أذهب معه لأساعده. مطبخه أنيقٌ، رحبٌ، يبهجُ النساء. عند بابه قال إن قلبه يحدِّثه بأنني ذات يوم، سوف أُعدُّ لنا القهوة هنا وينتظرني هو في الشرفة حتى آتي بها. فقلت له إن هذا اليوم لم يأتِ بعد، وقلتُ لنفسي إنه ابتدأ.

في الشرفة طلب مني أن أحدِّثه عني، فأخبرته بوقائع حياتي إجمالًا، من دون تفصيل. أبدى اندهاشه من أنني لم أدخل بأيِّ علاقةٍ من بعد طلاقي، فقلتُ له بجديةٍ إنني لم أكذب عليه فيما حكيته، ولن أكذب أبدًا عليه، ويحزنني أن يكذِّبني أو لا يصدقني. حاول متحرجًا أن يخرج من مأزقه بقوله إنه لا يتهمني بالكذب، لكنه يخشى أن أكون قد أخفيتُ عنه أشياء لأنني لم أعرفه بعدُ بشكل جيد فرددتُ أن

الإخفاء خوفٌ، ولست أخافه لأخفي عليه أيَّ شيء. اعتذر لي بنظرة أسفٍ وبكلمة: طيب يا ستّي، خلاص.. فقبلتُ اعتذاره ورددتُ عليه بعبارته نفسها: طيب، خلاص يا سيدي.

دون أن أسأله، باح لي بأنه تأخَّر في الزواج حتى بلغ الخامسة والثلاثين، وكان قبل ذاك يتوهَّم أنه لم يجد الزوجة التي تستحقه، ظنًّا منه أنه فريدٌ بين الرجال. فهو غنيٌّ، وسيمٌ، وسليلُ أسرةٍ عريقة، وناجحٌ في عمله. فلما التقى بها ظن أنها فريدةٌ بين النساء، فقد تخرَّجت في الجامعة الأمريكية مهندسةً، ولم تعمل لأن أهلها أثرياء بشكل فاحش ومتصلون بالسلطة اتصالًا وثيقًا، وهي جميلة وذكية وهذا أمرٌ كان يعتقد أنه قليل نادر في النساء.. ثم عرف لاحقًا أن هذه كلها أوهامٌ في أوهام.

أيام الخطوبة أخبرته بأنها متحرِّرة الأفكار، فلم يكترث. ثم أخبرته بأنها لا تود الإنجاب إلا بعد خمس سنوات حين تصل إلى سن الثلاثين، فلم يهتم. ثم أخبرته قبيل الزفاف بأنها تؤمن بحرية الجسد فلم يفهم بدقةٍ ما تقصده.

كان آنذاك يسافر كثيرًا، لأن بعض تصميماته المعمارية كانت تُنفِّذها شركات أوروبية، فصار يصطحب زوجته في الأسفار لأنها قاهرية وتضيق بالعيش في الإسكندرية وترى أنها «قرية» لا مباهج فيها، وكانت تنام طيلة النهار وأول الليل ثم تصحو لتشكو من الملل. فكان يحتمل منها ذلك على مضضٍ، ويعوِّضها عن معاناة السأم بكثرة السفر سواءً للعمل أو لقضاء الإجازات حتى كانا آخر مرة في «باريس» وكان هناك تفكير في عمل استثمارات عقارية في الساحل

الشمالي بشراكة فرنسية، فكانت الاجتماعات متالية وتستغرق الساعات الطوال نهارًا وليلًا.

وفي ليلة عاد مساءً فلم يجد زوجته بالفندق، ولم تردّ على اتصالاته لأن تليفونها المحمول كان مغلقًا، فظل قلقًا يترقب حتى جاءت متأخرة بعد انتصاف الليل، ومجهدةً، وسكرى. تشاجرا، لكنه لم يشأ تصعيد الشجار لأنه مرتبط باجتماعٍ مبكرٍ في الصباح. نام كمدًا، ومبكرًا تركها نائمةً بالغرفة وذهب للعمل، بعدما ترك لها وريقة مكتوبًا فيها أنه سيعود بعد الساعة الثالثة ظهرًا.

لا يدري ما الذي دفعه للاعتذار عن تكملة اجتماعه. ربما لشعوره بالإجهاد أو لفرط قلقه عليها. المهم أنه عاد إلى الفندق في الساعة الحادية عشرة، فوجد الباب مغلقًا من داخله ومعلقًا عليه علامة عدم الإزعاج. أصابه القلق بعد فشل مفتاحه ودقاته، وخطر بباله أنها قد تكون واقعة تحت تأثير مخدرٍ ثقيل، أو حاولت الانتحار. كان مشرف النظافة حاضرًا منذ ابتداء الأمر، فلما امتد الوقت أبلغ الإدارة، وبعدما يئسوا استدعوا لفتح الباب واحدًا من الفنيين.. وبينما الواقفون حوله يفترسهم القلق والتوترُ، والفنيُّ يتحايل لفتح الباب بأقل الخسائر الممكنة، انفتح الباب من الداخل وسط دهشة الحاضرين، وفوجئ الجميع بها واقفة بوجه مخطوف اللون، تسدُّ الباب بجسمها وتقول بالعربية وبالفرنسية، بصوتٍ فاجر: *امشوا من هنا، امشوا كلكم.*

في غمرة اندهاش الأشخاص الخمسة الواقفين حوله، تملَّكه الغضب فأزاحها عن الباب بعنفٍ واندفع إلى داخل الغرفة، فوجد في الزاوية زنجيًّا قوي البنيان يرتجف، ويَهْرِفُ فَزِعًا بكلامٍ غير مفهوم.

وكانت هي قد هربتْ من عند الباب، لحظة اقتحامه الغرفة.. لم يرها بعد ذلك إلا بالقاهرة يوم اجتمعوا عند المأذون للطلاق، وكان العجيب في ذاك اليوم أنها كانت في كامل زينتها، ولما لمحها بعينيه حين ألقى عليها يمين الطلاق، البائن، وجدها تجلس بين أهلها باستعلاءٍ لا يعرف الحياء، وعلى وجهها شبح ابتسامة. نظر إلى بعيدٍ ثم أضاف بانكسار: بس، *ومن يومها تغيَّرت حياتي كلها.*

لمحتُ في قاع عينيه دموعَ حسرةٍ، لم أحبّ أن تنسكب. وأخذني نحوه إشفاقٌ أموميٌّ دعاني لانتشاله من متاهة الذكريات، بتغيير الجلسة والموضوع، فأمسكتُ بكفيِّ كفيَّ قائلة إن الهواء صار باردًا ويحسن أن نجلس بالداخل، مع أن المشاهد السماوية قبيل الغروب بديعة. فاستفاق وقام باسقًا، واستمهلني لحظةً ثم عاد بسرعة ومعه «بلوفر» صوفيٌّ فاخر، فأخذته باسمةً وغطيتُ به كتفيَّ وضممتُ إليَّ أطرافه مستمتعةً بدفئه، وعبق رائحته.. متجاورين، وقفنا عند سور الشرفة نتأمل في سكونٍ لوحات السماء، وتماوج ألوان السحاب واحمرار شمس الغروب. وكأننا نصلي في معبدٍ قديم. توقَّعتُ أن يضع يده اليمنى على كتفي اليمنى، ويضمّني، لكنه لم يفعل. ما كنتُ سأعتبُ عليه لو فعل.

يومها، كنتُ أودُّ أن أحادثه عن زيجته السابقة هذه، الفاشلة، كي يخفّ عنده ثِقَلُ الذكريات واحتقانُ الألم. لكنني رأيتُ الوقت غير ملائم، وما يربطنا لا يسمح لي بالخوض معه في تلك الشجون الشائكة، فانتظرتُ فترة حتى تقاربنا أكثر مع تكرار اللقاءات. فلما دام بنا تدفق النهرِ وتجاوزنا حَرَجِ البدايات، وفي أول مرةٍ أشار إلى هذه الذكرى، ترفَّقتُ في الكلام وأفهمته أنني من شدة شفقتي عليه

وشعوري بآلامه، لا أحب له أن يلوم نفسه كثيرًا على ما فعلته طليقته. فهي في نهاية الأمر لم تفعل ما يزري به، بل ما يزري بها! ربما كان بإمكانها أن تطلب منه الطلاق وتنطلق حُرَّةً إلى حيث تريد، ولعل الطمع دعاها لمحاولة الحصول على كل شيء: الزوج الذي تستكمل به الشكل، والمتع التي تلتذ بها في اللحظات العابرة، والصورة الاجتماعية الناصعة التي تسمح لها بالتسلل لاختلاس اللذات.. عمومًا، ومهما كانت دوافعها لما فعلته، فقد أخطأتْ. لكنه أيضًا أخطأ في البداية، حين لم يتنبه لما أخبرته به من رغبتها في التحرر وتحرير جسدها من كل قيد. ولا يشفع له حُسن ظنه وتجاهُله لما صرَّحتْ به، بوضوح. لكنه في نهاية الأمر لا يصح أن يشعر بكل هذا الأسى، ولا يجوز أن يظن أن ما جرى معه مأساة نادرة الحدوث. بالعكس، فمثل هذه الوقائع عديدة، لكنها مسكوتٌ عنها لأن مجتمعنا يميل بطبيعته إلى الستر، ولا يحب الإفصاح. أما زوجته السابقة هذه، فأمثالها في النساء ببلادنا كثيراتٌ، والتشوهاتُ في التنشئة الاجتماعية لابد أن تقود لمثل هذه السلوكيات المشوَّهة. فلا شيء يُدهش فيما وقع معه، ومن الممكن أن يقع مثله مع أي رجل آخر، دون أن ينتقص ذلك منه.. ثم ابتسمتُ وأنا أقتربُ منه فأهمس في أذنه بأنها هي الخاسرة، فمثله يستحق أبهى النساء.

ارتاح لكلامي، وشعرتُ أنه يسترد رويدًا ثقته بنفسه ويزداد مع مرور الأيام إشراقًا، فعرفت أنه لم يعد يتقلَّى في غليان زيت الذكريات. وقد اجتهدتُ من جانبي حتى أنسيته ما كان، وما سيكون، بالغوص بصدقٍ في لحظتنا الحاضرة.. والعشقُ علاج.

كان ذلك بعدما اطمأن إليَّ، أما يوم وقفنا في شرفته المشرفة على

المشهد البديع، فقد سلب الغروب كل حواسنا فلم ننطق بشيء حتى استولى على السماء الاسودادُ، فدخلنا لنجلس في الصالة. ولمَّا رأيته يُضيء من فوقنا ومن حولنا لمباتٍ عديدات، عرفتُ أنه غير خبير بالنساء. وأسعدني كونه كذلك. ليلتها جلس في زاوية الأريكة الوثيرة، وأعرب عن رجائه ألا يكون قد أزعجني بذكر وقائع زيجته السابقة، فنفيتُ بهزَّة رأسٍ وبابتسامةٍ، وأردتُ أن أبعده عما كان يحكيه فسألته عن والدته.. قطَّب حاجبه مندهشًا من سؤالي، ثم ابتسم وهو يقول إنها كانت من أعظم النساء، لكنها عانتْ كثيرًا. قلتُ له ممازحةً، إن الأمهات كلهنَّ يعانين لأن الأمومة كلها معاناة. فقال إن ذلك لم يكن هو السبب، فهي لم ترزق بأطفالٍ غيره ولم يشعر قط بأنها تعاني منه، بالعكس كان هو عزاءها الوحيد المواسي لها في مآسيها. إذ كان أبوها من كبار تجار القطن وموزِّدي البصل، وكان يملك أراضي زراعية شاسعة. جده لأبيه أيضًا كان ثريًّا، لكن مجال عمله كان مختلفًا. فقد كان مساهمًا أساسيًّا ومديرًا إقليميًّا لشركة إيطالية، تعمل في مجال المحاجر واستيراد الرخام وتصديره. وعقب زواج أمه بأبيه في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، انقلب الرئيسُ على الأثرياء عمومًا، فكان منهم جده لأمه وجده لأبيه.

شاركته الكلام بأن سألته إن كان جدَّاه يعملان آنذاك بالسياسة، فضحك وهو يقول إنهما كانا مشهورين بأعمالهما الخيرية ورعاية الأيتام والمعدمين، ومعروفين بالبعد التام عن السياسة. كل ما في الأمر أن الرئيس خالد الذكر، هكذا ذكره من دون التلفُّظ باسمه، كان قد انتهى من سلب أموال الأمراء والحاشية الملكية، ثم استدار إلى ما بيد الأثرياء فانتزعه بدعوى «التأميم» ونثر منه على عوام الناس

ليضمن تأييدهم، وأمعن في نهب واعتقال وتشريد الأغنياء باعتبارهم الأعداء. فكان الجدان من ضحاياه الكثيرين، لكن شراكة جده لأبيه مع أجانب، حفظت له بعض حقوقه، فلم يكن بمستطاع هؤلاء الحقراء سلب أمواله كلها، فطردوه من مصر ومات منفيًّا في إيطاليا. أما جده لأمه، فقد سلبوا منه كل ما كان يملكه، ولما أخرجوه من المعتقل مهلهلًا ليموت في بيته ليلة الإفراج عنه، عقب رؤيته للفيلا التي كان يسكنها وقد صارت خربة كبيوت الأشباح.. وقد شاء القدر لأمه المسكينة أن تشهد كل هذه المآسي، لكنها لم تتكسر، وكذلك أبوه الذي قاوم الانهزام وصمد طويلًا حتى استقامت حياته في الثمانينيات، لكنه لم يحتمل البقاء بعد رحيل زوجته، فمات بعدها بشهرين.. قال: كان *نفسهم يشوفوا أحفاد، بس محصلش.*

احترتُ قليلًا في إيجاد حيلةٍ أطرد بها سُحُب الكآبة، فسألته بطريقة طفولية عن سر نجاحه الباهر في عمله، لدرجة أن الدكتور يسميه العبقري. ضحك وهو يقول مازحًا: ما يمكن أكون فعلًا عبقري، بالصدفة يعني، قلت ضاحكةً: *كل شيء ممكن يكون بالصدفة، إلا العبقرية، أصلها بتحتاج صبر طويل وشغل كتير.* تضاحكنا بتحفُّظ وقد بدا لنا أن جدران الجليد بيننا ذابت، وشاع الدفء.. دعاني لإعداد الشاي معًا فحاولت الاعتذار بأن الوقت تأخر، وقد تعدَّت الساعةُ السابعةَ. قال بلطفٍ إن أمامنا إذن ساعةً واحدة فقط، ولا بأس لو شربنا الشاي خلالها. قمتُ معه وعدنا بأطيب شاي شربته.

كان قد أصرَّ على أن يحمل الشاي من المطبخ إلى حيث نجلس، فلم أوافقه وقمعتُ إصراره بإصراري ضاحكةً فاستسلم، وتلامسنا خلال الجدال اللطيف الذي انحسم لصالحي. جاء خلفي بطبقٍ

عريضٍ لا حواف له، مصفوفة فيه شرائح من الجبن لم أر معظم أنواعها من قبل، لكن شكلها يؤكد أنها شهية ومتنوعة الطعم.. وهو يضع الطبق أمامي، مال إلى جبهتي متمهلًا وترك عليها قُبلةً خفيفة، فرمقته بواحدة من النظرات الجانبية التي تصد الرجال، وتدعوهم.

ارتدع إلى حينٍ وعاد ليجلس بموضعه الأول طاويًا ساقه تحته، وفَرِحًا كطفل، ومتلطفًا في إخباري بأنه مبتهج جدًا بوجودي قريبةً منه، وبأنه كان يفتقدني بشدة الأيام الماضية لكنه كتم ما به كيلا أسيء فهمه، وبأنه معجبٌ جدًّا بشخصيتي وبذكائي وبطريقتي في الكلام وبتسريحة شعري. كان مرتبكًا، وكنتُ أرى في آفاق عينيه ما لا يبوح به. رأيتُ رجلًا منهكًا يود لو يرتاح، وصبيًّا يافعًا يتوق إلى الانطلاق، وطفلًا يحلم بحضنٍ حاوٍ.. لكنني تمالكتُ زمام انجذابي إليه كيلا يظنني امرأةً عادية عابرة، وحتى يدرك أنني لستُ من النساء المائلات مع الهوى. بقيتُ هادئة، أنظر إليه داعيةً ومدعوَّةً حتى حانت لحظةُ التلبية حين اقترب قليلًا وهو متردِّدٌ، ثم اقترب كثيرًا وهو متشوقٌ، ثم لمسني. شعرت بلمساته هامسةً رقيقةً، نادرةَ التأثير، وشعرت بأنه يليق بي وأليق به. فهو إنسانٌ حقيقيٌّ، نادرٌ، يستحق أن أمنحه شيئًا من كنزي المخبوء. من رحيق روضات الجنات. وهو يهُمُّ بي، هممتُ به وحالي يقول: هيت لك، لن أستمهلك.. نزلتُ من عنده، أحملُ في حناياي رائحته، بعدما كانت الساعةُ قد تجاوزت العاشرة مساءً.

* * *

صرنا نلتقي كل يومين أو ثلاثة، وكل ليلة نتهاتف ويطول بيننا الحديثُ الدافئ لساعات. ما عادت الساعات كالساعات ولا الأيام

كالأيام، فالوقت انقسم إلى حالتين: حالة الاشتياق وحالة الالتقاء.. معًا، نحلِّق حينًا ونغوص أحيانًا فنرى الكون مختلفًا، ونكتشف ذاتنا من جديد.

مع مرور الأيام عرفتُ فيه جوانب جميلة، وعرف معي معنى العشق. وطمأنني إليه أنني كنتُ كلما منحته أكثر، يُكثر من تعلُّقه بي. ولا يفعل كالحمقى من عوام الرجال، الذين يزهدون حين يتوهَّمون أنهم امتلكوا المرأة، فيهربون منها إلى غيرها. رغبةً في الاستعلاء وظنًّا منهم بأنهم سوف يلمسون سرَّ الأنوثة، الجاذب المشوق، بالتوغل في نساء كثيرات. مساكين. لم يتعلموا من الأمهات ولا من تجارب الحياة، أن للأنوثة جوهرًا واحدًا ووجوهًا لا حصر لها.. المرأة واحدة، أما أحوال النساء فهي على عدد أنفاس البشر. وهذا سرٌّ لا يدركه من الرجال إلا مَنْ كان راقيًا.

هو راقٍ، ورائقٌ. ولأنه يعرف كيف يحبُّ، فهو يستحق أن يكون محبوبًا.. كنتُ كلما تقاربنا أراه أجمل، وأطيب قلبًا، وأعمق إحساسًا بي وبالحياة التي كان محرومًا منها. تأكدتُ من أنني كنت مُدَّخرةً له طيلة السنوات السابقة، فما كان رجل غيره يستحق أن أوقد له قنديلي وأدخل به إلى حَرَم سردابي المقدس.. للحب أحكامٌ، وللعشق أهلٌ يستحقونه.

اكتشف معي أمورًا، منها أن الحب هو مفتاح الحياة المفقود دومًا، فلا يجده إلا المحظوظون. واكتشفتُ معه أمورًا ما كنتُ لأدركها لولا صدق العشق، منها أن الجوهر الإنساني لا يكون إلا بالتناغم بين الأنوثة والذكورة. ومنها أن الحب الأول خرافة، لأن كل حبٍّ

هو الأول والأخير، هو سيدُ الوقت وسلطانه الوحيد، فلا أمس مضى ولا غدٌ سيأتي. لا حضور في الحب إلا لأحوال اللحظة، ولا نهاية لآفاق العشق، مهما توغل فيه القلب.. ولا حياة لنا، إلا حين نحب.

ولأجل خاطري، صار يخرج من محبسه الاختياري. فعل ذلك مراتٍ. مرةً حين تأخرت عنده حتى الحادية عشرة، فنزل معي لتوصيلي بسيارته الكبيرة التي كانت تشكو من طول الخمود بالجراج. ومرةً يوم قلت له عصرًا، إنني أودُّ أن أرى غروب الشمس من فوق اللسان الصخري الذي تقف على طرفه قلعة «قايت باي» فارتدى بلوفر وحذاءً أنيقًا ونزل بي إلى هناك، بعد أن قال ضاحكًا: *يا فندم، انتِ رغباتك أوامر*.. ومرةً، يوم أخذني للغداء في المطعم الفاخر الذي بقلب «المنتزه» وعند عودتنا منه وقف بالسيارة في منحنى الكورنيش المجاور للسور، وقال إننا المرة القادمة سنذهب إلى مطعم الأسماك في «أبو قير» وليت نور تأتي معنا.. اندهشتُ من كلامه، فسألته:

ـ نور، بنتي!

ـ أيوه طبعًا، علشان أتعرَّف عليها وأخلِّيها تحبني. فلما أطلب إيدك منها، توافق.

ـ يا سلام. أنا لازم أوافق الأول، ولَّا هي فوضى يعني.

ـ يا نورا إنتِ الأول، والوسط، والآخر. إنتِ كل حاجة.

ـ بقيت شاعر يا أشرف! راح فين المعماري؟

ـ الشعر والعمارة، وجهان لعملة واحدة. مُش ده كلامك.

ليلتها نزلتُ من سيارته أمام البيت، وأسرعتُ بالدخول تحت

زخات المطر، المبهج. وجدت «نور» نائمة، وكانت «توحة» تحتل موقعها الاستراتيجي أمام التلفزيون، فأخذتها من يدها بعدما أغلقته ودخلنا غرفتي وهي تتساءل: *جرى إيه يا نورا، مالك يا بنتي؟* أجلستها على سريري، وبدلت ملابسي وجلست قبالتها لأحكي كل ما كنتُ أخفيه عنها طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، فكانت عيناها تدمعان، مع أن فمها يبتسم. ولما أخبرتها بالحديث الذي دار قبل قليل، أجهشت بلا صوت ثم ضحكت وهي تخفي فمها بيديها، ثم مسحت دموعها وأشرق وجهها بابتسامةٍ أموميةٍ وهي تقول: *ربنا يسعدك يا نورا ويفرَّحك.*

واحتضنتني، وبكيت.

* * *

يوم الأحد الموافق للسادس من يناير عام ٢٠٠٨ عدنا إلى العمل بعد إجازة رأس السنة التي امتدت خمسة أيام لاتصالها بإجازة آخر الأسبوع. أتيتُ يومها مبكرة ولم يكن أمامي ما أقوم به خلال ارتشافي فنجان القهوة، فتصفَّحت الجرائد التي لا تأتي بأي جديد. ثم جلستُ ساكنةً أفكِّر في «نيرة» التي ستتزوج لأول مرة يوم الخميس القادم، بدون فرح، لأن الزوج متزوج ويخشى افتضاح أمره إن أقاما حفلًا للعرس. بعد هدأةٍ امتدتْ سويعة دخل الدكتور مسرعًا إلى مكتبه، مع أنه أخبرني تليفونيًّا في الليلة السابقة بأنه سيأتي متأخرًا بعد المرور على مواقع العمل، وقبل أن أسأله قال وهو يمرُّ من أمامي إن صاحب جروب «صقر قريش» في طريقه إلى هنا، وعندما يصل، عليَّ أن أُدخله على الفور ولا أتركه لحظةً ينتظر. وقف عند باب مكتبه،

والتفت إلى الخلف نحوي قائلًا بعد تنهيدةٍ حرَّى، إنه سيحاول معه حل مشكلة التصميمات المطلوبة للقرية السياحية، وأخبرني بسرعةٍ بأن اسمه حمدون بيه. بعد أقل من ساعة دخل رجلان، الأول طويلٌ يابسُ الملامح مائلُ العينين، نظر إليَّ باشمئزازٍ كأنه يرى امرأةً عارية ثم قال بنبرة استعلاء: *عندي ميعاد دلوقت مع الدكتور، أنا حمدون أبو الغاب*. قبل أن تذهلني الصدمة، قلتُ: *اتفضل يا فندم الدكتور منتظر حضرتك*.

انتفخت أوداجه النحيلة ودخل متفاخر الخطو بعدما قال لمن جاء معه، إن عليه الانتظار هنا. ما هذا الذي يجري من حولي. نظرت بعين الدهشة إلى مرافقه الذي جلس أمامي واضعًا الساق على الساق، فوجدته شابًّا أسمر في حدود الثلاثين، عيناه مألوفتان أو هما تشبهان عينين كانتا مألوفتين. سألته عما يحب أن يشربه، فقال بصلفٍ صبياني إنه تناول قهوته في الفندق، وسألته إن كان يعمل في «الجروب» مع حمدون بيه، فقال إنه المسئول عن الشئون القانونية في سلسلة محلات البقالة التابعة للجروب، وإن حمدون بيه خاله.. تمالكتُ نفسي بقدر المستطاع، وقلتُ:

ـ أهلًا وسهلًا بحضرتك، واسم سيادتك إيه؟

ـ سفيان.

الآن اكتملت الدائرة فأشعرتني بالدوار. هذا أخوه سفيان، وهذا ابن عم أمه «حمدون أبو الغاب»، وهذا هو الماضي ينفجر في وجهي مقتحمًا حاضري بقوة. أحسستُ بفوضى عارمة تعصف برأسي وتثير فيه أسئلةً كالزوابع العاصفة.. هذا الشاب مصري اللكنة، فكيف يكون

قد نشأ بالسودان؟ وهذا المتعجرف المقرف الجالس بالداخل مع الدكتور كان صاحب مكتب سياحي بأسوان، فكيف صار مالكًا لهذه الشركات كلها في أقل من عشر سنوات؟ وأين هذا الذي ذهب منذ أعوام ولم يعد، أم تراه عاد؟ عقلي يتوقَّف، وقلبي يضطرب، وتشرد عني عيناي. عدتُ إليَّ بصعوبةٍ حين سألني «سفيان» عن اسمي: أنا، اسمي «نورا عبد السلام»، مديرة مكتب الدكتور، ودي تليفوناتنا، ممكن تليفون حضرتك علشان أسجِّله عندنا.

بعظمة مصطنعة تناسب أمثاله من الصغار الذين يظنون أنفسهم كبارًا، قال «بكل سرور» وأخرج من محفظته بطاقة تعريف ملوَّنة، مكتوبًا فيها بحروفٍ مُذهبة: سفيان محمد إبراهيم أبو بكر، مدير العلاقات العامة. وتحت ذلك أرقام أربعة تليفونات. أخذت منه البطاقة بأصابع ترتعد، واجتهدت لإخفاء فوضاي واجتناب نظراته التي يظنها خطيرة وابتسامته البلهاء.

ساد الصمت، فاستأذنتُ منه وذهبتُ مسرعةً لا أعرف إلى أين. كانت «سالي» تمرُّ من أمام مكتبي فطلبتُ منها أن تنتظرني فيه، وأكملت سيري كأنني أقصد الذهاب إلى «البوفيه» ثم تجاوزته إلى دورة المياه وأغلقتُ خلفي الباب. نظرتُ في المرآة فازداد الاضطرابُ والخفقان، مسحتُ وجهي بمنديل مبلل فشعرتُ بسخونة خدَّيَّ. عيناي يحوط اخضرارهما احمرارٌ فاضحٌ لكل ما بداخلي. أمسكتُ وجهي بقوةٍ كأنني أحفظه من الفرار، ثم تنفستُ كالغرقى وأنا أتوسل لنفسي كي تتماسك، ولا تستجيب لرغبتي في البكاء. لا أدري عدد الدقائق التي مرَّتْ عليَّ حتى استفقتُ نسبيًّا، وهندمتُ ملابسي ومسحتُ على رأسي بيدي ثم أسرعت إلى مكتبي.

لحظة دخولي كانت «سالي» منشغلة بشيء تكتبه في هاتفها المحمول، وكان «سفيان» يحدق كالمراهقين في فخذيها، وهي في غفلةٍ عنه بما تفعله. قلتُ لها بصوتٍ هادئ لكنه مسموع، إن الدكتور في اجتماعٍ مهم وسوف أحتاجها عقب انتهاء الاجتماع، فهل لديها اليوم أعمال خارج المكتب؟ قالت وهي تقوم، إنها ستبقى حتى الساعة الثالثة عصرًا، ويمكنني استدعاؤها وقتما أحتاج إليها.. حاول «سفيان» أن يجاذبني أطراف الحديث، فقال إن زميلتي هذه تبدو لطيفة، فقلت: جدًّا. سألني إن كان اسمها سالي، فقلت: *أيوه*. *قال: ودي مسيحية ولا مسلمة؟*

نظرتُ إليه بدهشةٍ، واستنكار، فخفض عينيه مرتبكًا ثم حاول الخلاص من سُخف كلامه، بكلام أشد منه سخفًا. قال كأنه يخبرني بمعلومة خطيرة، إن العاملين بشركات «الجروب» عددهم أكثر من ألفين، وكلهم مسلمون! تجاهلته بأن هاتفت الدكتور لأسأله إن كان يريد مزيدًا من القهوة، أو أي مشروبٍ آخر. شكرني بسرعة وأغلق الخط، فعرفتُ أنهما بالداخل منهمكان في الكلام، وأن المشكلة لم تحل بعد. بعد فترة صمت راودتني فكرةٌ فسألتُ «سفيان» إن كان مقر عمله في القاهرة، أم الإسكندرية؟ استعاد حيويته فرحًا بعودة الحديث، وأفاض في أنه مقيمٌ بالقاهرة لكنه يحب المجيء إلى الإسكندرية، لأنه يستطيب أكل السمك في بحري! وهذه المرة جاء بصحبه خاله «حمدون» وسوف يبقيان حتى يوم الثلاثاء القادم، وهناك احتمال أن يبقى وحده من الثلاثاء إلى الجمعة، ليشبع من الإسكندرية، هكذا قال.

لما رآني منصتةً إليه باهتمام، قال إن خاله لديه بعد هذا الاجتماع

اجتماعٌ آخر، وهو لن يذهب معه. سيعود وحده إلى «الشيراتون» ويتناول الغداء وحده، ويبقى حتى المساء في الفندق وحده. كرَّر الإشارة إلى أنه سيكون وحده، كأنه ينتظر أي إشارة. لكنني كنتُ جامدة الملامح، أفكر. ولم أكن قد قررتُ بعد، أن أتصل بتليفونه في الساعة الثانية ظهرًا.

خرج «حمدون» من مكتب الدكتور متجهِّمًا، ومضى مسرعًا من دون أن يلتفت أو ينطق بكلمةٍ، فلحقه «سفيان» مهرولًا. بعد دقائق، استدعاني الدكتور فدخلتُ إليه وبداخلي دواماتٌ تدير رأسي وتطحن كل الأفكار سألني إن كنتُ أعاني من شيء، فقلتُ إنني بخيرٍ وشكرته على اهتمامه طلب مني الجلوس فجلستُ لأسمع منه ما لم أكن أتوقعه. قال بعد تمهيدٍ مفاده أنني عنده مثلِ «ياسمينة» فأظهرت الامتنان وازداد بقلبي الوجل وبرأسي الدوار، أشعل سيجارة أخرى وهو يتلطَّف في اختيار الكلمات ليخبرني بأنه يعرف صلتي بالبشمهندس «أشرف» وقد أخبره بعض معارفه بأنهم رأوني معه في مطعم فندق «السلاملك» بالمنتزه. التزمتُ الصمت. أضاف أنه لا يعرف طبيعة العلاقة التي تربطني به، وليس من حقه التدخل في هذا الأمر ما دام لم يمس العمل، فقلتُ إننا أصدقاء. استراحتْ ملامحه، بل ابتسم وهو يقول إن ذلك لا بأس به وربما يكون فيه الخير، ثم سألني إن كان من الممكن أن أتحدث معه في موضوع القرية السياحية! أوضحتُ له أن صداقتنا لا صلة لها بالعمل، لكنني سأحاول فتح الموضوع معه. قال إنه صعد إليه مساء أمس، وحاول إقناعه بعمل التعديلات المطلوبة لإنقاذ العقد، لكنه رفض. رددتُ حائرةً، بما معناه أنني سأحاول بقدر المستطاع إقناعه، فشكرني.

في تمام الثانية ظهرًا خرج الدكتور وأخبرني بأنه لن يعود اليوم إلى المكتب، فسألته إن كان بإمكاني الخروج من العمل مبكرًا فوافق وسألني ثانية إن كنتُ أعاني من شيء، فقلت مهوِّنةً: يعني شوية مغص.. لم أكن أكذب، فقد كانت الدَّقات المؤلمة لأسفل بطني وظهري، تخبرني باقتراب النوبة الشهرية. فور خروجي من العمل اتصلت بسفيان وسألته إن كان من الممكن أن أقابله بعد ربع ساعة، فرحَّب، وسألته إن كان وحده فأكَّد مبتهجًا وهو يظن الظنون.

في مدخل الفندق وجدته واقفًا يترقب، فطلبتُ منه أن نجلس في مكان هادئ، فرحَّب بذلك. أخذني إلى مطعم واسع إلى جهة اليمين، فجلسنا في زاويته المطلة من خلف الزجاج على حمام السباحة الخالي من الماء والسابحين. المكان فعلا هادئ. سألني عما أفضِّل للغداء فقلتُ إنني سأتناول غدائي بالبيت، ألحَّ، فرجوته أن يصرف «الجرسون» الآن، لأن هناك موضوعًا مهمًّا يجب أن نتحدث فيه. بغير اقتناع صرف الرجل البدين وهزَّ رأسه مظهرًا الأسف، ثم بدا له أمرٌ فابتسم وهو يُعرب عن سعادته بهذه الجلسة، الجميلة، وكاد يُدير الأسطوانة ليسمعني الكلام الممجوج، فقاطعته قائلة: *يا «سفيان» ركِّز معايا لو سمحت، أنا نورا، أخوك «محمد» قال لي إنه حكى لك عني، وإنك كنت في صفِّنا.*

ـ إيه ده! نورا، بتاعت إسكندرية، معقولة. سبحان الله، الدنيا فعلًا صُغيرة.

هذا الولد غبي، وينبغي أن أحتمل انفعالاته الساذجة، حتى يخبرني بما أريد أن أعرفه. ولحسن الحظ لم أبذل في ضبط نفسي مزيد جهد،

وأنا أصلًا مجهدة، فبعدما أبدى اندهاشه الصيني استخبرتُ منه عن أخيه فقال وقد تغيَّرتْ نظرته فصارت مهذبة، إن أخاه «محمد» ربنا يرجعه بالسلامة، أيامها عانى كثيرًا بعد فراقنا، ثم سافر للعمل مع جماعة مهمين في الخليج، وتزوَّج ابنة واحد من المجاهدين لكنها غدرت به بعد أن ذهب إلى باكستان، واعتقلوه هناك بسبب تشابه في الأسماء، ولما انقطعت أخباره تركته زوجته وهربت. ظلوا يبحثون عنه حتى عرفوا بعد عدة سنوات، أن الأمريكان يحبسونه في معتقل عندهم اسمه «جُوَّنتنامو»، وصفه بأن الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود.

خفق قلبي وارتجَّ حين سمعت كلمة «جُوَّنتنامو» المعروف أنه معتقل رهيب، لكنني تماسكتُ واستجلبت من «سفيان» مزيدًا من المعلومات، فأضاف أنهم تركوا السودان بعد وفاة أبيهم، وساعدهم خاله «حمدون» في الحصول على الجنسية المصرية، فصارت الأسرة تعيش بالقاهرة منذ سنوات في كنف «حمدون» الذي اتسعت أعماله وصار من الكبار.. سفيان تزوَّج «زينب» بنت «حمدون» وأنجب منها ثلاثة وهي الآن حبلى بالرابع.. العام الماضي اعترف الأمريكان بأن «محمد» محبوس لديهم، ووعدوا بأن يُفرجوا عنه قريبًا، لكنها مجرد وعود كاذبة. الشيء الوحيد الأكيد، أنهم استلموا منه رسالة بخط يده المميز فيها أنه بخير ويرجو أن يتم الإفراج عنه قريبًا، لكن ذلك كان منذ فترة، ولم يحدث أي شيء.. أمه تبكيه كل ليلة، والخال «حمدون» جهز له كل أوراق الحصول على الجنسية، لكن الأمريكان ملاعين ولا يحافظون على الوعود. الشيء المربك أن الرسالة الخطية التي وصلت منه، غير مؤرخة، وهم يخشون أن تكون قديمة وأن مكروهًا وقع له، والأمريكان يسوفون حتى لا تظهر الحقيقة.

متكسرة الأنحاء عدتُ إلى البيت وقد تجاوزت الساعةُ الثامنةَ مساءً، حين رأتني «توحة» خبطت بيدها صدرها وهي تسألني عما بي، فأجبتها بأنها الدورة الشهرية. لم تقتنع، ونظرت لي وهي تقول: لا يا نورا، أكيد فيه حاجة تانية.. سارتْ ورائي ووراءها «نور» فدخلتا معي غرفتي، وأخذتا تحدقان نحوي وأثناء تبديل ثيابي، بعيون قلقة. احتضنتُ ابنتي لتطمئن ثم طلبتُ منها أن تخرج إلى الصالة لمشاهدة التلفزيون، ففعلت. ألقيتُ جسمي على السرير وتكوَّمتُ كمنزل يتهدَّم تحت زخات المطر. اقتربت «توحة» وربتتْ على كتفي وهي تقول بصوتٍ خفيض: *خير يا نورا، حصل إيه؟*

أخبرتها بأنني قابلت قريب «سمارة» وأخاه سفيان، وعرفت من الأخير أخبارًا عجيبة أهمها أن «سمارة» محبوس في معتقل أمريكي منذ سبع سنوات، وأهله يخشون أن يكون مكروه قد لحق به هناك، لأن المعلومات التي عندهم غير دقيقة.. سمعتني باهتمام حتى انتهيتُ، ثم قالت بنبرة حنون وهي تمسك يدي برفق: *يا حبيبة قلبي الموضوع بتاع «سمارة» عدت عليه سنين وأيام، واللِّ فات يا نورا عمره ما بيرجع، خلِّيكِ في النهارده وخدي بالك من نفسك، احنا مالناش غيرك.*

كدتُ أقول لها إن «نور» ابنته، لكنني لم أجرؤ.. فأجهشتُ بالبكاء.

* * *

نمتُ قلقة وصحوتُ متأخرةً فوجدتُ البيت خاليًا. لا بد أن «توحة» أوصلت «نور» إلى المدرسة، ثم ذهبت إلى السوق. شهقتُ حين رأيت الساعة تعدت التاسعة، واضطربتُ حين نظرت في تليفوني

المحمول فوجدت اتصالات كثيرة من «أشرف» لم أرد عليها. كلمته فكان في غاية اللهفة إليَّ والقلق عليَّ، فأخبرته بأنني متوعكة وسوف أذهب للعمل متأخرة، وبعد انتهائه سأصعدُ إليه. اطمأن وردَّ عليَّ بلطفٍ إنه ينتظرني من الآن، باشتياقٍ جارف.. وكان صادق الإحساس والنبرات.

عندما دخلتُ عليه عصرًا، احتضنني غير عابئ بأن خادمته بالمطبخ المفتوح بابه، ولم يفلتني إلا حين قلت له إنني غير قادرة على الوقوف. جلسنا في الشرفة مع أن الطقس كان باردًا، وعندما سألتني «أم مؤمن» عما أريد أن أشربه، قلت «قرفة» أو أي مشروب دافئ، ففهمتني، وحدَّق هو فيَّ مستغربًا طلبي ثم أعرب عن دهشته منه فقلت لا عليك، دعك من ذلك واسمعني: دكتور حاتم طلب مني *أن أكلمك في موضوع القرية السياحية، أصله عرف إننا أصدقاء. قال: أولًا، إحنا أكتر كتير من أصدقاء!* فابتسمتُ. وقال: *بس ليه «حاتم» يدخَّلك في موضوع بايخ زي ده!* فعبستُ. وقال: *عمومًا يا نورا إنتِ حبيبتي وأغلى عندي من أي شغل، وأي شخص، وأي فلوس، بس خليني الأول أفهَّمك الحكاية.*

بهدوء، شرح لي جذور المشكلة التي كنتُ أعرف بعض جوانبها، ويغيب عني بعضها الآخر.. كان «أشرف» قد بدأ تأسيس المكتب الهندسي وشركة المقاولات مع د. حاتم، لكن الأوراق الرسمية موقَّعة باسم زوجته المهندسة «نهلة» أم صاحبتي «ياسمينة»، وذلك تلافيًا لمشكلات الضرائب واللوائح المعمول بها في كلية الهندسة. وكانت نسبة «أشرف» في صافي الأرباح ستين بالمائة، وهي النسبة التي يحصل عليها المعماريون عادةً في مثل هذه الشركات. وراجت

الأعمال وتم التوسع في المشروعات حتى وقعت مشكلة «أشرف» مع زوجته، ولم يعد بعد الطلاق راغبًا في العمل والنزول يوميًّا إلى مكتبه بالشركة. أراد أيامها فضَّ الشركة، لكن د. حاتم أقنعه بالإبقاء عليها، على أن يتولى بنفسه أمور الإدارة بالكامل ويكتفي «أشرف» بعمل التصميمات والإشراف على فريق المهندسين المعماريين، دون أن يتخلَّى عن عزلته وانعزاله عن الناس. وصارت الأرباح تُقتسم بينهما بالتساوي، وتُخصم من نسبة «أشرف» رواتب المعماريين، ويتولى د. حاتم سداد بقية الرواتب ونفقات التشغيل.. وسار الأمر على هذا المنوال طيلة السنوات الماضية، حتى حدثت مشكلة القرية السياحية. المستثمرون وافقوا على التصميمات وأبرموا العقد مع الشركة للتنفيذ، وكان فيه شرطٌ جزائيٌّ واجبٌ على الطرفين مقداره مليون جنيه، إذا أخلَّ طرفٌ منهما بالعقد الموقَّع بينهما. ولسبب ما، دخل هؤلاء المستثمرون كمساهمين في جروب اسمه «صقر قريش» يملكه رجلٌ اسمه «حمدون أبو الغاب» وهو الذي اشترط تعديل التصميمات لزيادة الغرف السكنية للقرية السياحية بنسبة ستين بالمائة. وهذا جشع معتاد، وجهل. لأن التصميم الهندسي تسبقه دراسات كثيرة للموقع وطبيعة الأرض واتجاه الريح ومدار الشمس ونظام التهوية، وعوامل كثيرة لا بد من مراعاتها. والمفروض أن نزيد مساحة الأرض بالقدر الذي نريد به زيادة المباني، وإلا صار التصميم عند التنفيذ مسخًا مشوهًا، فاقدًا فكرته ومعناه وجمالياته. لكن مالك «الجروب» لا يفكر إلا في المكاسب المالية فقط، على حساب أي شيء آخر. وقد حاول «أشرف» إيجاد حلول وسطية لإنهاء هذا الإشكال، وأوفد المعماريين العاملين معه إلى الموقع ليقوموا

بعمل تحليل إضافي للموقع، عساه يجد حلًّا يتلافى التشويه المقترح. فلم يجد لذلك سبيلًا. والآن، تبخَّرت المجموعة الاستمارية التي تم إبرام العقد معها، ولجئوا للحيلة المعروفة وهي إعلان الإفلاس، فلم يبقَ أمامنا إلا مالك «الجروب» الذي يصرُّ على تعديل التصميم، ويتملص من سداد الشرط الجزائي، ويعد د. حاتم بمزيد من الأعمال ذات الربحية العالية إذا استجاب لمطلبه، فلا يريد «حاتم» أن يخسره.. استمعت له بإنصاتٍ، ثم حاورته بهدوء:

ـ طيب، اتكلم انت يا أشرف مع صاحب الجروب، واقنعه.

ـ أقنع مين. ده راجل حمار، انتِ معندكيش فكرة عنه.

ـ عندي.

ـ عجيبة، تعرفيه منين؟

أخبرته بأن الشاب الذي حكيت له إنني كنتُ أحبه أيام الجامعة، كان قريبًا له ويعمل معه بأسوان، وكان «حمدون» هذا من أهم أسباب افتراقنا... قاطعني متسائلًا بانزعاجٍ إن كنت لا زلت على اتصالٍ بهذا الشاب! فأجبته بأن أخباره انقطعت عني طيلة السنوات العشر الماضية، وبالأمس فقط عرفتُ بالصدفة أنه مسجونٌ بأمريكا منذ سبع سنوات أو أكثر.

هَزَّ رأسه راضيًا ودعاني للدخول إلى الصالة، لأن الهواء اشتد بالشرفة والسماء توشك أن تمطر. جلستُ في موضعي المعتاد وأخذ يقطع الصالة جيئةً وذهابًا وهو مشغول البال، وبعد قرابة نصف ساعةٍ بقيتُ خلالها صامتةً تمامًا وذاهلة الذهن، طرقت «أم مؤمن» الباب

كي تستأذنه في الذهاب، فأذن لها وسار حتى وقف قريبًا مني يتأمل من خلف زجاج الشرفة انهمار المطر خارجها. كان يفكر، وكنتُ أشعر برأسي كأنه علبةٌ خاوية من الصفيح الصدئ.

جاء فجلس إلى جانبي برفق، وبرفق أخذ يدي اليسرى وضمَّها بكفَّيه ثم قال: خلاص *يا نورا، اعتبري المشكلة دي انتهت*.. لم أسأله عما قرره، لكنني كنتُ واثقة فيه ومتأكِّدة من أنه يريد أن يغلق ملف المشكلة المعلَّقة منذ شهور، لأن بعض أوراقها القديمة متعلقةٌ بي. هكذا قدَّرت. رفعت كفيه الحاضنتين ليدي، وقبَّلت ظاهر كفِّه اليسرى، فأفلتها بابتسامةٍ مجهدة وعاد بظهره إلى ظهر الأريكة وأراح رأسه للخلف على الحافة العليا.. ترك يُمناه بين يدي، فملت بكتفي اليسرى إلى ظهر الأريكة وأرحتُ خدّي وبقيتُ ناظرةً إليه وهو ناظرٌ إلى سقف الغرفة. تُرى، ما الذي يدور الآن بأرجاء رأسه. مسحتُ على ظاهر يمناه بيُمناي، ببطء، فاستسلم لرقة اللمسات وأغمض عينيه. لم أتوقف عن تمشيط ذراعه بأطراف أناملي، حتى دلَّتْ أنفاسه على أنه راح في سكرة نُعاس، فلم أشأ أن أوقظه.

ملامحه وهو نائمٌ، أرق وأشبه بالأبرياء من الأطفال حين ينامون. أراحني النظر إليه وهو سابحٌ في أحلامه، ويده مستسلمة لمسِّ يدي. وهدأت دقَّات الألم المصاحب للمعاناة الشهرية، فبقينا على تلك الحالة حتى مرَّت ساعة كاملة، كنتُ أتمنى أن تمتد أكثر. لكنني لمحت عقارب الساعة المعلَّقة على الحائط تشير إلى الثامنة والنصف، فأيقظته مترفقةً بأن قبَّلت يده، فانتبه.

ـ إيه ده، أنا رُحت في النوم!

ـ وماله يا حبيبي، ادخل كمِّل نومك. أنا نازلة.

ـ لا، أنا هاوصّلك.

ـ حبيبي ارتاح انت، أنا هاخد تاكسي من قُدام العمارة.

كان الكورنيش خاليًا وزخاتُ المطر تغسل الطرقات. في الطريق إلى بيتي بقيتْ صورته وهو نائم ماثلة أمام عينيَّ، تشيع بقلبي الدفء، وفور وصولي اتصل بي ليطمئن فأخبرته بأنني أمام الباب. نمت في حدود الحادية عشرة، ثماني ساعات متصلة، وحين صحوتُ مستريحةً من إنهاك اليومين الماضيين، أفرحني ما وجدته على تليفوني المحمول من رسائله الدالة على أنه لم ينم طيلة ليله. ابتداءً من منتصف الليل، ظلّ يرسل على رأس كل ساعةٍ الرسالة نفسها القائلة بالإنجليزية، ما ترجمته: أحبك وأشتاق إليك. فرددتُ من فوري رسالة تقول بالعربية المفصحة: *أنت أحلى حاجة في الدنيا*.

* * *

قبل موعدي المعتاد بربع ساعة، كنتُ جالسةً على مكتبي بالشركة أرتشف من فنجان القهوة، وأدفع عني قلقي القديم وتوجُّسي من أيام الثلاثاء التي أخشاها من دون سببٍ مفهوم. اليوم مَرَّ في سلام، ولم يكن فيه ما يعكر صفوي إلا الألم المعتاد كل شهر. الدكتور جاء في الساعة العاشرة مستبشرًا، ودعاني للدخول معه إلى مكتبه، وللجلوس. شكرني، وأثنى على «أشرف» ثم أخبرني بأن المشكلة انحلَّت، ومن دون أن أستفسر أضاف أن «أشرف» اتصل به مساء أمس وأخبره بأنه سوف يستردُّ التصميمات ويتنازل عن شرط الجزاء وعن مقابل عمله، وهو ما يسمح للشركة بإلغاء العقد القديم والتعاقد من

جديد مع «الجروب».. وسوف يتولى «حمدون» تكليف معماري آخر بإعداد تصميم يحقِّق له ما يريد، وتتولى الشركة التنفيذ. وعليَّ الآن، أن أجمع الرسومات واللوحات وكل التقارير الخاصة بالتصميم السابق، وأرسلها إلى «أشرف».. ونصحني بالاستعانة بالمهندسة «سالي» في ذلك، فقضيتُ معظم اليوم في إنهاء هذه المهمة.

قبل خروجي من الشركة هاتفني «أشرف» ليدعوني إليه، فأجَّلتُ لقاءنا إلى الغد لأنني اليوم مجهدة ووعدته بلقاء الغد وبقضاء يوم الجمعة القادم كاملًا معه، لأن «نور» عندها حفلٌ في المدرسة، وستكون «توحة» معها.

كان يوم الجمعة الحادي عشر من يناير، من أجمل أيامنا وأكثرها صفاءً. حتى الطبيعة شاركتنا رقَّة العشق بصفوها، مع أنها أيام نوَّة الفيضة الكبرى، لكن النهار كان عبقريَّ الدفء وأول الليل سحريَّ السكون. فعلنا كل ما خطر لنا على بال، أو مال إليه هوانا، فامتد بنا التنعُّم بالفردوس من التاسعة صباحا حتى العاشرة والنصف مساءً: الإفطار، المرح العلوي، العناق، نوم الظهيرة، الارتواء، اشتعال الشغف مجددا، الغداء الشهي، الاشتهاء، هدأة الأمان التام، احتدام الاحتضان، الموسيقى، ارتجافات اللذة، لذة الخمود، الوجود.. تلك هي الحياة.

سارت بنا الأيامُ سمحة حانية. رياحُها المواتية لم يعكِّر صفوها إلا قليلُ المزعجات والمؤرقات، التي وقعت خلال الأشهر التالية. من ذلك ما جرى في منتصف الشهر الثاني من هذا العام ٢٠٠٨ يوم وجدتُ «سفيان» فجأة واقفًا أمامي بالمكتب ساعة الظهر، فاضطربتُ

بشدة واستغربتُ أنه جاء بغير موعد! قال إن معه العقد الجديد ويريد أن يحصل على توقيع د. حاتم عليه، فاستمهلته حتى استأذنتُ الدكتور وأدخلته إليه. جلس عنده نصف ساعة أو يزيد، كنتُ خلالها متأرجحة الخواطر ما بين شغفي بمعرفة الأخبار، ورغبتي في طي الماضي، ولما خرج مبتسما، بادرني بقوله: مبروك.

ـ الله يبارك فيك، خير؟

ـ وقَّعنا العقد.

ـ آه، ألف مبروك. أنت راجع القاهرة النهارده؟

ـ أيوه، عندي شغل كتير.

ـ بالتوفيق. طيب، كنت يعني.. هل فيه أخبار عن «محمد» أخوك؟

ـ لا، ربنا يفك حبسه. عمومًا، لو حصل حاجة جديدة هاتّصل بيكِ.

لم أره ثانيةً، ولم يتصل. فانشغلتُ بحاضري عما جرى قديمًا وتناسيت الماضي حتى نسيته، وتوهمتُ أنه انطوى وذهب إلى غير رجعة.. وكان من المزعجات، ما وقع في نهاية الشهر الرابع من العام، إذ أخبرني الدكتور بأن «حمدون بيه» سيأتي لزيارتنا في الشركة في حدود الثالثة عصرًا، فتأخر حتى تجاوزت الساعة الخامسة. بقيتُ مشتتةً وحائرة ما بين رغبتي في العودة للبيت لأن «نور» بدأت امتحانات آخر السنة، وانعدام رغبتي في رؤية الضيف السخيف المتأخر عن موعده، والتزامي بواجبات العمل وعدم مناسبة

الاستئذان في الذهاب مع علمي باهتمام الدكتور بالزائر المنتظر.
أخيرًا، جاء ثقيلُ الظل ومعه اثنان لا يقلان عنه سماجة، فدخلوا على الدكتور مكتبه دون اعتبار لوجودي في طريقهم، وظلوا جالسين عنده ساعةً لم أسمع فيها غير أصداء ضحكاتهم الفجة. في طريق خروجه وخلفه صاحباه، ألقى «حمدون» ناحيتي نظرةً مقيتة من نظراته المشمئزة ولم ينطق بشيء، فشعرتُ بأن «سفيان» قد أخبره بما دار بيننا فعرف من أنا. عرف ما كان في الماضي، أنا.

خرج الدكتور بعدهم واعتذر لي عن تأخيري، فدفعتُ عنه الحرج بابتسامة مصطنعة وبكلمات لطيفة. في طريق عودتي إلى البيت، كان سائق الشركة يحدثني من كرسيه الأمامي عن موجة غلاء الأسعار ومعاناة الناس، وكنتُ منشغلة عما يقوله بشعوري بالغثيان بسبب رؤيتي لحمدون أبو الغاب، وتألمي من نظرة التحقير التي ألقاها عليَّ. كم هو سخيف هذا الرجل. لا، السخف ليس وصفًا مناسبًا لمنظره وأسلوبه، لكن الكلام الفصيح ليس فيه ما يعادل الوصف الدقيق له، بالعامية: الغتاتة والجليطة.

في منتصف الصيف عانت «توحة» من أعراض مَرضيةٍ ظلت تُخفيها عني وتقاومها خفية حتى أقعدتها، فأخذتها إلى طبيب لم يُحسن علاجها فازدادت حالتها سوءًا. ولما سمع مني «أشرف» بحالتها أرسلني بها إلى طبيب مشهور يعرفه، فقام بفحوص كثيرة وتحليلات أظهرت أنها تعاني من مشكلةٍ في الكبد، اقترنت عندها بارتفاع في ضغط الدم. كتب الطبيبُ لها الأدوية الشافية فتحسَّنتْ تدريجيًا بعد أسبوعين أو أكثر من المعاناة المعذِّبة لقلبي، وفكَّرت خلال هذه الفترة في الاتصال بابنتها «أمل» لكنني تردَّدت. أخبرتُ

«أشرف» بالأمر وحيرتي فيه، فاتصل بصديقه الطبيب مستفسرًا عن صحة «توحة» ثم طمأنني عليها، وفي اليوم التالي نصحني بعدم الاتصال بابنتها «أمل» مؤكِّدًا بأنه لا داعي لذلك. سكت لحظة قبل أن يضيف ما أثار استغرابي، إذ نصحني بعباراتٍ خفيفة الوقع خطيرة المعنى، بألا أفكر ثانيةً في الاتصال بأمل، مهما كانت الدواعي! استفهمتُ منه عن السبب، فقال إن الأفضل لنا نسيان «أمل» تمامًا، لأن اقترابنا منها لن يكون فيه خير لأحد.. تعجبت من كلامه، ومما لمحته في أعماق عينيه، فسألته عما يخفيه عني. قال: لا شيء.

- يا أشرف يا حبيبي، أنا شايفة في عينيك حاجات.

- مفيش في عيني وفي قلبي إلا حاجة واحدة، اسمها نورا.

- بطَّل يا أشرف، وقول بجد. أنت سمعت حاجة عن «أمل»؟ أنا ما بحبش جو الغموض ده.

- مفيش غموض ولا حاجة، وكويس إنكم بعدتم عنها في الوقت المناسب، وأحسن لكم تنسوها خالص.

- في إيه يا أشرف؟ حرام عليك كده، قولي عرفت إيه.

حسبما كنت أتوقع، تمادتْ «أمل» في غيِّها وغواياتها حتى خرقت الحدود، وقطعت على نفسها طريق العودة. كان أشرف يترفق في إخباري بما عنده، لكن هذا الرفق لم يمنع عني الألم حين عرفت منه أن «أمل» صارت معروفة في الإسكندرية بأنها أشهر قوَّادة! وزاد من شهرتها أنها في الفترة الأخيرة طورت أسلوب عملها، فلم يعد كالمعتاد ممن يحترفن هذه المهنة، إذ ابتكرت طريقة التزويج المؤقت

المعروفة عند العوام باسم «العرفي». فمن لديه المال من زبائنها، عليه أن يستأجر شقة أو يوجِد مكانًا مستقرًا، وعليه أن يدفع لها بشكل شبه منتظم. وعليها في المقابل أن توفر له امرأة تدفئ فراشه حينًا، فإن ملَّ منها أتاحت له البديلات. شريطة أن يكتب ورقة «عرفي» تقول إن التي معه زوجته، ويحتفظ بالورقة معه ويمزقها وقتما يريد الانفصال أو التبديل. وبذلك يتحقق الشكل المقبول نسبيًا عند الناس، ويستأمن الأطراف الثلاثة من مضايقات الجيران ومداهمات بوليس الآداب، ويُرضي المتمتعُ المستمتعُ وازعه الديني بزعمه أنه يفعل شيئًا حلالًا. والحلال لا آخر له ولا شرط، إلا رضا الأطراف الثلاثة: أمل، والراغب، والمرغوبة. بكيتُ متحسِّرةً على ما آلت إليه أحوالها، فاحتضنني بحنوٍّ.. ولم نتكلم ثانيةً.

* * *

بعد نوَّة «ريح الصليب» يعني في بداية شهر أكتوبر، كنتُ جالسةً بجوار «أشرف» في شرفته عصرًا، نتأمل البحر المنبسط أمامنا إلى آخر المدى، كالحصير. ملتُ برأسي حتى استراح على كتفه اليمنى، واحتضنتُ ذراعه المستسلم لي وقبَّلت كفَّه، فقبَّل رأسي. أحسستُ لحظتها بأن العالم آمن. ومن فرط النشوة العميقة شعرت بأن كلمة «السعادة» لا تكفي للتعبير كما أحسُّ به الآن، حتى الآمال والأمنيات تبخَّرت فلم يعد عندي شيء أريده من الحياة، إلا امتداد لحظتي هذه إلى آخر العمر. هذه هي الحياة، وما عداها هباء. انعكس على مرآتي السكونُ الكونيُّ المحيط بنا، فأدركتُ أنني تجاوزت أفق السعادة فوصلتُ إلى تمام الرضا.

«نور» انتظمت في عامها الرابع الابتدائي منذ أيام، واستعادت «توحة» عافيتها بعد أسابيع العلاج، ومشروعات الشركة تتسع وعملي يزداد استقرارًا بالخبرة ويقل مجهودًا، ورسالتي للدكتوراه على وشك الانتهاء. والأهم من كل ذلك، أن «أشرف» بجانبي يحوطني بحبه واحترامه وتفهُّمه، ولا يرى في حياته ما هو أهم مني. لم أكن أتخيل، مهما جنح خيالي وحلَّق في سماوات المنى، أنني سأحظى يومًا برجل مثله. عاقلٌ وجياش العاطفة، قويٌّ ورحيم، أنيقٌ وتلقائي، مقتدرٌ ورءوف.

معه اختلفت أفكاري ومشاعري وحياتي كلها. صرتُ أرى بجلاءٍ باهرٍ ما لم يكن منظورًا، وأفعل ما يفوق خيالي، وأقتحم بيسر ما كان محظورًا. كأنه تمكَّن بلمسة ساحرٍ من كشف الغطاء، فاستعلنتِ النسوة السبع اللواتي كُنَّ سجينات بسردابي السحيق، فخرجن إلى حدائق الروح يتراقصن تحت شمس النهار بأرديةٍ حريريةٍ، وردية الألوان. كأنهن خيوط بخور، أو خطوط من سحابٍ تتماوج فوق البحر على لحن أغنية خافتةٍ شفَّافة، تهمس نغماتها بأنني عاشقة. أنا سبعةُ أطياف مؤنثة تتمايل في أفق امرأة واحدة، هي كل النساء. هي المنتهى والابتداء. هي جوهر الأنوثة وسرُّها السحريُّ المفضوح. هي أنا العاشقة.. آونةً أكون بالحب حائرةً كطفلةٍ تاهت عنها أمها، فهي تحنُّ إلى الاحتماء بالاحتضان وتنتظر الراحة والمستراح في ظل نظرته الحاوية وأنامله المطمئنة. وآونةً أكون كالقطة المستأمنة، المستلمة لمسِّ أصابعه التي تعزف لحني الخاص بغوصها الرقيق في شعري المنفوش على هيئة البدائيات، اللواتي لم يعرفن الخجل من كونهنَّ نساء. وآونةً أصير الحالمة الناعمة المحلقة بقربه في

سماوات الوصال، فلا أريده أن يشعر في سريري الحريري بحرمان. وآونةً أمسي حارسة لبوابات الجنات، وهو الحبيس الحر، المحيط المحاط به، المحبوب المرغوب قلبه وقالبه. وآونةً، أنا السيدةُ المستبدة. وآونةً أخرى، الجاريةُ المستعبدة والأمَةُ الملتذة بكل ما يلتذ به. آونةً ربَّة، وآونةً كاهنة، وآونةً سماء، وآونةً نَمِرة شبقة، وآونةً جوهرةُ الرِّقة.. أنا معه، أكثر بكثير من سبع نساء.

ـ أشرف.

ـ نعم يا نورا.

ـ بحبك.

لحظة الغروب خطرتْ له فكرةٌ جامحة، مهَّد لها بسؤالي إن كنت أستطيع غدًا إعداد صينية سمك بالبطاطس للغداء! فقلت: طبعًا.. سألني عما أحتاجه لذلك، فقلت بابتسامة أمّ تحاور حبَّة قلبها: *البطاطس والكزبرة الخضراء والكرفس والمقدونس والفلفل الأخضر، والأهم طبعًا سمكة طازجة من النوع المعروف باسم «وقَّار ١١١»*. تحمَّس، فاستغربته، فقال إنها كانت آخر وجبة غداءٍ منزلي أعدتها أمه قبل أن يُقعدها مرضُها الأخير، وهو يتمنَّى الآن أن يستعيد الإحساس بهذه اللحظة معي، بالوجبة نفسها، وتكون من صُنع يدي.. قلت: *حاضر يا حبيبي، أي حاجة نفسك فيها، أنا جاهزة.*

ضحك كطفل فَرِح، واقترح فكرةً أكثر جموحا! أن نذهب غدًا ساعة الفجر إلى «حلقة الأسماك» فنستقبل مراكب الصيد العائدة من عرض البحر، فنشتري السمكة. وفي طريق عودتنا، نأتي ببقية اللوازم من سوق «الحقانية» ثم نعود إلى هنا لأُعد الغداء، مع وعدٍ بأنه سوف

يساعدني في المطبخ. أومأت موافقة وأخذته إلى حضني، فسكن فيه مستريحًا لموافقتي على مطلبه البسيط الذي يراه مهمًّا، ويرى قيامنا به فجر غدٍ مغامرة.

تركته وحيدًا، حين تعدَّت الساعة الثامنة وأسرعتُ بالنزول، وحيدةً. فور دخولي البيت ارتميت ما بين «نور» و«توحة» فابتهجتا، ضممتهما إليَّ فغمراني بحضن حنونٍ أشعرني بإحساسٍ غريبٍ غير معهود، هو أنهما أختاي الصغرى والكبرى. لم أفهم من أين جاء هذا الشعور، لكنني فرحتُ به.. نمتُ مسرورةً، وصحوتُ على دقة من تليفوني مخبرة بأن رسالةً وصلتني، نظرتُ فيه فإذا فيها أن «أشرف» ينتظرني الآن أمام البيت! اتصلتُ به، فردَّ عليَّ مبتهجًا وقال إنه الآن في سيارته قبالة البيت، قلت: *يا سلام عليك يا أشرف. حاضر، خمس دقايق وأكون عندك.*

ارتديتُ من الملابس، ما يناسب طبيعة اليوم. ولما رآني، امتدح هيئتي وسحر «الجينز» على جسمي، فقلت: *بطَّل مبالغة!* قال إنه صادق ولا يجامل، لأن الجينز يبرز جمال فخذاي ومؤخرتي! فقلت: *بطَّل قلة أدب..* ضحك وهو يقول بعفوية: *والله بتكلم جَد، يعني من زاوية جمال التكوين والتناسق، جسمك حلو جدًّا.*

- *طيب، شكرًا يا أشرف. ممكن تاخد بالك من الطريق، وتهدِّي السرعة شوية. مش عارفة انت مستعجل على إيه!*

عند التمثال البديع الذي بمنطقة «السلسلة» طلبتُ منه الوقوف هنا قليلًا، ففعل. أحسستُ بجمال التمثال كأنني أراه لأول مرة، ملأني شعورُ المشاركة مع الجميلة النائمة بدلالٍ مبهرٍ داخل القوقعة الكبيرة.

كان لحظتها يمسك يدي اليسرى برفق، فيشيع فيَّ هذا الشعور الذي تُعطيه فتاة التمثال.. بعد برهة، استكملنا الطريق إلى «رأس التين» لكن الشمس لم تشرق بعد، ولا معنى لوصولنا هناك قبل انتشار الضوء. طلبت منه أن نتوقف قليلًا عند «محطة الرمل» فترك سيارته في الطريق الخالي في هذا الوقت المبكر، ودعاني للنزول والجلوس حينا على رصيف البحر.

متلاصقين، ومتخالفي الوجهة، وقفنا ساكتين نستمتع بلسعة البرد اللطيفة، وبداية احمرار السحاب، مع تسلل النور الآتي من خلف المباني. كلانا في صلاةٍ للجمال. لكنه كان ينظر ناحية البحر، وأنا ناظرة إلى الميدان وما يحوطه من مبانٍ قديمة، راقية الحضور، وقد بدا لي المكان أبهى بسبب السكون وقلة العابرين.. كانت لي هنا ذكريات، لكن الزمن محاها فصارت مثل بقايا الوشم. التاتُّو!

سألته إن كانت «محطة الرمل» هي أجمل تكوين معماري بالإسكندرية؟ فاستدار، ودار بعينيه من اليمين إلى الشمال، وقال: كانت زمان. سألته عن سرِّ هذا الأسى البادي في عينيه وهو ينظر إلى المباني العتيقة التي أراها جميلة، فقال إنه يراها مشوَّهة. وشرح لي: هذا الميدان تم تصميمه وفقًا لقواعد العمارة الأوروبية، وهذه المنطقة كانت في القرن ١٩ ضاحية غير مأهولة، لكنها عمرت مع إنشاء خط الترام وتصميم المعماري الإيطالي «أنطونيو لاشياك» سنة ١٨٨٧ لمحطة الترام التي سميت «الرمل» لأن المنطقة كانت كثبانًا رملية. وفي النصف الأول من القرن العشرين صارت المنطقة على هذا النحو، بعد تصميمات معمارية بديعة تراعي العلاقة بين المبنى والموقع، وبين الكتلة والفراغ المحيط بها. وكان لمشاهير

المعماريين العالميين إسهامات هنا، فهذا المبنى المكتوب عليه «الغرفة التجارية» من تصميم المعماري الفرنسي المبدع «فيكتور لارانجير» سنة ١٩١٠، وجامع إبراهيم باشا المشرف على الميدان من تصميم المعماري الإيطالي «ماريو روسّي»، وهو الذي صمَّم أيضًا جامع أبي العباس المرسي في الأربعينيات من القرن العشرين.

ـ إيه ده يا أشرف، هُمَّ كلهم أجانب!

ابتسم وهو يقول إنهم كانوا من أصول أجنبية، لكن معظمهم عاش بمصر مثلما يعيش المصريون. والعجيب أنه في زمن الفوضى المصرية واستبداد الصعاليك، دُفع هؤلاء الأجانب المتمصرون للهجرة. ومن بقي منهم بمصر عانى الويلات. فهو يعرف شخصيًا ابن «ماريو روسّي» وحفيده وهما ممن لم يهاجرا من مصر، وأسرتهم تعيش هنا منذ مائة عام. ومع ذلك ترفض الحكومة منحهم الجنسية المصرية التي يجاهدون للحصول عليها، حتى اليوم! ومع الفوضى حدث التشوه المعماري، فهذه المباني الحقيرة التي خلف التمثال، لمحلات ومكاتب تذاكر الأتوبيسات، هي جريمة. وهذا الطمس لواجهات المباني بالأسمنت، جريمة. وهذا الزحف بالأكشاك المبنية حول الحديقة، جريمة. وهذا التشقق في واجهة العمائر وعدم ترميمها بشكل سليم، جريمة.. *هنا يا نورا، جرائم كثيرة*.

أردتُ إخراجه من جوّ الأسى، فابتسمتُ قائلة بأن هذه الجرائم لم تستطع سلب الجمال من هذا المكان. هو يرى الأمور من ناحية العمارة فقط، فيشعر بالحزن لما آلت إليه الأحوال. أما أنا، ولأنني غير متخصِّصة، فلا زلت أرى «محطة الرمل» من أجمل الأماكن، وقد

تمنيت منذ طفولتي أن أسكن يومًا بواحدة من تلك العمائر البديعة المطلة على البحر.. هذه مثلًا.

أشرتُ إلى البناية الكبيرة المزخرفة حوائطها بالنقوش وشريط الفسيفساء، وهي الوسطى بين بنايات الكورنيش، المطلة على أربعة شوارع، فنظر إليها نظرةً خاطفة مليئة بالألم ثم قال ما معناه: وهل تتوهمين أن الذين شوَّهوا المكان لم يشوِّهوا حياة السكان ويخربوها! سألته:

ـ تقصد مين؟

ـ الأوباش.

ـ خلاص يا أشرف، بلاش كلام في السياسة. علشان مفيش منه فايدة. وبعدين ما الرئيس لخص الموضوع من يومين، لما قال: أنا أو الفوضى.

ـ يا نورا إحنا عايشين في الفوضى فعلًا من سنة ٥٤، المهم زمان الصيادين وصلوا، يلَّا نمشي.

تحرَّكنا بالسيارة وقد امتلأت السماء بأضواء النهار، وبدأت الحركة تدبُّ رويدًا في الأنحاء. لمحته حين فتح لي الباب للركوب، ينظر بحزنٍ إلى تلك «العمارة» التي أخبرته بأنها كانت تعجبني منذ طفولتي وطالما تمنيتُ سكناها. لكنني لم أسأله عن سبب نظرته الحزينة تلك، كيلا ننجرف في كلام أو ذكرى تفوِّت علينا فرحة «المغامرة» التي نحن في طريقنا إليها.. وبعد دقائق معدودات، وصلنا إلى «حلقة الأسماك» الواصلة بين بحري ورأس التين.

صخبُ الحياة. لا وصف أدقُّ من هذا، يعبِّر عن حال «حلقة الأسماك» وما حولها من حركة آتية من ناحية المسجد الصغير الملاصق للرصيف الخشبي، الممتد في البحر لترسو عليه المراكب. أناسٌ من كل الأعمار والفئات، وطاولاتُ أسماك يُسرعون بها إلى حلقات المزادات السريعة، وبائعون يتصايحون، وقهوجية يطوفون بصواني الشاي.. كبار السن والصغار، الأغنياء المندهشون، والفقراء المبتهجون. الشراء بالشروة لا بالميزان، والأسعار تتراوح وتتهاوى عند الجدال. سلاحف بحرية، وأسماك تبهر العين بشدة اللمعان وتنوع الأشكال، أجراس الترام العابرة، والتعبيرات السكندرية على الألسنة والوجوه. صخبُ الحياة، وفرحتها.

طلبتُ من «أشرف» أن يجلس في السيارة حتى أشتري السمك وحدي، فسألني عن السبب. قلت مازحة: *يا فندم، إنت شكلك بيه، يعني يا دوبك تبقى هنا سايح، سيب الشرا لأهله، وبعدين هيَّ مامتك كانت أخدتك معاها لما راحت اشترت السمك؟*

ـ لأ.

ـ طيب، خلاص. روح اقعد في العربية، أنا النهارده ماما.

كنتُ أريد أن أدلِّله، وأن أدفع أنا للبائع ما يستحق لأنني سوف اشتري سمكة كبيرة، إضافية. فعل ما طلبته منه. توغَّلتُ في زحام «الحلقة» وجادلتُ في الأسعار حتى اشتريتُ سمكتين مما كنتُ أتمنى «وقَّار ١١١» وزن كل واحدة حوالي كيلو جرام أو أكثر، وعدتُ إليه ظافرةً متفاخرةً بالكيسين، وفي طريقنا إلى البيت مررنا بسوق «الحقانية» لشراء الخضراوات، فنزلت عنده وعدت منه بكيسين آخرين.

في الطريق طلبت منه أن يتوقف دقيقة عند بيتي، ودخلت مسرعةً بإحدى السمكتين وأحد الكيسين، وفتحت الباب بحذر كيلا أوقظ «نور» و«توحة». تركتُ ما معي بالمطبخ، وأضفت إلى الورقة التي تركتها قبل خروجي عبارةً أخرى، فصار المكتوب: حبيبتي توحة، حبيبتي نور، *أنا خرجت في مشوار وراجعة الساعة ٨. في المطبخ سمك وخضار للصينية، اعملوها في البيت أو ابعتوا الحاجات مع البواب يعملها عند السماك*.. وخرجت متسللةً، كفتاة تهرب في الزحام من أمها، لتسمع كلماتٍ من شاب يلاحقها، ويعجبها.

كان الغداء شهيًّا، بل لا مثيل له في الشكل والطعم والطزاجة المبهجة للآكلين. رأيت حبيبي راضيًا، فرضيتُ. ورآني هانئة بقربه، فما عاد يطيق الابتعاد. ساعدني في المطبخ، وكان يذهب خلفي حين أقوم للاطمئنان، بالنظر إلى «الصينية» عبر بوابة الفرن الزجاجية. وفي النهاية وضع معي الأطباق على السفرة، وكان يختطف مني القُبل أو يدعوني للاحتدام بها، وكلما رأيت في عينيه لمعة الفرحة الطفولية. تمنيتُ أن أزيده منها.. هذا سقف السعادة الأعلى حيث الرضا، غير أن الوصول إليه خطير.

بعد الغداء بسويعة غرقنا في قيلولةٍ لا يمكن وصف حُنوِّها، وصحونا عصرًا على أحدنا يحتضن الآخر ويقبِّله، فنعلو محلقين بأجنحة المحبة. مترنحين، مشينا لإعداد الشاي في المطبخ، وأخذناه إلى الشرفة.. الجو برد يا أشرف. لا يهم. البحر ساحر. بحبك. يوم حلو فعلًا. آه منك.. نورا.. نعم حبيبي.. أنا بردت.. وبعدين معاك.. بحبك.. دفيني.

* * *

طردنا من الشرفة المطرُ الذي انهمر، فأسرعنا إلى دفء الصالة وجلسنا متلاصقين أمام شاشة التلفزيون الكبيرة، جدًا. داعبته قائلةً بأنني أشعر هنا كأنني في «سينما» فابتسم وهو يقبلني ويهمس بأن مغامرتنا القادمة ستكون الذهاب إلى السينما.. فرددتُ عليه بدلال: لا، *مُش عايزة أروح سينمات، أنا عايزة حاجة تانية!*

نظر إليّ مستفهمًا ولسان حاله يقول إنه سوف يلبي كل ما أريد، فمهَّدت لسؤالي بأن أخبرته بحرصي على الاقتراب من أعماقه، ومعرفة كل فكرة تمر برأسه الخطير هذا. ابتسم. استكملتُ الكلام بأنني لمحتُ حزنًا في عينيه حين نظر للعمارة الكبيرة التي بمحطة الرمل، وأتوقع عدة أسباب تكمن وراء هذه النظرة. منها مثلًا أن تكون له قصة حب «فظيعة مريعة» مع ساكنة هناك، أو أنه يعرف شخصًا عزيزًا عليه يسكن العمارة، أو ربما يكون قد ارتكب فيها جريمة خطيرة: *اعترفْ يا أشرف، الإنكار لا يفيد.*

تردَّد برهةً ثم أخبرني بأنه «وريث» لهذا المبنى، يملك الخُمس من الأنصبة! ثم اعتدل في جلسته، وأضاف أن أكبر أعمامه اشترى هذه «العمارة» سنة ١٩٥٠ بعدما صفَّى أعماله وتزوج بفتاةٍ في العشرين من عمرها كانت تصغره بعشرين عامًا. ومع ذلك كانا متوافقين. لكنهما لم يُرزقا بأطفال، فأمضيا سنوات يحاولان الإنجاب بتجريب كل السبل. كانت «العمارة» تغلُّ يوم اشتراها مائة وثمانين جنيهًا، وكان هذا كثيرًا آنذاك. فلما صدرتْ الأوامر بتأميم ممتلكات الأغنياء، وأصدرت القوانين المنظمة للإيجارات. فقدت أسرته أملاكها، وفقد هو التحكم في وحدات «العمارة» المؤجرة، فصارت كأنها ملكٌ للمستأجرين. فقد صاروا بحكم هذا القانون الجائر، لا يقون

للأبد بالوحدات المؤجَّرة، بل من حقهم أيضًا بحكم القانون توريثها للأبناء.. يورِّثون ما لا يملكون. ومع مرور الأيام تدهورت أحوال عمه وصار ما يأتيه من الإيجارات، إن أتى، لا يكفي لنفقات الحياة وطلبات بيته. فلم تستطع زوجته معه صبرًا وهجرته، فطلقها وبقي يتحسَّر على ما سُلب منه حتى مات شبه معدم في منتصف الثمانينيات: *تخيَّلي يا نورا، أملاكك تكون قدامك ويتحكم فيها المستأجر كأنه هو المالك، وانتِ لا قادرة تستفيدي من حاجتك ولا قادرة تبيعيها، لأن الأرض عليها مبنى محتل!*

طبعًا، تذكَّرتُ حين سمعته منزلنا القديم بكرموز، ولم أعلق.. أنهى كلامه بأنه ورث «عمارة» عمه هذه، مع أبناء وبنات عمه الآخر، لكنهم لا يحصلون منها على شيء. لأن مبلغ الإيجار الزهيد، يسدده المستأجرون في المحكمة، ليحصلوا على إيصالات قانونية تمنع طردهم لعدم سداد الإيجار. ظُلم.

بعد الغروب أردتُ توديعه فقال إن الوقت لا يزال مبكرًا، وسكت لحظة ثم عقد حاجبيه ببطء وهو يشتكي من اضطراري دومًا للانصراف وتركه وحيدًا، وتسويفي الدائم كلما كلمني عن الزواج.. شرحتُ له بأن ذلك ليس تسويفًا، بالعكس، أتمنى أن أكون معه طيلة العمر في كل الأوقات، لكن الظروف الآن لا تسمح. فلا يعقل أن نتزوج وأبقى موظفة في شركة كان شريكًا فيها، وصاحبها صاحبه. ولا يعقل أن أترك العمل الذي أنفق منه على بيتي وابنتي وخالتي، التي هي أمي وأم نور، ولن أقبل أن ينفق هو عليهما. وقد قضيتُ الفترة الأخيرة من حياتي مستقلة ومعتمدة على نفسي تمامًا، والآن من العسير اعتمادي على غيري. قال إنه ليس غيري، وبالزواج

سنكون شخصًا واحدًا ولا فرق بيننا في شيء.. حاولت إقناعه بأنني اقتربت من إنهاء رسالة الدكتوراه، وسوف أعمل بالجامعة، وساعتها لن تكون هناك أي مشكلة.

ـ لا يا نورا. كلامك غير مقنع. أنا زعلان بجد من موقفك ده، زعلان فعلًا.

ـ لا يا حبيبي، إوعى تزعل أبدًا. تعالَ أصالحك.

أجواءُ البهجة تلاشت من حولنا، وانزوى «أشرف» بزاوية الأريكة وجلس هناك مكتئبًا. الوقت يمر. أعرف أنه يقاسي الوحدة، ولكنني أعرف أيضًا أنني قاسيتُ كثيرًا حتى استطعتُ الاعتماد على نفسي، وليس بمقدوري الآن الاستغناء عن استقلاليتي، وقبول فكرة أنني والذين معي عالة عليه. احترتُ. في الأيام التالية استشرتُ كل الذين أثق فيهم، فازددتُ حيرةً ولم أصل إلي قرار يُرضي. طنط «نهلة» قالت إن أشرف رجل ممتاز ويستحق التضحية، وهو موسر ولن يشعر بمؤونة الإنفاق على أسرة. وابنتها «ياسمينة» قالت لي تلفونيًّا: *لا يا نورا، إوعي تفرطي في كيانك، الحرية أهم من الحب*.. بكيتُ وأنا أقول لها إنني لم أشعر بالحرية إلا حين أحببت.

سألتُ أستاذي د. أبو اليزيد فسألني عما أشعر به مع أشرف، فأخبرته بأنه ردَّني إليَّ وجعلني أشعر بمعنى الحياة. اقترح أن أسرع بالعمل والزواج معًا، ومن الممكن توفير وظيفة لي بالجامعة بالماجستير كمدرس مساعد، واستفسر مني عن راتبي الحالي بالشركة. قلت إنه بلغ مؤخرًا عشرة آلاف جنيه، مع بعض الامتيازات مثل سداد فاتورة التليفون، وسيارة الشركة التي تأخذني في الصباح من البيت وتعيدني

إليه بعد انتهاء العمل. سمعني باهتمام ثم ابتسم بسخرية وأسى وهو ينصحني بالبقاء في عملي الحالي، لأن المدرس المساعد بالجامعة لا يزيد راتبه عن ألف وخمسمائة جنيه، وليس لديه أي امتيازات.. وختم كلامه بأن الجامعة عمومًا تدهورت.

بعد مرور أسبوع، يعني يوم السبت التالي لسبت المغامرة السمكية، قمنا بمغامرة أخرى هي الذهاب للغداء في مطعم ريفي على الطريق الزراعي الواصل بين الإسكندرية والقاهرة.. اخضرار الحقول ساحر، ورذاذ المطر يزيد الأنحاء جمالًا على جمالها، وأشرف يقود سيارته الفخمة بتمهلٍ يناسب ابتلال الطريق بماء المطر، ويفكر.. *مالك يا حبيبي؟*

- إنتِ عارفة.

آه. سيعود للكلام عن الزواج، وسأعود لمحاولة إقناعه بالتريث حتى العام القادم، وسيغضب لأنه لا يحب الانتظار، وسأحتار بين رغبتي ورغبتي في إرضائه. ماذا أفعل؟ سأجرّب هذه الحيلة، فربما تنجح.. قلتُ له بصراحة وصدق إنني أحبه، وقلتُ له بوضوح وجلاء إنني لن أقبل بالبقاء في البيت وقيامه بالإنفاق عليَّ وعلى من معي، وقلتُ له بإخلاص ومودة إنني سأتركه يختار لي ما يراه مناسبًا عساه ألا يظلمني. وسأقبل اختياره مهما كان، لأنني لا أريد أن أخسره لأي سبب.

اقترح شيئًا غريبًا، هو أن يعطيني مبلغًا من المال على اعتبار أنه مهري، فأقوم أنا بالإنفاق منه دون الرجوع إليه في شيء، وتكون أوقاتي موزعة بين ابنتي وبينه، وختم كلامه بعبارة موجعة: يعني

سأرضى منك بالنصف.. أخفيتُ انفعالي وحدَّثته بليونة متسائلة عما إذا كان مستعدًا لسماع اقتراح آخر، فقال: تفضلي.. كان اقتراحي أن نرجئ الزواج خمسة أشهر فقط، أو ستة على الأكثر، بحيث تتم الأمر في شهر مايو القادم، سواءً كنتُ أنهيت الدكتوراه أم لا، ووجدت وظيفة أخرى أم لا.. ردَّ بهدوء: *نورا، أنا عندي دلوقت اتنين وخمسين سنة، وانت داخلة على الأربعين، يعني الوقت ضيق لو عايزين فعلًا نعمل أسرة، واحنا نعرف بعض من فترة طويلة ومفيش عندنا شيء مستخبي، يبقى مالوش معنى التأجيل ست شهور.*

ـ طيب ولو قلت لك علشان خاطري!

ـ خلاص يا نورا، كفاية كلام في الموضوع ده.

لم يتكلم طوال طريق عودتنا في أي موضوع، وكلما فاتحته في أمر أغلق الباب برد مبهم. وزاد من شعوري بالوحشة، ظلامُ الطريق بسبب الغيوم الثقال.. جاء الليلُ قبل موعده! عندما وقف بي أمام بيتي، قال باختصار إن لديه أعمالًا معلقة منذ فترة طويلة في إيطاليا، وسوف يسافر غدًا أو بعد غدٍ للانتهاء منها.

ـ طيب يا أشرف، زي ما تحبّ.

* * *

ما توقعت أنه كان جادًّا في كلامه، لكنه كان. وما صدَّقت أنه سوف يسافر فعلًا، لكنه سافر. وما تخيلت أنه سيقدر على فراقنا هذه المدة الطويلة، لكنه هناك منذ عشرين يومًا.. في المرات التي راسلته فيها قائلةً إنني مشتاقة إليه، أجاب بكلمة واحدة لا معنى لها ولا شكل: شكرًا.

أتراه يضغط عليّ، ليقهرني برفق؟ للقهر أشكال كثيرةٌ، أخطرُها اضطرارُ المقهور لاختيار قيده. يا أشرف، لا تعذبني بحبك، ولا تدفعني إلى الاقتراب منك بابتعادك، فأنا لا أحتاج دافعًا. افهمني أو اشعر بي، اصبر عليَّ حتى أبرأ مما مضى، وأبرأ لك، وأبرأ بك. أرجوك. سأتصل بك بعد ساعة فلا تكسر خاطري وتشعرني بمزيد من التيه والضياع، وأخبرني بما يرتاح قلبي إليه من بعد هذا العذاب.. بقيتُ أحدِّث نفسي بذلك وأنا جالسة في شرفتي الصغيرة، مستهينةً ببرد الفجر، وفي الساعة السابعة والنصف رنَّ هاتفي المحمول فأسرعت إليه، وأنا على يقين من أن «أشرف» هو المتصل.. فمن غيره سيتصل بي في هذا الوقت المبكر. ما هذا الرقم الغريب، غير المسجَّل تحت أي اسم؟

ـ آلو.

ـ أيوه يا نورا، كيف حالك!

ـ نعم. مين حضرتك؟

ـ إيه يا نورا. نسيتي صوتي، ولّا صوتي اتغيَّر. هه هه.

ـ محمد! معقولة.. إنت خرجت من المعتقل؟

ـ أيوه، خرجت من فترة. أنا دلوقت في إسكندرية، وعاوز أشوفك ضروري. أنا نازل في فندق سيسل، ممكن نتقابل النهارده في محل «تريانون».

ـ لأ. قصدي، عندي شغل بعد شوية. إزاي كده. شوف، أنا شغلي بيخلص الساعة أربعة. ممكن بكرة. أو، لأ، ممكن النهارده بعد الشغل. إنت هنا من فترة، ولّا وصلت إمتى.

اسمع، قابلني في «تريانون» الساعة خمسة النهارده، هاخلص شغل وآجي. مناسب ليك الموعد ده؟

ـ أيوه، مناسب. أشوفك على خير بإذن الله.

ما هذا الهوس. لا أدري كيف مرَّ عليَّ يومُ العمل، ولا أعرف إن كنت متعجلة لقائي مع الماضي أم مشفقة منه، ولست متأكدة مما سينتهي إليه هذا اللقاء.. أوصلني سائق الشركة إلى «محطة الرمل» وصرفته قبالة باب «تريانون» الذي في الزاوية، ودخلتُ المحل أتلفَّتُ بناظريَّ بين موائده الكثيرة. أهذا هو؟ نعم. كان جالسًا ينتظرني في الموضع الذي جالست فيه «أمل» آخر مرة، ولما رآني قام واقفًا فرأيتُ أنه قد صار من بعد رشاقة الصبا رجلًا ضخمًا بدينًا. وجهه امتلأ فبدا رأسه أكبر. خصوصًا مع قِصَر شعره وتراجُعه أمام زحف الصلع، وتناثر الشيب على جانبيه. على خديه لحية خفيفة لا هي بالظاهرة ولا الخفية، كأنها إشعار بأنه في حالة عزاء. تغيَّر شكله كثيرًا.

طلبتُ منه أن نجلس بالناحية الأخرى من المحل ولم أنتظر موافقته، فجاء خلفي وجلس قبالتي.. نعم، هاتان العينان أعرفهما. لكن هذه الابتسامة غريبةٌ عليّ، وهذه الملامح مألوفة ومختلفة في آن واحدٍ. هذا هو، بعد مرور خمسة عشر عامًا على لقائنا الأول، أو يزيد.

بدأ الكلام بالاطمئنان على حالي وحياتي فجاوبته بأنني بخير، وسألني عن «الأخت أمل» فأجبت بأنني لم أرها منذ سنوات، وسأل عن «نورا الصغيرة» فقلت إننا نناديها «نور» وهي الآن في الصف الرابع الابتدائي. سكت، فاستفسرتُ عما جرى معه خلال سنوات غيابه، فقال إنه اعتقل ظلمًا وخرج من ستة أشهر! استغربتُ عدم

اتصاله بي خلال هذه الأشهر الستة، وعدم وفاء أخيه «سفيان» بوعده لي أن يخبرني بأي جديد. قال إنه لم يشأ أن يتصل بي سابقًا لأنه كان مضطربًا، وكان يُنهي إجراءات حصوله على الجنسية المصرية، وكان يستقر في العمل.

قلتُ له إني عرفت أنه تزوج، فأومأ برأسه ببرود مؤكدًا ذلك، فغاظني. أخبرته بأنني عرفت أنها كانت امرأة آسيوية، وأنها هربت بعد اعتقاله مع رجل جزائري، فاتخذت ملامحه شكلًا غريبًا وقال مقطب الجبين: *وانتِ عرفتِ الحاجات دي منين يا نورا؟*

ـ كان فيه ناس أعرفهم بيشتغلوا في الدوحة، سألتهم عنك فحكوا لي الحكاية.

ـ مفيش حكاية ولا حاجة. هيَّ معذورة. كل الموضوع إني اختفيت، وهيَّ كانت لوحدها. لا قادرة ترجع بلدها ليسجنوها، ولا قادرة تقعد في الدوحة من غير مُعين. وربنا يتولى الجميع.

كأنه يحكي عن أمر لا يخصُّه، أو هي عبارات مرصوصة يردُّ بها عندما يسأل، بلا انفعال أو شعور، وبالأحرى بهدوء يصل إلى حدّ البرود. أتراه يريد أن يعرفني بأنها كانت مجرد زيجة! حتى لو كان ذلك مقصده، كيف يجوز له الكلام عن زوجته بهذا الحياد المستفز. لا أريد أن أظلمه، فربما يكون الألم هو الذي أوصله إلى هذا الحال، وجعله يقوم بتعليب الذكرى أو وضعها في إطار «ربنا يتولى الجميع» كيلا يتألم أكثر. ربما، لكن الأمر يبقى محتاجًا لمزيد استيضاح، هو نفسه صار بالنسبة لي يحتاج مزيد إيضاح.. سألته:

- وبعدما خرجت من المكان إلّي كنت فيه، حاولت تتصل بيها؟

- لأ. مفيش داعي أصلًا، أصل أنا طلقتها، وربنا يسهل لها بعيد عني.

- مكانش عندكم ولاد؟

- لأ، هيَّ تقريبًا ما بتخلّفش. وبالمناسبة، الأخت «أمل» قالت لي إن بنتك بتشبهني جدًّا. صح؟

- يعني، وانت بتشتغل فين دلوقتِ؟

- أنا مستقر في القاهرة مع خالي «حمدون». أنا ماسك العلاقات العامة في الجروب بتاعه، ومسئول عن الأعمال الخيرية.

- علاقات عامة.. وأعمال خيرية!

- أيوه، ده شغل كتير جدًّا. وكله في الخير ورضا ربنا.

لم أسترح لحديثه، واستغربتُ نبرته. لكنني لم أفصح عما يدور بذهني، واكتفيت بتحريك إصبعي على حافة فنجان القهوة، صامتةً، حتى صدمني سؤاله عن سبب خلعي الحجاب، ومتى خلعته! أجبتُ بإيجاز بأن ذلك كان منذ سنوات، لأسباب خاصة بي. قال: *طبعًا دي حرية شخصية، وانتِ كده أحلى من زمان، وجسمك يعني ما شاء الله، بس برضه يا نورا طاعة ربنا أهم من الشكل. صح ولا أنا غلطان؟*

- إنت خدت تلفوني من «سفيان» أخوك، صح؟

كنت أريد الخروج به من هذه الزاوية، لا سيما مع سمته الذي صار قريبًا من هيئة الوعّاظ والدعاة التلفزيونيين الذين لا أحبهم. وقد

سايرني في الكلام بتأكيده أنه حصل على رقمي من أخيه، وطلب منه ألا يتصل بي لأنه أراد أن يفعل ذلك بنفسه عندما يكون، حسبما قال، مستعدًّا. استغربتُ طريقةَ كلامه والثقةَ المفرطة في نبرته وشيئًا مختلفًا فيه، لا أفهمه. فقلت في نفسي إن المستقيم هو الخطُّ الأقرب بين أي نقطتين، فسألته مباشرة وبكلمات محددة عن سبب اتصاله بي اليوم وحرصه على لقائي، فكانت إجابته مفاجئة: *نورا، قولي لي بصراحة*، هيَّ «نور» بنتي فعلًا ولا لأ؟

ـ وليه بتسأل دلوقتِ؟

ـ علشان لو بنتي فعلًا، يبقى لازم نرجع لبعض يا نورا.

ـ ممكن نأجّل الكلام ده، أنا اتأخرت جدًّا.

* * *

تركته بعد اتفاقنا على اللقاء غدًا، الجمعة، في العاشرة صباحًا بمدخل فندق سيسل.. في طريق عودتي إلى البيت كان الكورنيش غارقًا في المطر ومزدحمًا مثل رأسي. سألتُ نفسي عن سبب استغرابي منه، وعدم إحساسي به، فلم أجد جوابًا. وسألتُ نفسي إن كان شعوري بأشرف قد طغى، فلم أشعر به، فلم أجد جوابًا. وسألت نفسي إن كان هذا الشخص هو نفسه الذي كنتُ قبل سنوات أنتظره ويطحنني اشتياقي إليه! وقبل السنوات بسنوات، كنتُ أرى معنى وجودي مشروطًا بحضوره، وأتوهم أنه أنا. هل تغيَّر، أم تغيَّرتُ، أم اختلف الزمانُ فاختلفنا.

ازدحام الكورنيش مساء الخميس، ملل. عند عمارات الضباط

الجاثمات على الكورنيش بمنطقة سيدي جابر، نظرتُ يسارًا فرأيت البحر والسماء يغرقان في اسودادٍ عتيد، وإبهام غامضٍ ما لبث أن غاص في جوف دماغي، فأعجزني عن التفكير. أظنني الآن منهكة، ولن يجدي إجهاد ذهني بالمزيد من الأفكار والمشاعر المتضاربة. بعد قليل أصل إلي البيت، فأهدأ وأنام، وأصحو غدًا مبكرًا فأجلس مع فنجان قهوتي وأتدبَّر أموري، حتى يأتي موعد المقابلة.. أما كان الأفضل أن نتفق على اللقاء بعد غد، أو بعد أيام، فتمتدُّ أمامي الفرصة كي أُلملم ما تبعثر مني!

فور دخولي البيت استقبلتني «توحة» بنظرة استفهام قلقة، فتجاهلتها واتجهتُ من فوري إلى غرفتي. لن يهدأ قلبها حتى تطمئن. لحقتْ بي وأخبرتني من دون أن أسألها، بأن «نور» نامت مبكرًا، وبأنني أبدو متعبة، وبأن الدموع إذا تزاحمت داخل العين يجب أن تنزل. طلبت منها أن تتركني الآن لحالي، فوافقت منكسرةً وهمَّت بالخروج وهي آسفة كسيفةُ الحال.. استوقفتها قائلة: *طيب تعالي نتكلم شوية.*

ـ يا نورا أنا حاسة بيكِ، وقلبي واكلني عليكِ.

ـ النهارده قابلت سمارة.

ـ يا لهوي، هو لسه عايش!

حكيتُ لها ما كان، وما كان من اضطرابي خلال المقابلة. فقالت إن ذلك طبيعي بسبب المفاجأة، والمفروض أن أحسم أموري ولا أتركها معلقة، لأن ذلك متعب ولا فائدة منه. سألتها عن رأيها فقالت ما توقعته: *والله يا نورا، القلب وما يريد.*

في جلستي المبكرة مع فنجانَي القهوة لم أصل لشيء، ولم يفارقني الشعور بالإرهاق. وفي الموعد كنتُ في طريقي إلى اللقاء وعقلي تصطخب فيه فوضى النهايات وآخرة الأيام. الكورنيش خالٍ صباح الجمعة والتاكسي مسرعٌ. نظرتُ يسارًا فأشعرتني البيوت والشوارع بالدوار، ونظرتُ يمينًا فكانت سحب السماء بيضاء، وزبد البحر، وقاع رأسي، وذكرياتي كلها والحاضر. لو كان «أشرف» هنا لكنتُ أكثر تماسكًا، لكنه ذهب غاضبًا ليوجعني ويطلب الاقتراب بالابتعاد.. ها هو الفندق.

في المدخل كان جالسًا في الزاوية التي بأقصى اليمين، وقام حين رآني مُرحبًا فلمحت بطنه وقد كبر فجعلته شبيهًا جدًّا بالرجلين اللذين رأيتهما مع «حمدون أبو الغاب».. أين فتاي الذي كان في عيني جميلًا؟ ومن هذا الشخص؟ وقلتُ له إن أفكاري مضطربة، فردَّ بأنه جرَّب هذا الشعور من قبل ويعرفه جيدًا. بدايةٌ غير جيدة. وقال إنه توقع أن تأتي معي اليوم «نور» ليتعرف عليها، فرددتُ بأنني لا أريد تعريضها لأي موقف صعب. إجابةٌ غير جيدة. فجأة شعرت بضيق في صدري، وأردت الهرب من أمامه والتخلص من هذه الجلسة، ومن كل شيء، فسألته بشكل مباشر عما يفكر فيه.. أدهشني كلامه وحيرني أكثر، خصوصًا مع هذه البساطة المفرطة وهذا الحياد البادي في إجابته الطويلة المترهلة، التي خلاصتها أنه إذا كانت «نور» ابنته فسوف يصحح الوضع بما يرضي الله! هكذا قال. وهو يعرف طريقة سوف تنهي هذا الوضع الخاطئ، ويعرف «ناس واصلين» سوف يساعدونه في تصويب الأخطاء التي وقعت.

- يعني إيه ناس واصلين، وعرفتهم إمتى دول، وهيعملوا إيه يعني؟

ـ شوفي يا نورا، أنا باثق فيكِ، ومفيش أحسن من الصراحة. أنا هاقولك على كل حاجة، وربنا المعين.

أخبرني بأنه سُجن سبع سنواتٍ ظلمًا، لأن اعتقاله تم بطريق الخطأ ودام بسبب تشابه اسمه «محمد محمد إبراهيم» مع أسماء إرهابيين مطلوبين لأمريكا. وبعد فترة طويلة من التحقيقات المتواصلة، عرف الأمريكان أنهم كانوا مخطئين. وهو أيضًا عرف أنه كان مخطئًا، فقد كان يظن أن عدو الشعوب المسلمة هو حكامها، ثم اكتشف أن هؤلاء الحكام مجرد لعبة في يد أمريكا، لكنها ليست بعدوٍّ ولا صديق، هي فقط تبحث عن مصالحها فتصادق أو تعادي وفقًا لما يحقق المصلحة. طيب، وبعدين. الأمريكان عندما تأكدوا من خطئهم معه، حاولوا علاج الموضوع بطريقتهم وقطع كل ذيوله، فاشترطوا عليه التوقيع على أوراق تضمن عدم ملاحقتهم قانونيًّا إذا أفرجوا عنه، فوافق. وحاولوا تقديم تعويض مالي إليه، لكنه لم يوافق خشية التورط معهم مستقبلًا. لكنه عرف لاحقًا أن هناك نوعًا من التفاهم بين الأمريكيين وبين قريبه «حمدون» وتربطهم به علاقة طيبة.. طيب، وبعدين.. كان قلقًا من المصير الذي ينتظره بمصر بعد الإفراج عنه، لكن كل الأمور انتظمت على النحو الذي وصفه له الأمريكان، وبمساعدة «حمدون» الذي أنهى له إجراءات الحصول على الجنسية في أسابيع قليلة، مع أن تلك الإجراءات تستغرق سنوات، لكن «حمدون» واصل! وهو يدير الآن مجموعة كبيرة من الشركات متعددة الأنشطة ما بين السياحة والاستثمارات العقارية والصرافة واستيراد المعدات، وينوي أيضا دخول انتخابات مجلس الشعب العام القادم، ولا بد من الاستعداد لها من الآن. ولذلك فهو يتولى العلاقات

العامة والأعمال الخيرية، لأن «حمدون» يثق فيه ويأتمنه.. طيب، وبعدين.. الأمريكان غاضبون على الرئيس «مبارك» لأنهم نصحوه بعمل إصلاحات أساسية، لكنه يراوغهم ويفكر في توريث الحكم لابنه، وهو أمر لا يوافق عليه الأمريكان ولن يوافق عليه قادة الجيش.

ـ أنا مالي ومال الكلام ده كله، بصراحة كده أنا صدعت.

ـ اصبري شوية يا نورا وانتِ تفهمي، إن الله مع الصابرين.

بعدما تلفَّت في المكان الخالي بوجهه الذي لم أعد أعرفه، قال بصوتٍ خافتٍ كأنه الفحيح، إن الفرصة مواتية لنا للمشاركة في السلطة السياسية عن طريق البرلمان والحصول على المناصب الإدارية والحكومية! فاستفهمتُ منه عن مقصده من قوله «مواتية لنا» فأجاب إجابة مبهمة: *يعني الناس إلّ تعرف ربنا، وتراعي مصالح المسلمين بالحسنى. ودلوقتِ، الحمد لله، في إيدينا معظم النقابات واتحادات الطلاب، وأهو كل يوم بيتحقق وعد ربنا، لما قال:* ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾. *صدق الله العظيم. يعني الفرج قريب بإذن الله.*

ـ أنا مستغربة منك جدًّا، ومن كلامك ده! بقى كله سياسة.

ـ وماله يا نورا، ما دام ربنا معانا يبقى إحنا الفايزين.

ـ وهوَّ ربنا بيدَّخل في السياسة!

ـ أستغفر الله، طبعًا بيدَّخل في كل شيء.

ـ طيب، بالتوفيق. بس أنا حاسَّة كده...

ـ إيه، خايفة؟

أردت أن أصارحه بأنني صرتُ أتوجَّس منه لأنني ما عدت أعرفه. فهو الآن ليس الإنسان الذي أحببته سابقًا. شكله، نظرته، كلامه، هذا الغور الذي بعينيه، وذلك الحضور الجاثم الباعث على القلق. هل نضجتُ فرأيتُ ما لم أكن أراه، أم تراني امتلأتُ بحبٍّ حاليٍّ أنساني ما سبقه؟ ليته لم يظهر الآن، وليتني ما قابلته اليوم.. ماذا يريد؟ سألته، فقال كلامًا كثيرًا فيه من المحيِّرات ما لا يُحتمل، فطلبت منه حديثًا محددًا. سكت لحظة ثم فاض بما عنده: إذا كانت «نور» ابنته، ولأنه لا يزال يحبني ويحتاجني لأكون بجانبه في الفترة المقبلة، وإذا وافقت على مراعاة الشكل الخارجي وغطيت شعري والتزمتُ بالزي الإسلامي، فسوف يرتب كل شيء بمساعدة «حمدون» فقد صارحه بكل شيء ويعرف أنه لن يتأخر في المساعدة، وسوف أكون مفيدة وممكن أن أتولى أمانة المرأة في «الجروب» لأن أصوات النساء مهمة في الانتخابات.

ـ يعني إيه؟

ـ يعني تتولي الأعمال الخيرية والمساعدات إلّ تخص المرأة، وده شغل كتير جدًا، ومهم.

ـ وشغلي، ونور بنتي؟

أجابني بما يشبه الجنون. عملي الحالي أتركه! وأما «نور» فهي إن كانت ابنته ولكنها مسجلة في الأوراق باسم أبٍ آخر، نظرًا للظروف القاسية التي مررنا بها، فسوف يتم تصحيح الأوضاع بأن نستخرج لها شهادة وفاة بالاسم الحالي، ثم نقوم بعمل «تسنين» لها ونستخرج

شهادة ميلاد جديدة بالاسم الصحيح، ونلحقها بمدرسة إسلامية بالقاهرة حيث سنستقر!

وليته اكتفى بما سبق، فقد أمعن في خوضه فأضاف متباهيًا بنفسه أن لديه معارف من المسئولين، وأن ملف أوراقه الرسمية وحصوله على الجنسية لا يزال مفتوحًا، ويمكن إضافة عقد زواج بيننا وشهادة طلاق بتاريخ أسبق بشهور من سنة زواجي بالرجل الليبي. ثم نسوِّي الأمور بشكل رسمي سليم ونعقد عقد زواجٍ جديد، فنكون قد تجاوزنا الأخطاء السابقة.

أشعرني كلامه بالمهانة، وبأن حياتي وحياة ابنتي هي أخطاء تنتظره ليصحِّحها، فقلت له بنبرةٍ حادةٍ وملامح متحجرة بعدما استفقتُ من ذهولي: *كل ده مالوش لازمة أصلًا، لأني مستحيل أوافق عليه. وبعدين لازم تعرف إن «نورا» دي بني آدمة، مش أوراق تلعب فيها. وهي أساسًا مش بنتك، ولا بنت غيرك. دي بنتي أنا، وملهاش أب، ولو سمحت كفاية كده ويا ريت تسيبني في حالي وتنساني خالص. يعني ما تتصلش بيَّ تاني أبدًا، أنا ماشية.*

ـ صلي على النبي يا نورا، هوَّ يعني أنا غلطان علشان...

ـ أنا قلت إلِّ عندي، ابعد عني خالص وعن بنتي، مع السلامة.

* * *

خرجتُ من باب الفندق بقلبٍ يضطرب وأنفاسٍ تتهدج، فاتجهتُ من فوري إلى رصيف البحر، وسرت في عكس اتجاه المنزل حتى وصلت إلى مراكب الصيادين النائمة على صفحة الماء، من أمام

ساحة مسجد «المرسي» إلى ناحية «حلقة الأسماك».. كنا هنا قبل شهرين، سعداء، ساعة طلوع الشمس. لماذا ابتعدت عني يا «أشرف» وطال ابتعادك، طلبتُ منك أن تنتظر قليلًا فابتعدت كثيرًا، ورجوتك أن تصبر عليَّ حينًا، فهجرتني أيامًا حارقة اللحظات والأحيان. مرَّ على ابتعادك شهران، وأنا أحتاجك الآن لأستكين طويلًا في حضنك وأبكي قليلًا على صدرك. أشتاق إلى شعر صدرك الكثيف، إلى حديقة روحي ومستراحي الوحيد، حيث يرتاح رأسي وترتخي خيالاتي فتختفي مخاوفي، وأستأمن. سأتصل بك اليوم لأعترف لك بأن حياتي، لم يعد لها معنى بعد ابتعادك، وبأنني سوف أستسلم لكل ما تريده.. نتزوج فورًا، حاضر. أترك العمل لأتفرغ لك، حاضر. أتنازل عن استقلالي وحريتي، حاضر.

أنا حاضرة يا أشرف لأي شيء تطلبه، ولا مطلب لي إلا البقاء بقربك. ولا اختيار إلا ما تختار. أنتَ على صواب وأنا المخطئة، أنتَ سيدُ أوقاتي وأنا الطيعة. ليكن ما تريد، فلا شيء يستحق أن نفقد وقتًا لا نملكه ولا نتحكم فيه، ولا ندري أي فواجع مفاجئة لا زالت تختبئ خلفه.. أشرف، أريد أن أختبئ فيك من العالم، ومن الآلام التي لا تحتمل. من الآخرين، ومني.

لمعت برأسي فكرةً فأوقفتُ سيارة «تاكسي» وطلبتُ توصيلي إلى منزل أستاذي د. أبو اليزيد. أخبرتني حفيدته «سلمى» عند الباب بأنه مريضٌ لا يستطيع مغادرة فراشه، وأدخلتني إليه فرأيته غائر العينين متعب النظرات، لا يقوى على الابتسام. واسيته، وخففتُ الزيارة حتى لا أثقل عليه، وغادرت بيته من دون أن تسنح أمامي الفرصة لأفاتحه فيما جئتُ من أجله: إيجاد وظيفة لي بالجامعة كمدرس مساعد،

بصرف النظر عن ضآلة المرتب.. هناك طريق آخر، غدًا أذهب لرئيس القسم وأبحث الأمر معه، فهو مثلي تلميذ للدكتور أبو اليزيد ولا أظنه سيتأخر عن المساعدة. المهم، بل الأهم من كل شيء، أن أتصل الليلة بأشرف واستعيده فأستردُّ ذاتي الهائمة منذ رحيله.

مشيتُ حتى البيت أملًا في تصفية ذهني من كدر اللقاء الصباحي، فشعرت بأن حالي قد صار أفضل، واستبشرتُ بلا سبب. بعد الغداء المتأخر تركتُ «نور» و«توحة» في الصالة، وأغلقتُ خلفي باب حجرتي وتهيأت للاتصال بأن راجعت الرسائل المتبادلة بيننا خلال أيام افتراقنا. كلها قصيرة كالأنفاس اللاهثة: عامل إيه يا أشرف؟ بخير.. وحشتني جدًّا، وانتِ كمان.. مبسوط في إيطاليا؟ يعني.. هترجع إمتى؟ لسة شوية.. خلصت شغلك؟ لسة شوية.. وبعدين معاك يا أشرف انت وحشتني خالص! وانتِ كمان.. إوعى تكون بتعمل شقاوة! مفيش نفس.. تعالَ يا أشرف كفاية كده! قريبًا.

رَنَّ هاتفه طويلًا قبل أن يردّ عليَّ بصوته الدافئ، الحزين، مرحبًا بي بكلماتٍ متحفِّظة: *أهلًا يا نورا، أخبارك؟* قلت له ليس لديَّ إلا خبرٌ واحدٌ هو أنني أحبه، ولا يمكنني الاستغناء عنه، وما عدتُ قادرة على احتمال ابتعاده عني. ظل صامتًا. أضفتُ أنني سأرضى بكل ما يريده، وعلى النحو الذي يراه صائبًا، ولكن عليه الإسراع بالعودة فقد كاد غيابه عني يتعدَّى شهرين، وهذا كثير. دام صمته. قلت بحرقةٍ صادقة إنني أتألم وحدي، فقال إنه يتألم أكثر.

ـ خلاص يا أشرف، كفاية كده أرجوك.. تعالَ.

ـ يمكن بعد أسبوع.

ـ أسبوع كتير. لو كنت خلصت شغلك، تعالَ على طول.

ـ طيب، بكرة نتكلم تاني، علشان دلوقت خارج في مشوار.

حيَّرني هذا «المشوار» المسائي! ولكن أراحني وَعْده بالعودة سريعًا، وأعاد صوته لقلبي بعض الأمان. ولما هدأتْ خواطري نسبيًّا ناديت «توحة» لأتحدث معها في أي شيء، لأتحاشى الغرق وحدي فيما تبقَّى بأعماقي من القلق. جاءت معها «نور» وأحاطا بي فصار سريري مثل بساط الريح، حكت لي «نور» عن صاحبتها «ماريان» التي حكت لها عن رحلتها الصيفية إلى فرنسا. وحكت لي «توحة» عن بواب العمارة المقابلة، الذي جاء بزوجتيه من قريته ليعيشا معه في حجرة واحدة تحت السلم، ومعهما أطفالهما الثلاثة. اجتهدتُ لأدخل غمار الحكايات التي أسمعها، لكنني في خاتمة المطاف فشلتُ فطلبتُ منهما أن يتركاني لأنام، وألا يطيلا السهر أمام التلفزيون.. وهما يفارقاني، جاءتني فكرةٌ وجدتها جيدة لكنها، لم تكن. غدًا يوم سبت ولن أذهب للعمل، وستكون «نور» بالمدرسة صباحًا، وبإمكاني الذهاب للكلية للسؤال عن موضوع التعيين. فإذا سارت الأمور مثلما أتمنى، كان عندي ما أبشر به «أشرف» حين يعود بعد أيام.. استرحتُ لهذه الفكرة، وتهيَّأتُ للنوم راضيةً لولا جاءني من الماضي اتصال تلفوني:

ـ نعم. أنا طلبت منك عدم الاتصال، ممكن أعرف إيه سبب المكالمة.

ـ قلبي مُش مطمِّن لموضوع البنت، يعني، عاوز أتأكد إنها فعلًا مُش بنتي. وخالي حمدون كمان، قال لي: لازم تتأكِّد. أصل يعني، ليه صاحبتك «أمل» قالت إنها شبهي؟

ـ آه. أولًا «أمل» كانت بتجاملك، وثانيًا بنتي طالعة شبهي أنا، ومفيهاش أي شيء منك. مثلًا، إنت عينك مش خضرا زيِّنا، وسمارنا غير سمارك. ارتحت.

ـ طيب ممكن أشوفها بكرة، علشان يعني يطمئن قلبي.

ـ وهوَّ قلبك قلقان من إيه؟

ـ إزاي بس، أصلها لو بنتي يبقى لازم تعيش معانا تتربى بطريقتنا. وبصراحة ده رأي خالي حمدون، وهو الرأي الصَّح.

ـ دي حاجة عجيبة فعلًا، هوَّ خالك ده هيفضل مكتوب عليَّ طول العمر ولا إيه! يا أخي روح إتجوز وخلِّف وربِّي عيالك بطريقتكم، وابعدوا عني.

ـ هدِّي نفسك يا نورا، مش كده. طيب ممكن أشوف صورتها إذا سمحتِ؟

ـ إنت إزاي بقيت كده! مش معقول أبدًا، أنا بقيت مش عارفاك. عمومًا، بكرة الصبح أبعت لك صورتها على الفندق.. مع السلامة.

مَنْ هذا الشخص؟! هل بمقدور الأيام تغيير البشر إلى هذه الدرجة؟ طبعًا، خمس عشرة سنة هي وقتٌ طويل، لكن هذا الشخص يختلف تمامًا عمن عرفته. لا أدري لماذا أشعر تجاهه برهبةٍ غير مفهومة، وأتوجَّس جدًّا منه، ولا أريد الاقتراب منه بأي صورة. قمت إلى جهاز الكمبيوتر، وتصفَّحتُ ملف الصور الزاخر بالمئات منها، حتى وصلت لصورة «نور» يوم ذهبتْ إلى الكوافير بمناسبة زواج

مدرِّستها «نيِّرة». فهي فيها تشبهني كثيرًا، لأنها طلبت يومها أن تكون تسريحة شعرها، مثل تسريحتي.. كيرلي.

أخذتُ نسخة من الصورة على «فلاشة» وفي الصباح ذهبتُ بها إلى محل التصوير فطبعها لي على ورقة لامعة من المقاس الكبير.. في حدود الساعة العاشرة كنت بالكلية، ومن حسن الحظ أنني أدركت الدكتور «تهامي» قبل دخوله المحاضرة. رحَّب بي، وحين أخبرته عما أفكر فيه، قال إن هذا الموضوع بيد الدكتور «سيد أحمد» وكيل الكلية، ونصحني بمقابلته ومناقشة الأمر معه فذهبتُ إليه من فوري. لم يكن بمكتبه، وأخبروني أنه سيأتي متأخرًا لأن لديه اجتماعًا في الجامعة، ولن يكون هنا قبل الساعة الثانية ظهرًا. يعني بعد ساعات ثلاث.

تحت مظلة المطر، وعبر الشارع الواسع المحاذي للترام، مشيتُ من الكلية إلى «محطة الرمل» لأترك الصورة لموظف الاستقبال بالفندق، وأقرِّرُ بعد ذلك إن كنت سأعود إلى الكلية، أم البيت وأؤجل بحث موضوع التعيين إلى يومٍ آخر. لحظة دخولي من باب الفندق وجدته جالسًا كالقَدَر بالقربِ من الباب! أقبل عليَّ وعلى وجهه ابتسامة انتصار، وقال إن قلبه حدَّثه بأنه سيراني اليوم، ودعاني للجلوس. أخرجتُ الصورة من غلافها ووضعتها أمامه، فقال: *ما شاء الله، دي كبيرة. وفعلًا شبهك، خسارة، قصدي كان نفسي تكون فعلًا شبهي.*

رأيت كلامه بلا طعم والجلسة سمجة، فاستأذنته في الانصراف آملة أن ينتهي الحالُ عند هذا الحد. لكنه طلب مني البقاء لدقائق

لأنه يريد أن يخبرني بشيء. وافقتُ على مضض، فكانت نتيجة ذلك أن بقيت أكثر من ساعةٍ، صامتةً معظم الوقت، أسمعه.. بدأ حديثه بتأكيد أنه سوف يصارحني بكل شيء، بكل وضوح، وكانت نبرته أصدق مما لمسته في كلامه أمس وأمس الأول. قال إنه حين رآني أول أمس لم يندهش، لأنه كان رأى صوري حين دلَّه أخوه «سفيان» على صفحة الشركة وصفحتي الخاصة على الإنترنت، فقضى عدة أيام يتأمل في صوري وأخباري وكل ما أنشره، فرأى فيَّ امرأةً تختلف عنِ الفتاة التي عرفها في شبابه المبكر. وأدرك أنني صرتُ شخصيةً عصريةً، أو بحسب التعبير الذي أستعمله «على الموضة»، وعرف أن صورتي التي في ذهنه، لم تعد موجودة بالواقع. ولكنه كان قد لمح من الصورتين اللتين تظهر فيهما «نور» معي، شبهًا بينها وبينه. غير أن الصورتين كانتا عن بُعد، وغير واضحتين كهذه الصورة. فظنَّ الظنون، وتذكر ما قالته له «أمل» في الدوحة قبل ثماني سنوات.. وأراد أن يتأكد مني.

- طيب، يعني لولا البنت كُنتْ فضلتْ بعيد. ماشي، فيه إيه تاني دلوقت، بعد ما عرفت إنها مش شبهك؟

قال إنه أحبني كما لم يحب أحدًا من قبل، وهو لن يحب من بعد مثل هذا الحب. وقد جاء إلى الإسكندرية في أصعب فترة مَرَّ بها في حياته. جاء ليبحث عني فعرف من الأخت «أمل» أنني تزوجت، فتعذَّب عذابًا لا يوصف ولا يقل عما عاناه خلال سنوات الاعتقال. وقد سافر ليعمل بالخليج وهو فاقد الروح والإحساس بالوجود، وكان يشعر بأنه شبحٌ يعيش مؤقتًا على هامش الحياة، حتى يأتيه الموت فيستريح من هذه الدنيا المؤلمة.. وساقته المقادير إلى قلب

آسيا، فالتقى في أوزبكستان بأناسٍ مسلمين لا يزالون على الفطرة الأولى وطيبة القلب، لكنهم يعانون مما نعاني منه هنا. وفي معظم بلاد المسلمين، فالحكام لا يرعون في الرعية دينًا ولا خُلقًا ولا صراطًا مستقيمًا، كأن الدنيا والحُكم آخر همهم ومنتهى آمالهم. فلما اعتقله الأمريكيون والتقى بالسجناء المظلوم معظمهم، عرف أن البلوى عامة ولا يمكن دفع هذا البلاء عن بلدٍ دون آخر. لأن الحل الوحيد لبلاد المسلمين، أن يعود الحكام والمحكومون إلى الاحتكام للدين الصحيح، وصار لديه يقينٌ بأن الإسلام هو الحل. لأن الابتعاد عنه، هو الذي أحدث هذا البلاء كله.

- يا سلام، طيب ما هم عملوا عندكم في السودان حكم إسلامي أيام النميري، والبلاوي زادت من أيامها.. وبعدين، أنا مالي ومال كل الكلام ده؟

قال إنه كان يفكِّر فيَّ طيلة سنوات اعتقاله، ويتمنى اليوم الذي يعود فيه فيلتقي بي ونعيش الحياة معًا بكل حلوها ومُرِّها، وكان يرى أن لقاءه بصاحبتي «أمل» قبل أيامٍ من اعتقاله، وإخبارها له بأنني صرتُ حرَّةً من زواجي، هما بشارتانِ وإشارتان من الله. ولهذا صبر على معاناة المعتقل، وظل لديه الأملُ والأمنياتُ والأحلامُ الحافظة للمقهورين من الرغبة في الفناء.. عاد بظهره إلى ظهر الكرسي، وطلب من «الجرسون» أن يأتينا بمزيدٍ من الشاي، واستغرب حين قلت إنني أريد قهوة! فسألته ساخرةً إن كان يرى القهوة من المحرمات شرعًا والعياذ بالله، فضحك وقال: لا، بس غريب *إن الراجل يشرب شاي والست تشرب قهوة، عمومًا مفيش مشكلة.*

- انت اتغيَّرت جدًّا.

تلا الآية: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، ثم الآية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ثم قال إن زمن الاعتقال كان قاسيًا، خصوصًا في الفترة الأولى. والإحساس بالظلم فادحٌ، وفقدان الأمل أفدح. ولكنه عرف لاحقًا أن الله أدخله في هذه التجربة الصعبة كي يرشده، فهو لم يكن يعرف نفسه ولا هدفه في الحياة، حتى اسمه لم يكن طيلة عمره محددًا. فهو الزول، وسمارة، وأبو بلال، والسجين رقم ٦٧٦، وبرسّ، وأنا كنتُ أدلِّله بحمادة السكر الزيادة! كان تائهًا بين أسمائه وبين دروب الحياة، فأدركه الله بلطفه الخفي وأرشده إليه.

- يعني إيه؟ مش فاهمة!

في الفترة الأخيرة بالمعتقل، أدرك أن الله اختاره ليكون من المخلصين الذين يرثون الأرض، ويحكمون فيها بالحسنى. وساق إليه الخيرات. صحيح أن سنواتٍ من عمره سقطت من الحساب، لكن العمر كله لا حساب له إلا عند معرفة الحق. وصحيح أنه فزع بشدة من فقدانه أباه وشيخه «نقطة الأكبري» لكنه أدرك بنور البصيرة أنهم أُمةٌ قد خلت، وبدأ فجرُ أُمةٍ جديدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتكون خير أمة أخرجت للناس. وقد اقترب الموعد، والله لا يخلف وعده. ولهذا فتح الله على «حمدون» ومكَّن لأمثاله في الأرض، وجعل قلوب الأمريكان تميل إلى أهل الحق وتكره الحكومات الظالمة. وقد بدأ التداعي، والعلامات يتوالى ظهورها! فيتأكَّد كل يومٍ أنه على الطريق الصحيح، وأن الفجر اقترب. بل صار موقنًا بذلك منذ جاء إلى مصر واستقر بالقاهرة، ورأى أحوال

الناس، خصوصًا عقب ما جرى بعد وصوله بعشرة أيام من إضراب عام بدأ من «المحلة الكبرى» وعمَّ عموم البلاد. هذه كلها إشارات ومبشرات، والسنوات القليلة القادمة سوف تشهد تغير المشهد.

ـ مشهد إيه بس، كلامك بصراحة مش مفهوم خالص.

تردَّد قليلًا، ثم ابتسم بطريقةٍ غريبة وهو يخبرني بأنني لو تفكَّرتُ جيدًا، وأنار الله بصيرتي فتركتُ المتاع الدنيوي الزائل ودخلتُ في الفرقة الناجية، فسوف أفهم كل شيء ويكرمني الله من واسع كرمه. طلبتُ منه المزيد من الإفصاح، فقال إنه يعرف أنني تعرضتُ للظلم. وعانيتُ في حياتي وقاسيتُ، وهذا تطهيرٌ من الذنوب! وهو لم يتوقف يومًا عن محبتي، ولو قررتُ الآن البقاء معه قلبًا وقالبًا، فلن أضحي بالكثير وسوف أكسب دنياي وآخرتي. فقط، عليَّ أن ألتزم وأعود إلى الله، والله عنده الخير الكثير.

رآني غير مقتنعة بما يقول، فهمس موضِّحًا أن الحكومات الحالية سوف تسقط من تلقاء نفسها، لانتشار الفساد فيها. ولا يوجد بديلٌ متاحٌ للحكم إلا هم. والسنوات الماضية تسير الأحوال فيها حسبما يشتهون، فهم يكتسبون كل يوم شعبية أكثر، ويتوسعون بهدوء في كل المجالات. والعام القادم سيكونون أغلبية في مجلس الشعب، ويتولون الوزارات، ثم يخوضون الانتخابات الرئاسية ويفوزون.

ـ أيوه، إلْ هُمَّ مين يعني؟

كأنه اندهش من سؤالي، البسيط، فهزَّ رأسه وهو يقول إنهم الفئة المؤمنة التي عانت من الفئة الظالمة، وهم الفرقة الناجية التي عضَّت على دينها بالنواجذ. أردتُ أن أضحك، لكنني احترمتُ حماسه

وأظهرتُ له الاهتمام، وقد أيقنت أن شيئًا في عقله قد خرب.. فلما رأى مني الاهتمام بما يقول، اطمأن وأفاض في بيان أن «حمدون» لم يعد شخصًا واحدًا، وإنما هو موجةٌ في بحر كبير. أعجبني التعبير مع أنه يخلو من المعنى! وهناك تنسيقٌ كبير بين المجموعات الإسلامية المخلصة، وضغوط كبيرة على الحكومات الظالمة كي تخفف من قبضتها على الإسلاميين، وبصراحة أكبر فإن الأمريكيين منحازون إلى فكرة الخلافة الإسلامية.

هنا لم أستطع السيطرة على نفسي، فضحكت، فعبس وابتأس. وقال مقطب الحاجبين كأنه رجل سياسة يتحدَّث للصحافة: *أيوه يا نورا، صدِّقيني، هناك رعاية أمريكية ودعم للمشروع الإسلامي، لأنه متوافق مع المصالح الأمريكية، ولأننا البديل الوحيد بعد زوال الأنظمة الظالمة*. سألته كيف صار متأكِّدًا مما يقوله بهذه الثقة المفرطة، ومن أين أتى بكل هذه التوهُّمات، فأجابني بأن عمله في «الجروب» أطلعه خلال الأشهر الماضية على كثير من الأمور، وحمدون لا يخفي عنه أي شيء لأنه يثق به، نظرًا لقرابة الدم التي تجمع بينهما. وقد أقنعه «حمدون» بأن يأخذ تعويضًا ماليًا من الأمريكيين مقابل تنازله عن ملاحقتهم، فكان رأيه هو الصواب. فقد أدَّى إلى ثقة الأمريكيين به، بصرف النظر عن المبلغ الذي أخذه بعدما رفضه. الثقة أهم، وقد جعلته الآن مُطَّلعًا على كثيرٍ من الخفايا! ابتلع ريقه ودار بعينيه فيما حولنا، مع أنه لا أحد حولنا، ثم باح بأنه على صلة مباشرة بخبيرٍ أمنيٍّ أمريكي، وهو شخص «الذيذ» خفيف الظل، متعدِّد الأسماء: مارك، ماركوس، مرقص.. وقد سمع صديقةً له أيام كانا في لندن تناديه: بودا!

ـ كفاية. كفاية كده، مُش عايزة أسمع أي حاجة تانية.

ـ ليه بس يا نورا؟ أنا بقولك إلّ حصل، علشان تطَّمِّني.

ـ أطَّمِّن!

كانت أجواءُ شهر «طوبة» العتيةُ تعربد خارج الفندق، فيصلنا صوتُ الرعد من خلف الجدران والنافذة الزجاجية التي تصفعها الرياحُ بالأمطار الغزيرة. أردت إنهاء هذه الجلسة الغرائبية والرجوع إلى بيتي، أو بالأحرى الفرار إليه. لكنه توسَّل إليَّ لأبقى قليلًا حتى يتوقف المطر المنهمر، فرضختُ لأنني لن أجد الآن «تاكسي» ولن تجدي مظلة المطر مع هذه الرياح العاصفة. ولأنني كنتُ أشعر بدوارٍ وهبوط في ضغط الدم. طلبتُ قهوة، وقررتُ أن ألتزم الصمت حتى أستفيق وأنصرف من هنا بسلام. وتمنيتُ أن يسكت، أو أن يصعد إلى غرفته ويتركني وحدي.

عَرَضَ عليَّ أن يطلب لنا الغداء لأن الساعة تعدَّت الواحدة ظهرًا، فرفضت بحسمٍ مؤكدةً أنني لا أريد إلا فنجان قهوة، وسأنصرف بعد قليل حتى وإن لم تهدأ الأجواء الهادرة. سَكَتَ. بعدما صبَّ لي «الجرسون» القهوة، وعقب رشفتي الأولى من الفنجان، عاد للكلام بسهوكةٍ مقزِّزة فقال إنه يخشى عليَّ! نظرتُ إليه بغير رضا فتردَّد حينًا ثم أضاف وهو يجتهد في اختيار المفردات: *يعلم الله يا نورا إني خايف عليكِ، أصل أنا عارف كل حاجة،* وفيه *حاجات تانية إنتِ لسه ما تعرفيها!*

ـ قصدك إيه؟

أخبرني بأنه عرف بعلاقتي الأخيرة مع المهندس المعماري، وبأننا كنا ننوي الزواج لكننا لم نجد النصيب، وبأنه هاجر إلى أوروبا قبل شهرين! قبل أن أفيق من تلك الصدمة، صدمني بالتالية: حمدون أبو الغاب، استحوذ على المكتب الهندسي وشركة المقاولات التي أعمل بها، وسوف يُعلن قريبًا عن ضمها للجروب. وقد اشترى مجموعة فيلات بمنطقة «كنج مريوط» المتاخمة للإسكندرية، وسوف تتولى الشركة ترميمها ورصف الطرق المؤدية إليها، إلى جانب توسعات أخرى وأعمال متعدِّدة في الساحل الشمالي: يعني *يا نورا، شغلك نفسه هيبقى تبع الجروب، وهتبقي كده كده بتشتغلي معانا*، بكره تشوفي.

ـ كلامك غلط، ونُصُّه أصلًا كدب.

ـ أستغفر الله، أنا كدبت عليكِ في إيه؟

حاولت تحاشي المواجهة، لكن قدرتي على كظم الغيظ لم تسعفني، وصبري نفد فغمرتني رغبة في الصراخ بصوتٍ مريع. ما هذا الهوس؟ بشفةٍ ترتجف، قلت له إنه كَذَبَ عليَّ أول أمس حين أخبرني بأنه خرج من المعتقل منذ ستة أشهر، لكنه نسيَ ذلك وذكر قبل قليل أن اضطرابات ٦ إبريل كانت بعد استقراره بالقاهرة بعشرة أيام. يعني كان هنا في شهر مارس، ونحن الآن في شهر يناير! ردَّ على ذلك بنصف ابتسامةٍ، وبقوله إنه غادر «جُوَنْتنامو» في منتصف شهر يناير العام الماضي، لكنهم أبقوه في لندن شهرين كفترةٍ انتقالية، ولما جاء إلى القاهرة تلاحقت الأحداث وتداخلت الأيام وتسارعت، فقال لي أول أمس إنها ستة أشهرٍ بنوعٍ من السهو غير المقصود.. وختم

كلامه بأن ستة أشهر أو عشرة، لن تفرق معي في أي شيء! لكنه لم يكن يقصد الكذب عليَّ.

ـ آه، فهمت. كان قصدك تبرَّر تأخيرك في الاتصال، لحد ما تجمع عني معلومات. طبعًا، ما إنتَ بقيت خطير وبتشتغل مع المخابرات.

ـ حرام عليكِ، مخابرات إيه بس؟ وبعدين وطِّي صوتك شوية، الحيطان زي ما بيقولوا ليها وِدان. أنا يا نورا في الفترة الأولانية كنت متلخبط وغرقان في حاجات كتير، وأول ما الدنيا هديت حواليَّ جيت لك على طول. علشان بحبك!

ـ كذاب. إزاي بتحبني، وكنت بتفكر فيَّ وانت هناك، زي ما بتقول. وانت عارف إنك متجوِّز واحدة تانية، وسايبها منتظراك؟ وطبعًا ماعرفتش إنها هربت منك، إلا بعد ما أفرجوا عنك بكام شهر. فلما لقيتْ إلِّ كانت في إيدك راحتْ، جاي دلوقتِ تدوَّر على إلِّ كانت قبلها.

بدا عليه الألم، فاستعاد وجهه شيئًا من ملامحه القديمة التي طمرها شكله الجديد، ولمعت في عينيه دموعٌ وهو يقول إنهم أخبروه بهروبها مع الرجل الجزائري، في عامه الأول بالمعتقل. فقد كانوا آنذاك يُعذِّبونه بكل الطرق، ومنها تحطيم شخصيته بالأخبار المروِّعة، مع عجزه التام عن التصرف في أيِّ أمرٍ. وقد كاد أن ينهار، لولا أن شخصين كانا يؤنسانه في الخيال، ويخفِّفان عنه ما يعانيه: *انتِ يا نورا، والشيخ نقطة. كنتم معايا في كل لحظة، وكنت عارف إن بنتي في*

حضنك، وإنك منتظراني ولا يمكن تتجوّزي حدّ تاني. يا نورا أنا عارف إنك لسه بتحبّيني وإن نورا الصغيرة بتي.

ضاق صدري، فانفجرتُ قائلة إن الشاب الجميل الذي أحببته اختفى، أو مات في المعتقل. ونعم «نورر» ابنته، لكنني لن أتركها له لتنشأ وسط مجموعة من الناس المهووسين بالمال والسلطة ويدعمون أنفسهم بدعاوى الدين، ولا يتورَّعون في سبيل ذلك عن التعاون مع أي طرفٍ، حتى لو كان هذا الطرف هو الأمريكان أو اليهود.

ـ يهود إيه بس يا نورا.

ـ يا سلام. أمَّال «يودا» ده يبقى إيه؟ بوذي! يعني انت مُش عارف إن معناه يهوذا، يعني لا يمكن يكون مسيحي. المسيحيين بيكرهوا الاسم ده.

ـ والله عندك حق. بس فعلًا والله، ما خدت بالي.

ـ واضح إن فيه حاجات كتير، إنتَ مُش واخد بالك منها.

ـ طيب وماله، جلَّ من لا يسهو. وعلشان كده أنا عاوزك معايا يا نورا، نرجع لبعض، ونربي بنتنا مع بعض.

فجأة غمرني الفزعُ الغامض الذي نشعر به عند الإشراف على شفا النهايات، وعند التحديق في الهاوية المظلمة السحيقة، فنسيتُ التقلصات التي تعتصر معدتي وأسقطت عن لساني سلاسل التحفُّظ وكل قيوده، وقلتُ له بوضوحٍ تامٍ إنني حاربت طويلًا حتى ملكت

زمام حياتي. ولن أفرّط فيه. لن أتركَ نَفسي لتكون لعبةً بين أصابعه، أو حجرًا يحركه قريبه «حمدون» حسبما يشاء. أنا لستُ جزءًا من عالمهم، ولا يعنيني دولتهم التي يتمنونها بديلًا عن دولة الفساد المتأبّد بالبلاد منذ ثمانٍ وعشرين سنة، أو منذ ستين عامًا توارثها الضباط الأحرار. وما أدراني أنا بأن أصحاب اللحى والحجاب، أفضل من حملة الأوسمة والنياشين. وما أدراه هو بأن الأمريكيين لا يلعبون بالفريقين، ولا فرق عندهم بين أولئك وهؤلاء.

ـ أصل يا نورا.

ـ بلا أصل، بلا فصل. كفاية لعب، إنت نفسك كنت ضحية اللعب الأمريكي بالمجاهدين المهووسين في أفغانستان. ولّا إنت نسيت. ولّا بقيت ضحية بتبحث عن ضحايا.

حاول أن يقاطعني بذكر ابنتي، فقطعت عليه هذا الطريق بقولي إن ابنتي، فعلًا، لا أب لها. الأب هو الراعي الودود. وهو روح الطمأنينة السارية في اللحظات. وهو الحضن الآمن. الأب ليس دُويدةً من جملة الملايين التي اندفقتْ في لحظة النشوة، ثم مضى صاحبها إلى حيث لا نعلم.. هو لم يكن الأب فيما سبق، ليكون الأب في المستقبل. ما دليلُ هذه الأبوة؟ أنا التي كنت دومًا الأم والأب لابنتي، وأنا الآن كذلك، وهكذا سأكون دومًا. لن أربّي ابنتي مثلما تفعل الأمهات الضحايا اللواتي يقدمن بناتهن ضحايا. سأربّي ابنتي بعيدًا عن هذا الهوس، وعن وباء التخلف والخداع، وعن الخجل من كونها أنثى. ابنتي إنسانٌ لا ينقصه عقلٌ ولا دين حسبما تزعمون، وسوف تكبر على الفخر بأنها أنثى.. جميلة.. تعرف الحب لا الحرب، تسعى

للعمار لا الدمار. نور لن تكون حَجرًا في جداركم أبدًا، بل ستكون دومًا حرة ومعتزة بأنها أنثى.

ـ فهمت، يعني انتِ مُش عاوزاها تتربَّى تربية إسلامية!

ـ سيبك من الكلام ده. أنا عايزة بنتي تتربى تربية إنسانية، عايزاها تبقى بني آدمة بجد، مُش جارية ناقصة عقل ودين.

ـ يا نورا الكلام ده يغضب ربنا.

ـ ربنا! قصدك الله؟ ولَّا الرحمان، ولَّا القهار، ولَّا رب الجنود، ولَّا آمون، ولَّا يهوه، ولَّا إلوهيم. ولَّا، إلّ جواك!

ارتبكت نظراته وغامت عيناه وهو يغمغم قائلًا: «يعني مفيش *فايدة!*»، ونظر بذهول إلى فنجاني الفارغ، وهو لا يراه ولا يرى سواه، وهمس بما لم أفهمه. قال: *يا محب الحور*.. ثم سالت عيناه ولانَ حاجباه، فأعادته دموعه صبيًّا وصار شبيهًا بمن أحببته أيام الصبا. غمرني عطفٌ عليه وشفقةٌ مفاجئة، ولم أشأ أن أبكي أمامه فأمسكت دمعتي، وقلتُ بآخر ما تبقَّى لديَّ من رفقٍ وتعقُّل: *شوف يا محمد، نور بنتي إنت ما تعرفهاش، ومفيش داعي تعيِّش نفسك في مأساة وهمية، والبنت كبرت من غيرك وأنا هاكمل معاها المشوار للآخر. وانتَ امشي المشوار إلّ تختاره، دي حريتك. بس ابعد عنا، وإحنا هنكون أحسن من غيرك. ولو قريبك أخد الشركة، أنا هاسيب الشغل وابعد، علشان مفيش داعي لصراع مالوش لازمة، ولا معنى.*

حملت حقيبتي وأسرعتُ بالانصراف، وتركته هائمًا على كرسيه

في عوالم بعيدة، وأوهام، وتمنيتُ حقًا وصدقًا ألا أراه مرةً أخرى.. لأن الذي انقضى زمنه، لن يعود.

* * *

وصلتُ البيت مبلَّلة بالمطر العاصف الذي لم ينقطع انهماره طيلة النهار، ونمت مثل قريةٍ نهبها الغزاةُ وعبروا. رأيت أحلامًا سريعةً، تتصادم، وصحوت على هزَّة من يد «توحة» ونظرة عطوف وقولها: *مالك يا نورا يا حبيبتي، بتفزعي ليه كده وانتِ نايمة؟*

- فين نور؟

- بتحلّ الواجب بتاعها في الأوضة التانية.

- طيب. أنا كويسة، بس عندي شوية صداع. هاقوم أعمل قهوة، وبعد شوية كده الصداع هيروح.

- لأ، لازم تاكلي حاجة قبل القهوة.

بقيتُ في سريري، وذهبت «توحة» لإعداد المائدة. أحسستُ بدوارٍ خفيف فأسبلتُ جفنيَّ وملأت صدري بهواءٍ وفيرٍ، مرات، وشيئًا فشيئًا شعرت براحةٍ تتسلل إلى رأسي ثم تفيض على أنحائي.. لن يكسرني أيُّ شيء، وإن تركتُ وظيفتي فسوف أجد غيرها. ولدينا من المال المدخر بالبنك ما يكفي النفقات لأكثر من عام، ولدينا «أنا» الحرَّةُ. ومهما تأخرت مناقشتي للدكتوراه بسبب مرض أستاذي المشرف وقعوده عن الحركة، فهناك مشرفٌ مشارك وسوف أحصل على الدرجة في نهاية المطاف. وسوف يأتي «أشرف» بعد أيام قليلة، ويتدفق نهرنا في مجراه فيروي الأرض العطشى للاخضرار، أو

نتصاعد تحت الشمس بخارًا يرتقي إلى السماء فيصير سحابًا يحمل سرَّ الحياة إلى الأنحاء المتباعدة.

حين صاحت «توحة» داعيةً إلى المائدة، وصلتني رائحة الطعام الشهي فأشعرتني بجوعي البدائي الشديد، فكأنني أود لو ألتهم أسدًا.. قمتُ مترنِّحةً، ومستريحةً، فأسندتُ كتفي وجانب رأسي إلى باب حجرتي، ونظرت برضا وابتسام إلى الصحون والأطباق المملوءة بطعام «توحة» الفوَّاح. هي تضيف إليه مع التوابل، شيئًا من رحيق روحها الطيبة، ومن حبها لمن تطبخ لهم. جاءت «نور» تجري من الغرفة الأخرى، وحامت حول المائدة فرحةً وهي تقول: *بامية، بامية!* دي أحلى حاجة في الدنيا.. ثم نظرت نحوي وأضافت وهي تبتسم: *بس انتِ برضه، أحلى من البامية يا ماما!* أخذتها في حضني قبل أن نتحلق بمرحٍ حول طعامنا الساخن، مقبلين عليه باشتهاء يناسب أيام الشتاء.. شديدة البرد. في غمرة الانهماك قالت «توحة» محذرةً ومبشرة، بأننا يجب ألا نملأ بطوننا لأنها أعدت لنا التحلية التي نحبها: صينية القرع العسلي! تقصد ما كان يسمى قديمًا اليقطين.

بعدما أفرغنا الأطباق والصحون ذهبنا بها إلى حوض المطبخ، وجئنا من هناك بصينية التحلية لامعة الاصفرار الغامق، كأنها الذهبُ البندقي. ضحكنا من قول «نور» إنها سوف تأكلها كلها، ثم من عجزها عن الانتهاء من القطعة التي وُضعت في صحنها: *والله مش قادرة يا ماما.*

ـ خلاص يا حبيبة قلبي، كمِّلي أكلها بعد ما تخلَّصي الديفوار.

ـ أنا خلصته خلاص يا ماما، وعايزة أنام دلوقتِ. ولما أقوم

بالليل، هنشغل أنا وتوحة المزيكا ونرقص، أصل بكرة مفيش مدرسة.

- طيب يا نور، قومي نامي.

- قولي لي يا ماما، إنتِ ليه مش بترقصي معانا؟ دا انتِ أكيد رقصك حلو قوي.

- ما بعرفش يا حبيبتي، محدش علِّمني وأنا صغيرة.

- يا سلام يا ماما! إنتِ بنات. وتوحة قالت لي، إن البنات كلهم بيعرفوا يرقصوا.

- خلاص يا نور، قومي يا روح قلبي نامي.

كانت «توحة» تتابع حديثنا بوجهٍ فَرِحٍ، وحين قامت «نور» إلى سريرها قامت فأخذت من بين يديَّ الصحن والملعقة وهي تقول: *ربنا يسعدك يا نورا، ونفرح بيكِ عن قريب، يارب يا كريم!* توحة لا تكف عن الدعوات وعن ذكر الرب الإله، مع أنني لم أرها يومًا تصلي.

* * *

في الصباح دخلت مكتبي وجلستُ بموضعي المعتاد من دون إحساسي المعتاد بالألفة. هل سيتلع «حمدون» حقًّا هذا المكان، فأضطر للتعجل بالرحيل؟ ربما، فهناك شواهد دالة على ذلك. في الشهور الأخيرة تناقص عددُ المهندسين المعماريين فلم يبقَ منهم غير «سالي» وزميلها الممصوص، وزاد عدد مشرفي العمال ومهندسي الكهرباء وميكانيكا المصاعد.. ولم يتأخر البيانُ وانكشاف الأمور،

فعند انتصاف الظهيرة جاء الدكتور «حاتم» متحمسًا، وطلب عدم الإزعاج. ثم طلبني بعد ساعة وأجلسني أمامه ليخبرني بأن أمامنا في الفترة القادمة عملًا كثيرًا، وتوسُّعات. طيب يافندم، مبروك مقدمًا. أضاف أننا نريد عروض أسعار لمعدات الرصف والمواد الخام، ولدينا مهندس جديد سوف يستلم العمل بعد يومين ومعه مساعد فني، وعندهما خبرة كبيرة من عملهما بهيئة الطرق والكباري. بالتوفيق يافندم. ختم كلامه بأن هناك خبرًا جيدًا! سوف نفتح فرعًا للشركة في شرم الشيخ: *يعني كده مكتب صغير في البداية، أصل «حمدون بيه» عنده شوية مشروعات هناك، إحنا هنتولى الإشراف عليها.. عارفة يا نورا، أنا شاعر إن سنة ٢٠٠٩ دي، هتكون فاتحة خير علينا.*

ـ حضرتك تستاهل كل الخير يافندم.

قبل مغادرته الشركة متأخرًا عن معتاده بساعة، أخبرني الدكتور بأنه سيقضي نهار الغد في موقع العمل بالساحل الشمالي. استأذنته في الانصراف مبكرًا، الساعة الواحدة من ظهر غدٍ، لأن عندي موعدًا مهمًّا في الكلية. وافق من فوره، وسألني متودِّدًا إن كُنا قد انتهينا من تشكيل لجنة مناقشتي لرسالة الدكتوراه.. فقلت إن ذلك سوف يتم قريبًا.. ابتسم وتمنى لي التوفيق.

في اليوم التالي كان وكيل الكلية جالسًا بمكتبه يتسامر مع ثلاثة من الأساتذة، فاستأذنتُ في الدخول إليه بطرقةٍ خفيفة على بابه، فدعاني للانضمام إليهم مرحبًا بما لا يليق به: *يا أهلًا وسهلًا، يا أرض احفظي ما عليكِ!* جلست في الزاوية وأكملوا كلامهم كأنهم تحمَّسوا

لوجودي، وأفاضوا من الكلام عما يشغل بالهم ويدهشني: انصرافُ الطلاب عن شراء الكتب المقررة واكتفاؤهم بالملخصات والنسخ المصوَّرة، ضرورةُ رفع نسبة درجات الامتحانات الشفوية وإلزام الطلبة بدخولها ومعهم نسخة من الكتاب المقرر للحصول على توقيع أستاذ المادة عليها، لضمان شرائهم الكتب. ضرورة ضمِّ مكافآت الساعات المكتبية إلى أصل المرتب.. تولَّاني الملل بعد نصف ساعة وهممت بالانصراف، لكن الدكتور الوكيل استبقاني قائلًا إنه سيتفرغ لي بعد دقائق، فتحرَّج المتسامرون وانصرفوا. دعاني للجلوس على الكرسي الذي أمام مكتبه، والتهمني بناظريه حين قمت من مكاني، وحين خطوت الخطوتيْن، وحين جلست. تجاهلتُ نظراته وكدتُ أتكلم لولا أن بادر بالابتداء، سائلًا إن كان هذا هو لون عيوني فعلًا، أم أنها عدسات ملونة!

- لأ يا فندم، مُش عدسات.

- ما شاء الله. وإيه الضحكة الحلوة دي؟ والله كل حاجة فيكِ حلوة، دا في البداية افتكرتك أجنبية!

- لأ مصرية حضرتك، أنا نورا عبد السلام تلميذة الدكتور أبو اليزيد، وهاناقش الدكتوراه قُريِّب. كنت عايزة أستفسر من سيادتك عن إمكانية التعيين في وظيفة مدرس مساعد.

- وليه مدرس مساعد، ما دام هتناقشي رسالتك قُريِّب؟

- يعني، علشان لو المناقشة اتأخرت شوية. حضرتك عارف إن الدكتور أبو اليزيد مريض شوية.

- آه، ده حدّ قال لي كمان إنهم نقلوه مستشفى الجامعة إمبارح، وحالته تعبانة قوي.

- أنا هاعدّي عليه بعد شوية، بس كنت أحب أعرف من سيادتك إن كان فيه فرصة للتعيين.

عاد بظهره للوراء وبالأحرى تمطى، ثم تحدَّث على مهل وهو يبتسم بسخرية المقتدرين. قال إنه لا توجد إلا درجة وظيفية واحدة، وهناك عدة طلبات لها، لكنه تقديرًا لجمالي قد يحاول! وقام من كرسيه، وجلس على الكرسي المقابل وأطلق عينيْه في تفاصيل جسمي، وامتدح أناقتي. شكرته. قال إنه يحب أن يساعد على تعييني، ليرتفع مستوى الجمال في الكلية. شكرته. تنحنح قبل أن يقول من دون مناسبة إن لديه فيلا هادئة في منطقة العجمي، فعرفتُ ما سيأتي على لسانه بعد ذلك ولم أحب أن أسمعه. نظرتُ في ساعتي، وقمتُ من فوري معتذرة بأن لديَّ موعدًا مهمًّا، ولابد أن أمر قبله على المستشفى. تحسَّر وكاد يقول شيئًا، لكنني لم أترك له الفرصة وأسرعت بالمغادرة بعد عبارة خاتمة: *شكرًا لحضرتك*.. فقال بأسف الفوات: *عمومًا أنا موجود هنا في مكتبي كل يوم، وده تليفوني الخاص، ابقي كلميني!* هربتُ، وفي داخلي إحساسٌ مريرٌ بأنني محاصرةٌ بأنوثتي، وبأن الجمال في مجتمعنا لعنةٌ تلاحق الحسناوات وتجعلهن دومًا كالطرائد.

أخبروني في المستشفى بأن زيارة د. أبو اليزيد ممنوعة، لأنه في وحدة العناية المركزة. كانت حفيدته «سلمى» تبكي بحرقة المودِّعين، واسيتها، وأسرعت بالذهاب إلى البيت مضطربة الأفكار.. في المساء أردتُ الخلوة بنفسي في الشرفة، فوجدت الريح عاصفة. وأردت

مراجعة الجزء الأخير من رسالتي، فوجدتُ ذهني شاردًا مشوَّش المسارات. وأردتُ أن أستلقي على سريري متناسية ما قد تأتي به الأيام القادمة، فما استطعت.. أغلقتُ عليَّ باب غرفتي، واتصلت بأشرف:

ـ عملت إيه يا أشرف، حجزت؟

ـ لسه يا نورا، عندي هنا شوية حاجات.

ـ أنا محتاجة لك جدًّا، أرجوك تعالَ بسرعة، مُش عارفة أتصرَّف لوحدي.

ـ خير يا نورا، حصل إيه؟

ـ مش هينفع في التليفون، تعالَ بقى، حتى يوم واحد بس. أشوفك ونتكلم، وبعدين ابقى ارجع إيطاليا كمِّل شغلك. أرجوك يا أشرف.

«حاضر».. قال ذلك بنبرةٍ مستسلمة، وصادقة، ووعدني بأنه سيحاول غدًا الحصول على تذكرة في طائرة يوم الأربعاء، يعني بعد غدٍ. وحدَّثني قلبي بأنه سيأتي في الموعد، ولم يكذب، فقد اتصل بي صباح يوم الأربعاء ليخبرني بأنه في طريقه إلى المطار، واقترح أن نلتقي الساعة الخامسة في فندق سيل! فأثار ذلك استغرابي، وتخلَّصتُ من المأزق بأنني لا أحب هذا المكان، لأنه كئيب.

ـ خلاص يا نورا، نتقابل في هيلتون جرين بلازا في الكافتيريا.

ـ وليه الفنادق؟ ما تيجي على بيتك أحسن.

ـ مُش هينفع، لما أشوفك هافهِّمك.

* * *

قبل الموعد بعشر دقائق، كنتُ أمام الفندق الذي لم أدخله من قبل. دلّني رجلُ الأمن الواقف عند الواجهة الزجاجية، على «اللوبي» وكافتيريا الفندق في الدور الأول. وأشار إلى المصعد. المكان فسيحٌ، ومتأنق. وفي الناحية اليمنى منه كان «أشرف» يجلس وحيدًا، هادئًا، كأنه خرج للتوّ من روايةٍ رومانسية.. خفق قلبي لرؤيته وتقافز فرحًا، وحيت اقتربت رأيته قد ازداد نحولًا، فأعربتُ له عن قلقي من ذلك. قال إنه بخير، لكنه يسكن في روما بالقرب من حديقة مشهورة هناك، اسمها «فيلا بورجيزي» وهو يمشي فيها كل يومٍ ساعتين. مستمتعًا بالخضرة، والتماثيل المبثوثة بين الأشجار، وأناقة البنايات. غير عابئ ببرودة الطقس في هذه الأيام.

سألني عن حالي، فأجبتُ بأنه مضطربٌ بسبب غيابه عني، ولأسبابٍ أخرى كثيرةٍ. منها أن «حمدون أبو الغاب» سوف يستولي على الشركة، ويضمها إلى مجموعته. لم يهتم. ومنها أن الشاب الذي أحببته قديمًا، عاد من معتقل «جُوَنْتنامو» وقابلني قبل يومين، لكنه تغيَّر كثيرًا ولم يعد الشخص الذي عرفته، وقد اتضح أنه من أقارب «حمدون» وصار الآن يعمل معه. لم يهتم بالقدر المتوقع. لم أجد بُدًّا من البوح بأنني حائرة منذ غيابه ويقتلني شوقي إليه، لكنني لم أذنب حتى يعاقبني بهذا الابتعاد الموجع. وكدتُ أقول له إنني نادمة على معارضته، وسوف أوافق من فوري على كل ما يريد، لأنني لا طاقة لي بفراقه ولو ليومٍ واحد. كدتُ أفضي له بذلك، لولا أنه بدأ الكلام وعلى عينيه مسحة من الحزن الشفيف، والأسى.

قال إنه تألم من رفضي له، ولم يفهم إصراري على تأجيل الارتباط بلا سببٍ واضح، والبقاء شهورًا طوالًا في معاناةٍ لا معنى لها. وكان

أكثر ما أثَّر فيه، هو ذلك الشعور المرير بأنني أفكِّر خارج الإطار الذي يجمعنا، وأنظر إليه على اعتبار أنه شخص منفصل. مع أنه كان يشعر بأننا كيانٌ واحد كان! حاولتُ أن أراجعه، فرفع أصابع يمناه راجيًا أن أتركه يكمل كلامه، فالتزمتُ الصمت وأصختُ السمع. أضاف بلطف طفوليٍّ الحزن، أنه عانى كثيرًا وعذَّبه شعوره بأنني غير راغبة فيه، بقدر ما هو راغبٌ فيَّ ولا يفكر في سواي. لكنه لم يجد أمامه سبيلًا إلا الرضوخ لما اشترطته من البقاء متباعدين حتى الصيف القادم، وضاقت عليه الأوقات.

كانت لديه فعلًا في إيطاليا أمورٌ معلَّقةٌ، تتعلَّق بأعمال أبيه السابقة هناك. فوجد من المناسب أن يذهب لإنهائها، ويصرف الوقت في ذلك. عسى ذهنه يصفو، أو أفهم ما يعانيه فأدعوه للإسراع بالعودة والتعجيل بزواجنا. لكنني اكتفيتُ بإرسال الرسائل القصيرة، التي كانت تزيد من التهاب أحواله ولا تطفئ التياعه في وحدته البعيدة. من ناحيةٍ أخرى، وجد من شركاء أبيه القدامى كل العون، بل وجدهم يسارعون إلى ردِّ حقوقه المتروكة هناك منذ سنواتٍ طوال. هي ليست مبالغ طائلة، لكنها أيضًا ليست قليلة. وقد طاب له موقفهم النبيل، بأكثر مما أسعده استعادة ماله المنسي. وخلال ذلك، حسَّنوا له فكرة البقاء بإيطاليا لأن عمله الذي لا يحظى هنا بالتقدير، سيجد هناك الحفاوة التي يستحقها. وكان كلما تعامل مع الناس أو تجوَّل في الأنحاء، قارن بين بؤس الحياة هنا ورقيِّها هناك، فيميل إلى قبول ما اقترحوه.. لكن حبه لي ظل يؤرقه، وكان يعلم أنني لن أوافق على البقاء معه هناك، وكان يخشى من طرح الفكرة، لأنه يعرف مسبقًا أنني سأرفضها.

ـ وبعدين يا أشرف؟

معارفه هناك كثيرون، وقد اقترح عليه بعضهم أن يحصل على الجنسية الإيطالية، لأن أباه كان حاصلًا عليها. وهم هناك لا يشترطون إسقاط جنسيته المصرية، كي يمنحوه الجنسية الإيطالية. فوجدها فكرة جيدة، وسار في الإجراءات ووجد العون من معارفه، ومن المنتظر أن يحصل قريبًا على جواز سفر إيطالي.. الغريبُ أنه في اليوم الذي تخيَّل فيه أنه يستطيع الابتعاد عني، جاءه مني اتصال تليفوني فأشعل فيه اللهيب الذي ظنَّه قد انطفأ.

كان يومها، يقصد ليلة الجمعة الماضية، على وشك الخروج من البيت تلبيةً لدعوة ألحَّ عليها أصدقاؤه هناك، على أمل أن يتعرف فيها على أناسٍ جدد. أو بتعبيرٍ أدق، على صديقةٍ تؤنس وحدته.. كان هائمًا مثل روحٍ بغير جسد، ولكنه حين سمع صوتي استعاد كل شيء، فذهب إلى الحفل ولم يَرَ هناك أحدًا لأن صورتي كانت تملؤه. ولما طلبت منه المجيء أول أمس، لم يستطع التأخر، لأنه لا شيء عنده في هذا العالم أهم مني. ومع ذلك، فهو لن يستطيع البقاء هنا. ولن يحتمل العيش في بلدٍ يتشوَّه وينحدر.

ـ يعني يا أشرف تقصد إيه؟

أجابني وقد امتلأ فجأة بالحماسة، مؤكدًا أنه سوف يشتري شقة بمنطقة ساحرة بأطراف روما، وكلَّف مكتب عقارات هنا ببيع شقتيه اللتين في لوران، وليس لديه ارتباطات أخرى هنا. وسوف يرتِّب أموره بحيث يعيش هناك بقية عمره، بعيدًا عن هذا البلد الذي لم يعد يُحتمل، ولا أمل في خروجه من المستنقع، فبعد الرئيس الحالي

سيأتي ابنه أو شخصٌ يُشبهه، فلن يتغيَّر شيء.. وهو لن يرجع عن قراره هذا! فإن أردتُ الهجرة معه فسوف يسعد بي بقية عمره، وإن تركته يذهب وحده فسوف يستبد به اشتياقه لي، لكنه سيجد هناك العزاء: *أنا راجع بكرة، وجيت النهارده لسبب واحد، إنك تتأكِّدي من حبي. ودلوقتِ لكِ الاختيار.*

ـ شوف يا أشرف. أولًا كلامك ده وجعني جدًّا، فوق ما تتصور. إنما في النهاية ده قرارك، وانت طبعًا حُرّ في حياتك. ثانيًا أنا معنديش أي شك في حبي ليك، لكن أنا كمان بحب بنتي، وبحب حياتي هنا. حتى مع الأحوال الصعبة دي. عمومًا أنا باشكرك إنك جيت مخصوص علشاني، بس واضح كده إني كُنت بحلم حلم تاني، غير حلمك.

ـ طيب على الأقل، فكَّري يا نورا.

ـ مفيش داعي، أصل مفيش فايدة من التفكير.

* * *

خارج الفندق كانت الممرات بين المَحال مزدحمة، وكثيرٌ من زوَّار المكان مبتهجون. خصوصًا صغار السن. سوف يبيت «أشرف» في هذا الفندق، ثم يعود غدًا إلى ما هاجر إليه.. أما أنا، الحائرة، فمحكومٌ عليَّ بالمعاناة هنا، وبالبقاء بلا روح.

* * *

الأيامُ سوف تمضي، مهما كان ما تخبئه لنا، أو تفجؤنا به. وفوضى العالم من حولي سوف تزداد، ولن أجد العزاء الذي يعين على البقاء..

أين المهندس الأعظم الذي حكى عنه أفلاطون، والمحرك الأول عند أرسطو؟ يا أستاذي أبو اليزيد، خبر وفاتك وقع عليَّ كالصاعقة، لكنني سأحتمل الألم وأسير به بين دروب الحياة الملتوية، وأجتهدُ في العبور فوق مآسيها. فإن أزهرت الحدائقُ حولي أكون فراشةً، وإن اشتعلتِ الحرائق أكون كالسمندل الذي لا تحرقه النار.

* * *

مرتْ عليَّ أيامٌ لا أعرف عددها. ما عدتُ أَعُدُّ الأيام متلهِّفة أو أحصي الأوقات مترقبةً ما قد يأتي. ولن أعِدَّ العُدَّةَ لغدٍ لا أدري ما يخفيه. عندي لحظةٌ حاضرة فقط، سأغوص فيها بكاملي وأحياها بكل ما أوتيت من قوة.. أنا لستُ بحاجةٍ إلى عزاءٍ مع أنني أحتاج الحب، ولستُ قادرة على الاستسلام مع أن الانكسار مريح. وأنا، لستُ غيري.

تحت الماء الدافئ المنهمر عليَّ اغتسلتُ من وجعي، ومن كل ما انطوى ولن يعود. ومستدفئةً بأرديتي الشتوية خرجتُ من الحمَّام مثلما تخرج من أحلامنا الحوريات، ومشيتُ بهدوء إلى غرفتي مثلما يمشين على الأرض وفوق الهواء هونًا، بلا هوان.. وسط سريري جلستُ متربِّعة الساقين، في بهاءٍ تامٍّ، وغصتُ بأصابعي في جوف شعري، من تحته، ونثرته. تمامًا كما كنتُ أفعل سابقًا، وكما سأفعل دومًا.

مسَّتْ مسامعي الجلبةُ المبهجة، وجاءت «نور» تجري لتختبئ تحت لحافي وتضحك، ومن خلفها جاءت «توحة» مبتسمةً وهي تدبُّ بأقدامها كأنها تطارد صغيرتنا مهدِّدةً لها بالدعابة المعتادة بينهما

في الأمسيات: *أنا لازم الليلة دي آكل حتة من مناخير*.. تركتهما في لهوهما وخرجتُ إلى الصالة، وهناك نظرتُ في تليفوني المحمول فوجدتُ أنه فاتني أثناء استحمامي ثلاثة اتصالات، منها اتصال محليٌّ من حبيبي القديم المشكوك في أحواله الحالية، واتصال دولي من حبيبي الحالي المشكوك جدًّا في حاليته.. فهل أتجاهل الاتصالين، أم أعاود الاتصال بأحدهما؟ سنرى.

* * *

الحياةُ التي نحلُم بها محال.





يوسف زيدان، مفكر وروائي مصري مرموق، حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة وتاريخ العلوم. وصدر له حتى الآن أكثر من ستين كتابًا. نالت أعماله جوائز دولية عديدة: جائزة «عبد الحميد شومان» للعلماء العرب الشبان (الأردن)، جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (الكويت)، جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال الفقه الطبي وأصول فن تحقيق المخطوطات.. ونالت روايته الأشهر «عزازيل» عدة جوائز عالمية: جائزة البوكر العربية (٢٠٠٩)، وجائزة أنوبي (٢٠١٢)، وجائزة بانيبال (٢٠١٢). أصدرت له دار الشروق عددًا من المؤلفات والأعمال الإبداعية، منها رواياته: ظل الأفعى، عزازيل، النبطي، محال، جونتنامو.. وتتصدر رواياته قائمة الكتب الأعلى مبيعًا منذ صدورها وحتى الآن.